

المجمع المصري في عصر سلاطين المماليك

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

طبعة جديدة مزيّدة منقحة

١٩٩٤

دار النهضة العربية
٢٢ شارع ميدان الخلق شروت بالقاهرة

المجموع المصري في عصر كلاطين الماليك

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

طبعة جديدة مزيدة ومنقحة

١٩٩٢

دار النهضة العربية
٢٤ شارع عبدالخالق ثروت بالقاهرة



مقدمة

لا تزال المؤلفات الحديثة الباحثة في الجانب الاجتماعي لمختلف عصور التاريخ المصري الطويل قليلة ونادرة . وربما كان من أسباب إعراض الباحثين عن هذه الناحية بالذات قلة المصادر المعاصرة المتوفرة على هذا الجانب الهام من جوانب التاريخ .

والواقع إن العلاقة بين التاريخ والاجتماع قوية وثيقة حتى أن جزءا كبيرا مما كتبه العلماء في الاجتماع ليس إلا فلسفة للتاريخ في صورة اجتماعية^(١) . فإذا كانت تصرفات الأفراد — على اختلاف مراكزهم — تسفل ركنا هاما من أركان التاريخ ، فإن تصرفات الفرد بل إن آراءه وأفكاره ومشاعره تؤثر فيها وتوجهها النظم والتقاليد والعادات السائدة في ذلك المجتمع ، والتي تحيط بالفرد كما يحيط الغلاف الهوائي بالأرض^(٢) . وهكذا نجد أنه كلما تقدم منهج البحث التاريخي اتسعت دائرة أفقه وأخذ يقترب من علم الاجتماع لتزداد الرابطة بين العلمين^(٣) .

ودراسة الحياة الاجتماعية تختلف إلى حد كبير عن دراسة الأحداث السياسية ، لأن الأحداث السياسية مزاجها التغيير والتبديل وعدم الاستقرار ، في حين تنزل الحياة الاجتماعية على شيء من الثبات وعدم التغيير السريع أو بطئه الشديد . مثال ذلك ما يحتويه ريف مصر اليوم

Cilinn, Blackman : Outlines of Sociology; p. 33. (١)

Idem : p. 3. (٢)

Idem : 38. (٣)

من عادات وتقاليد اجتماعية ترجع إلى أزمنة سالفة * وقد ظل أهل مصر حتى القرن العشرين يحتفلون بوفاء النيل احتفالاً يشبه في فكرته وصورته احتفال الفراعنة به * ثم إن الأمثال والتعبيرات العامية — وهي ظاهرة وصفية لروح الشعب — لا تزال تحتوى اليوم على كثير مما رده أجدادنا في عصر المماليك ، وقبل عصر المماليك^(٤) .

وعلى ذلك فإن الباحث في الحياة الاجتماعية كثيراً ما يجد نفسه في حل من أن يلجأ إلى بعض المصادر المتقدمة قليلاً أو المتأخرة قليلاً عن العصر الذى يبحث فيه ، لاستكمال صورة ناقصة أو للعثور على حلقة مفقودة ، وإن كان الاقتراب من هذه المصادر يتطلب الحذر والحيطه في البحث .

وقد اتفق علماء الاجتماع على أن المقصود بالحياة الاجتماعية جميع نواحي النشاط الانسانى في ميادين العمل ، والدين ، والتعليم ، والنشاط الاقتصادى ، واللعب واللهو ، والأسرة وكيانها ، والأعياد والأفراح ، والمآتم والأحزان ، والأمراض الاجتماعية * ولذا يتعذر على الباحث أن يلم بجميع أطراف الحياة الاجتماعية لشعب معين في عصر من العصور ، لأن أفق الحياة الاجتماعية نفسه غير محدد حتى يمكن الإلمام بجميع أطرافه * وكان أن تطلب منى التاريخ للحياة الاجتماعية في مصر في العصر المماليكى دراسة كل ما وصلت إليه من مؤلفات

(٤) ابن دانيال : طيف الخيال ص ٤٨ . ومن هذه التعبيرات « وقع الناس في الراس » ، « ملان وفلان حجرين في لباس » ، « يا فلان لا تقطع رجلك عنا » ، « ملان أصبحت رأسه في السماء » ، « فرجت عليه كلاب البلد » .. وغير ذلك من قائمة التعبيرات العامية الطويلة التى ذكرها السيوطى والبلى ما زلنا نسمعها اليوم .

(السيوطى : الكنز المنفون ص ١٤٥) .

ومصادر معاصرة في مختلف العلوم والفنون ، كالتاريخ والتراجم والخطط والجغرافيا والفقه والتصوف والأدب والعلوم والفلاحة والألعاب ، وغيرها من المعارف العامة + وثمة نوع من المصادر أوليته عناية خاصة ، هو الأدب الشعبي من قصص وبلاليق وأمثال وتمثيلات وأغان معاصرة + ويتصف هذا الأدب الشعبي بالسير على المذهب الواقعي لا المثالي ، فالبطل يرتكب أنواع الرذائل ولا بأس أن ينتهي أمره بالتعظم والإجلال ويعيش منعا مكرما ، مما يعطينا فكرة صادقة عن الحياة الواقعية في العصر المراد بحثه + كذلك تشرت في هذا النوع من المصادر الألفاظ البذيئة مما تستحي منه الأذن والعين ، كما يبدو ذلك جليا في مسرحيات خيال الظل المعاصرة^(٥) . على أن هذه العيوب كلها لا تقلل في الواقع من أهمية ذلك التراث الضخم الذي تتراءى فيه شخصية الشعب^(٦) .

وتتراءى أوصاف الشعب كذلك في ملحوظات الرحالة الشرقيين والغربيين الذين زاروا مصر في العصور الوسطى ، لأن كثيرا من العادات وألوان النشاط الاجتماعي التي بدت في أعين المعاصرين من أهل البلاد شيئا مألوفا وعاديا ، ظهرت غريبة بالنسبة لأولئك الرحالة فتعرضوا لها بالوصف الممتع والنقد المفيد .

ولا يخفى على الباحث أن هناك عدة عوامل أدت الى طبع الحياة الاجتماعية في مصر على عصر المماليك بطابع خاص مميز ، وأول هذه العوامل طبقة المماليك بالذات ، وهي الطبقة التي دخلت على المجتمع

(٥) ابن دانيال الموصلي : طيف الخيال (النسخة المخطوطة بالخرانة القيومية بدار الكتب المصرية) .

(٦) سهر القلماوي : الف ليلة وليلة ص ١٧٦ .

المصرى وحكمت المصريين حكما مستقلا مدة تزيد عن قرنين ونصف من الزمان . والمعروف أن المالك لم يحاولوا — عادة — الاختلاط بالمصريين ، ولم يتأثروا بنظمهم وعوائدهم إلا في حالات قليلة ويقسط محدود . وقد ساعد على هذه العزلة وترتب عليها أن طبقة المالك أكثرت من شراء الرقيق حتى تكون لهم عصبية يعتمدون عليها في حكم البلاد . ويرتبط بالمالك الوافدية الذين هاجر معظمهم من بلاد المغول إلى مصر مستأمنين أحرارا لا أجلايا مملوكين . وهكذا حدث في ذلك العصر « أن مئلا المغول مصر وانتشرت بها عاداتهم وطرقهم » (٧) . فظهر من الأطعمة في مصر ما لم يكن معروفا قبلهم وسموها بأسماء من لغتهم (٨) وانتشر أكل لحوم الخيل في المهام والأعراس والحفلات (٩) . وشغف الناس بالعباب الرياضة والفروسية واقتناء الخيول ، حتى اقتناها وسابق عليها بعض رجال الدين (١٠) . وكذلك

(٧) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٥٠ .

(٨) نفس المصدر والجزء ص ٥٢ .

(٩) ابن حبيب : درة الأسلاك ج ٢ ص ٢٦٩ ، ابن حجر : انباء الفهر ج ٢ ص ٢١٠ ، العيني : مقد الجمان حوادث سنة ٨٠٠ هـ ، ابن قاضي شهبه : الاملام ج ١ ص ٣٣ . والمشهور عند الملكية تحريم الخيل ، وقال الحنفية بكره اكل لحمه (كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ص ٧٣٣) ، ولكننا لم نسمع بظاهرة اكل لحوم الخيل في احوال الرخاء في عصور مصر الإسلامية السابقة . ومن الثابت أن هذه الظاهرة التي ادخلها المالك وتمسكوا بها في مصر إنما أتوا من بلاد القفجاق بحوض نهر الفولجا — وهو موطن الغالبية العظمى منهم — حيث تؤكل لحوم الخيل في المواسم والاميساد (المقرئى : السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٨٨ حاشية ه للدكتور محمد مصطفى زيادة) .

(١٠) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٤٤٦ ، ج ٢ ص ٢٩٣ .

تغيرت بعض أزياء الملبس وفقا لما رأى الناس من أزياء المماليك^(١١) .
وبلغ الأمر أن بعض القضاة والفقهاء تحدثوا إلى سلاطينهم باللغة
التركية ، فاذا خاطب السلطان أحدهم بالعربية قبض لسانه ، وإذا
تكلم معه بالتركية بالغ^(١٢) .

أما العامل الثانى فى توجيه المجتمع المصرى فى عصر المماليك فهو
الحروب الصليبية ، التى كان من أهم نتائجها نمو العلاقات التجارية
بين الشرق والغرب . وعلى الرغم من التعليمات المشددة التى أصدرها
بابوات روما إلى الشعوب المسيحية لمنع التجارة مع المسلمين بعد
استيلاء المسلمين على عكا سنة ١٢٩١ م ، فقد استمرت التجارة بين
الطرفين فى نمو وازدياد لما حققته للفريقين من ثروة طائلة^(١٣) واستغل
سلاطين المماليك بمصر ذلك المورد الخصب فشغلوا أموالهم فى
التجارة^(١٤) ، واحتكروا بعض التوابل ليبيعونها للفرنج دون التجار
المواطنين^(١٥) . وهكذا جمعوا ثروات طائلة^(١٦) ، أثأخت كتب التاريخ
المعاصرة فى وصفها ووصف مظاهرها . ومن أمثلة ذلك أن السلطان
برقوق ترك فى الخزانة عند وفاته ما يزيد عن ألف دينار من الذهب
العينى ، ومن الفراء ما قيمته أيضا ألف ألف دينار^(١٧) . وظهر أثر

(١١) على مبارك : الخطط التوسيقية ج ١ ص ٥٢ .

(١٢) ابن حجر : رفع الاصر من قضاة مصر ص ٨٩ (١) .

(١٣) Heyd : Hist. du Commerce; Vol. 2, p. 26.

(١٤) ابن حجر : انباء الغر ج ٢ ص ٦٢ ، ص ٢٥٠ (١) .

(١٥) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٥٩٢ .

Reinaud : Traité de Commerce entre la Republique de Venise
et les derniers Sultans Mameloucs d'Egypte; p. 22.

Heyd : op. cit. : Vol. 2; p. 28. (١٦)

(١٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (كاليفورنيا) ج ٥ ص ٥٩٧ .

هذه الثروة واضحا جليا في مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية في ذلك العصر ، من احتفالات فخمة وأسمطة فاخرة ، وملابس ثمينة ، وحلى عديدة . كذلك تنافس عظماء الدولة من وزراء وأمراء وكتاب وتجار في تسييد القصور والتفنن في زخرفتها والتأنق في تأثيثها حتى غدت مضرب الأمثال (١٨) . وهكذا اشتهرت مصر في عصر سلاطين المماليك بثروتها الطائلة ، فقصدها كثير من أهالى البلاد الاسلامية في المغرب والمشرق ، لما بلغهم « عن أحوال مصر والقاهرة من الترف والغنى » . ولا شك في أن هؤلاء الوافدين الذين أتوا إلى مصر ليستقروا فيها تركوا أثرا ما في أحوال البلاد بوجه عام ، وأوضاعها الاجتماعية بوجه خاص (١٩) .

وفي عصر سلاطين المماليك ظهرت كذلك آثار النظم الاقطاعية الغربية التي أتت من غرب أوروبا إلى الشرق عن طريق الحروب الصليبية (٢٠) . حقيقة إن نظام الاقطاع الذي عرفته مصر في عصر الأيوبيين ثم المماليك ترجع أصوله إلى السلاجقة والأتابكة ، وأن المماليك لم يستعملوا كثيرا من الاصطلاحات الخاصة بالاقطاع التي استعملها الصليبيون ، ولكنهم مع ذلك تأثروا إلى حد كبير بالقواعد والنظم اللاتينية التي اقتبسوها من جيرانهم الصليبيين (٢١) . ففي العصر المماليكي ظهرت وجهة النظر التي تقول بأن الاقطاع يصح أن يظل وراثيا بعد وفاة المقطع الأصلي ، بشرط ولاء الورثة للسلطان . وشجع تطبيق هذا المبدأ في بعض الحالات السلطان الظاهر بيبرس ،

(١٨) المقرئى : المواعظ والامتبار ج ٢ ص ١٥٥ .

(١٩) مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٥

Clerget : Le Caire, Tome I; p. 217

Poliak : Some Notes; p. 97. (٢٠)

Idem : p. 98. (٢١)

وإن كانت هذه الحالات قليلة ونادرة^(٢٢) . وفي عصر المماليك ظهر أيضا المبدأ الذى يبيح للمقطع الخروج عن جاعة السلطان فى حالة الاخلال بشروط الاقطاع ، ولا حق للسلطان فى هذه الأحوال فى استرداد الأرض التى سبق منحها للمقطع^(٢٣) . كذلك إذا تقرر حرمان مملوك من إقطاعه ، فالمملوك المحروم حر فى الدخول فى تبعية أى أمير آخر^(٢٤) .

ثم كان إحياء الخلافة العباسية فى مصر على يد السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩ هـ ليضيف عاملا هاما من عوامل تطور المجتمع المصرى فى عصر المماليك ، إذ ترتب على ذلك الإحياء أن فرض سلاطين المماليك بمصر الأنفسهم مقاما ساميا على ملوك العالم الاسلامى ، باعتبارهم حماة الخلافة والمتمتعين ببيعته^(٢٥) . وهكذا أخذ يفتد إلى مصر فى عصر سلاطين المماليك القصاد ورسل الحكام والملوك من مختلف أنحاء العالم الاسلامى يحملون الأموال والهدايا ويطلبون التقاليد من الخليفة^(٢٦) . هذا عدا الصوفية والفقهاء والعلماء الذين قصدوا مصر من البلاد القريبة والبعيدة ، وبخاصة بلاد المغرب ، الأمر الذى ترتب عليه نشاط كبير فى مختلف ميادين الحياتين العلمية والدينية بمصر . فالبلوى الذى زار مصر سنة ٧٣٧ هـ أبدى إعجابه الشديد بأناشيط العلمى وقال إن

Idem : p. 97. (٢٢)

Ibid. (٢٣)

Idem : p. 99. (٢٤)

(٢٥) محمد مصطفى زيادة : بعض ملاحظات جديدة ص ٧٩ .

(٢٦) ابن حجر : اتحاف اخوان الصفا ص ١٢٢ (١) ، ابن حبيب :

درة الاسلاك ج ١ ص ٣٩ ، محيى الدين العبدروسى : النور السافر

ص ٤٤ .

مصر منبع العلم^(٢٧) . والسيوطى ينسب ذلك النشاط العلمى والدينى إلى إحياء الخلافة بمصر فيقول « اعلم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها ، وكثرت شعائر الإسلام فيها ، وعلت فيها السنة ، وغنت منها البدعة ، وصارت محل سكن العلماء ، ومحط رجال انفضلاء^(٢٨) . وهذا هو بعض السر في كثرة المؤسسات العلمية والدينية على اختلاف أنواعها ، وما صاحب كل ذلك من نشاط دينى وعلمى واسع ، ترك أكبر الأثر في المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك .

* * *

ولا يخفى على باحث التاريخ أن علاج الحياة الاجتماعية في عصر من العصور الوسطى - مثل عصر سلاطين المماليك - أمر ليس بالمسهل اليسير . وكان أن نستعـبـنفسى صـلابة البـحث وصعوبته منذ بدأت التفكير فيه ، إذ كانت الصعوبة الأولى التى واجهتني هى تحديد أفق الموضوع مع ارتباط الحياة الاجتماعية بجميع نواحي النشاط البشرى من قريب أو بعيد . وثمة صعوبة أخرى هى قلة المادة وتشتمتها في مطون المصادر المعاصرة . فإذا كان الباحث فى الأوضاع السياسية أو الاقتصادية مثلا يفتـح المصدر المعاصر ليجد فيه عدة صفحات متتالية ترتبط بحرب أو فتنة أو هجرة أو أزمة أو مجاعة ، فاننى فى دراسة الحياة الاجتماعية كنت أدرس المصدر بجميع أجزاءه عسى أن أصادف إشارة تمس الأوضاع الاجتماعية .

وأخيراً جمعت هذه الشذرات المتباينة المستفرجة من أعماق المصادر المتفاوتة فى موضوعاتها وأغراضها ، لأنسق بينها وأشيد من

(٢٧) رحلة البلوى ص ٥٤ (١) .

(٢٨) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .

هذه الفتات بحثا مترابطا يقوم على أسس علمية متينة • ويبدو أن منشأ هذه الصعوبة جاء من أن بحث الحياة الاجتماعية في عصر من العصور الإسلامية يرتبط إلى حد كبير بالتقاليد الشرقية الإسلامية ، وما تتصف به هذه التقاليد من محافظة شديدة ، لا سيما فيما يتعلق بالأحوال العائلية والمنزلية ودور المرأة في المجتمع • وربما نظر كتاب العصر إلى هذه النواحي على أنها أشياء عادية مألوفة للجميع ، فلا يصح أن يبذلوا جهدا أو يضيعوا وقتا في تسجيلها • وأخيرا ينبغي أن نشير إلى أنه على الرغم مما هو معروف عن عصر سلاطين المماليك من كثرة في الكتب والمؤلفات ، إلا أن التاريخ في تلك العصور كان رتيب السلاطين والأمراء والقصور والمدن ، أما ما عدا ذلك من الفلاحين والعامّة والريف والقرى فكان نصيبه الإهمال • وحسبنا ما يعترف به مؤرخ كبير - مثل أبي المحاسن يوسف بن تغرى بردى - عندما يقول عن أحد الأفراد « وقد أضربنا عن شرح ما حدث له لأنه لم يكن من أعيان الناس لتشكر أفعاله أو تذم » (٣٩) •

على أنني لم أقصد بتعديد هذه الصعاب التي واجهتني أثناء البحث أن استدر عطف القارئ أو أعطيه فكرة مبالغ فيها عن الجهد الذي بذلته في هذا الكتاب ، فهذا أمر متروك لأفقه وتقديره ، وإنما كل ما قصدته هو أن ألتبس منه سعة الصدر فيما عسى يظنه موضعا للنقد •

* * *

وبعد ، فإنني أرى من واجبي تقديم الشكر خالصا إلى كل من علونني على إتمام هذا الانتاج العلمي ، وبخاصة أستاذي المرحوم

الاستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة الذى لم يضمن على طوالم
البحث بغزير علمه أو ضيق وقته •

والله أسأل أن أكون قد وفقت فيما ذهبت إليه من كشف الستار
عن جانب هام من جوانب الحياة فى عصر من أبرز عصور التاريخ
المصرى الحافل وأكثرها متعة ولذة للباحث •

سعيد عبد الفتاح عاشور

الطبعة الثانية

جامعة القاهرة بالجيزة فى رمضان ١٤١٢

مارس ١٩٩٢

الفصل الأول

بناء المجتمع في مصر على عصر سلاطين المماليك

عاش المماليك في مصر طبقة منفصلة ممتازة عن سائر السكان بالبلاد المصرية ، وساعد ذلك على قيام نظام طبقي وضحت فيه كل طبقة من طبقات المجتمع وضوحا أملاه مركزها ونوع نشاطها .

ولحظ المعاصرون هذه الفوارق بين الطبقات ، فحاول المقریزی تقسيم أهل مصر في عصره إلى سبعة أقسام هم : أهل الدولة من المماليك ، وأهل اليسار من التجار ، ومتوسطو الحال من البساعة والسوقة ، وأهل الفلح ، والمفهاء ويشملون طلاب العلم ، وأرباب الصنائع والمهن ، وذوو الحاجة والمسكنة^(١) . ومن الواضح أن هذا التقسيم — رغم شموله — يغفل ذكر أرباب الوظائف الديوانية من المسلمين والذميين ، كما يغفل الأعراب ، مع ما لكهاتين الطائفتين من أهمية في عصر المماليك . غير أن المقریزی جعل هذا التقسيم في معرض موضوع اقتصادي ، ولعله أدمج الأعراب في أهل الفلح ، كما أدمج أرباب الوظائف الديوانية في مختلف الطبقات التي عاشوا فيها .

أما بيلوتى الكريتى الذى عاش بمصر أواخر القرن الرابع عشر الميلادى — بمعنى أنه كان معاصرا للمقریزی — فقد قسم المجتمع في مصر إلى ثلاث طوائف كبرى : هى الشعب المصرى بمختلف فئاته الخاضعة لحكومة السلطان سياسيا وانفوذ الخليفة دينيا ، وطائفة المماليك وهى عسكرية شعارها الأطماع والدسائس والانقلابات ،

(١) المقریزی : اغانة الأمة ص ٨٢ .

ثم طائفة البدو أو الأعراب الذين لا يتركون فرصة تمر دون أن يخلقوا للحكومة والأهالي متاعب متنوعة^(٣) .

ولابن خلدون تقسيم معروف ، نصه أن ملك مصر في عصر المماليك « إنما هو سلطان ورعية » ، أى أن هناك طبقة حاكمة مهيمنة تمثل السادة من المماليك ، وطبقة من المحكومين المغلوبين على أمرهم يمثلون فئات أهل مصر جميعا^(٤) . واتفق مع ابن خلدون في رأيه من المؤرخين المحدثين لين بول ، الذى قسم سكان مصر في عصر المماليك إلى طبقتين كبيرتين تفصل بينهما حواجز وسدود معينة ، الأولى طبقة المماليك — وعرفها بأنه أقلية عسكرية ممتازة Military Oligarchy — والثانية بقية فئات الشعب الخاضعة ، وعليها فلاحه الأرض ودفع الضرائب . وقال إن الطبقة الثانية عاشت محرومة من كل نفوذ في شؤون الحكم ، سوى بعض الوظائف ذات الصبغة الدينية^(٥) .

ومن الملاحظات السابقة وغيرها يستطيع الباحث تقسيم سكان مصر في عصر سلاطين المماليك إلى فئات ثمان هى : المماليك ، والمخضرمون ، والتجار ، وطوائف السكان وأرباب المهن في المدن ، وأهل الذمة ، والفلاحون ، والأعراب ، والأهاليات الأجنبية .

المماليك :

أما المماليك فكانوا الطبقة العسكرية الممتازة التى سيطرت على البلاد وأهلها ، ولهم فى أصلهم ونشأتهم وطريقة تربيتهم وأسلوبهم الخاص فى الحياة وعدم اختلاطهم بأهالى البلاد ، سياج يحيط بهم ويجعل منهم طبقة ذات خصائص تعزلها عن المحيط الذى تعيش

Dopp : L'Egypte au Commencement du Quinzieme Siecle (٢)
d'après le traité d'Emmanuel Pilot de Crete, p. IX.

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ١٨٣ .

Lane — Poole : A Hist. of Egypt in the Middle Ages, (٤)
p. p. 252 — 253.

وسطه • وتثبت الشواهد التاريخية أن المماليك لم يكونوا جميعا من أصل واحد • فالسلطان قطز هو ابن أخت ملك خوارزم جلال الدين مانجوبرتى الذى قضت عليه جيوش جنكيزخان^(٥) ، والسلطان قلاوون قفجاقى من قبيلة برج أعلى ببلاد القفجاق^(٦) ، والسلطان كتبغا مغولى الأصل جاء الى مصر أسيرا فى موقعة حمص سنة ٦٥٨ هـ ، والسلطان لاجين أصله من إحدى البلاد الواقعة على شاطئ بحر البلطيق^(٧) • وقد ذكر أرنولد هاريف الألمانى فى رحلته أنه تعرف فى القاهرة على اثنين من المماليك أحدهما أصله من مدينة بال والثانى من مدينة دافزج^(٨) • أما الرحالة بيرو تافور. فظهر له أن مندوب السلطان الذى استقبله بالقاهرة مواطن له من قشتالة ، ومن موالد أئسبيلية^(٩) •

وهؤلاء المماليك وإخوانهم جاءوا إلى مصر من مختلف البلاد مع تجار الرقيق • وشجع هؤلاء التجار على جلب الرقيق من الجنسين سعة الأموال التى بذلها لهم السلاطين والأمراء رغبة فى الإكثار من ممالئهم حتى يكونوا لهم سندا يعتمدون عليه ، فضلا عن الرغبة فى أبهة التملك على أعداد عظيمة من الجنود والحاشية^(١٠) • وخير ما يوضح إقبال السلاطين على شراء المماليك وتشجيعهم للتجار على جلبهم ، قول المقرئى عن السلطان الناصر محمد أنه : « أكثر من جلب المماليك والجوارى ، وطلب التجار إليه وبذل لهم المال ، ووصف لهم حلى المماليك والجوارى ، وسيرهم إلى بلاد أربك وتوريز والروم وبعدها

(٥) محمد مصطفى زيادة : بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك فى مصر •

(٦) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٤١ •

(٧) Wiet : L'Egypte Arabe : p. 300.

(٨) Schefer : Le Voyage d'outremer de Jean Thénau ;

p. XXXV:

(٩) Tafur : Travels : p. 72.

(١٠) العينى : عقد الجمان — حوادث سنة ٦٨٨ هـ •

(م ٢ — المجتمع المصرى)

وغير ذلك من البلاد . فكان التاجر إذا أتاه بالجلبة من الممالك بذل له فيها أغلى القيم ، وأنعم على تلك الممالك في يومهم بالملابس الفاخرة والحوائص الذهب والخيول والعطايا حتى يدهشهم . . . » (١١) . وهكذا يقال إن عدد الممالك السلطانية بلغ أيام السلطان منصور قلاوون ستة آلاف وسبعمائة « فأراد ابنه الأشرف خليل تكميل عدتها عشرة آلاف مملوك » (١٢) . أما السلطان برقوق فيقال أنه أشتري مدة سلطنته خمسة آلاف مملوك (١٣) . وانتسب هؤلاء الممالك غالبا إلى أسانذتهم ، أى سادتهم الذين اشتروهم من التجار ، أو انقلوا إليهم بطريقة أو أخرى . فالأشرفية خليل نسبة إلى السلطان الأشرف خليل والأشرفية برسباى نسبة إلى الأشرف برسباى والأشرفية الاينالية نسبة إلى الأشرف إينال ، والظاهرية بيبرس نسبة إلى الظاهر بيبرس والظاهرية جقمق نسبة إلى الظاهر جقمق . . . وهكذا . وربما انتسب المملوك إلى تاجرة الذى جلبه ، ولصقت به هذه التسمية طول حياته ، مثل يلغا السالمى نسبة إلى التاجر جلبه واسمه سالم (١٤) والممالك العثمانية نسبة إلى الخواجا عثمان فخر الدين وهو من كبار التجار الذين جلبوا كثيرا من الممالك والجوارى إلى سلاطين الممالك بمصر (١٥) . وأحيانا نسب الممالك إلى أصولهم وقبائلهم مثل الممالك العثمانية الذين أسرهم أربك سنة ٨٩٤ هـ (١٤٨٨ م) عندما انتصر على الأتراك

(١١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٥٢٤ — حوادث سنة ٧٤١ هـ .

(١٢) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٣٤٨ .

(١٣) أبو المحسن : النجوم ج ٥ ص ٥٩٧ .

(١٤) المقرئى : الخطط ج ٤ ص ٧٨ .

(١٥) ابن قاصى شهبه : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ج ٤ ص ٢٧٣ .

وقد جاء فى هذا المصدر ان التاجر عثمان هذا هو الذى جلب الأمير برقوق . وكان له جاه عظيم واسم فى البلاد كبير والممالك العثمانية منسوبون إليه . . كذلك ورد فى السلوك للمقرئى (حوادث سنة ٧١٧) ، اسم بدر الدين بيليك العثمانى ، ولعله منسوب إلى الخواجا عثمان هذا .

العثمانيين ، فأنزلهم قايتباي في ديوانه وقدر لهم الجوامك^(١٦) . وربما انتسب المملوك إلى قيمته التي اشترى بها إذا كانت مبلغا كبيرا يستحق التفاخر ويدل على ما في المملوك من صفات طيبة ومواهب ، مثل قلاون الذي اشتراه أستاذه الأمير علاء الدين آقسنقر بألف دينار « وغالى في قيمته لحسنه وصورته فعرف بالألفى »^(١٧) .

وكان السلطان إذا اشترى عددا من المالك ، فإنه يرسلهم أولا إلى الأطباء لفحصهم^(١٨) ، ثم ينزلهم في طبقة جنسهم فيتسلمهم انطواشى المقدم على الطبقة^(١٩) . وقد خصص لكل من هذه الطباق فقيه يحضر إليها لتعليم المالك القرآن والخط وأحكام الدين وآداب الشريعة . فإذا كبر المملوك وأدرك سن البلوغ بدأ تعليمه فنون الحرب من « الرمي بالنشاب واللعب بالرمح وركوب الخيل وأنواع الفروسية »^(٢٠) . وشهد برنارد دي بريدنباخ المالك السلطانية وهم يقومون بتمريناتهم الحربية عند سفح المقطم^(٢١) . وعندما ينتهي المملوك من هذه المرحلة التعليمية ينتقل إلى الخدمة ويمر بأدوارها رتبة بعد رتبة حتى يصير من الأمراء^(٢٢) .

(١٦) ابن ايباس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٥٧ ، ٤٨١ ، المقرئى :
المواعظ ج ١ ص ١٥٢ .

(١٧) بيبرس الحوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٤١ ، أبو المحاسن :
المنهل الصافي ج ٣ ص ٣٧ ب .

(٢٨) Tafur : Travels : p. 74.

(١٩) المقرئى : الخطط ج ٤ ص ٢١٨ .

(٢٠) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٥٢٤ .

(٢١) Larrivaz : Les Saintes Peregrination de Bernard de
Breydenbach. p. 55.

(٢٢) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ٢٤٧ ، السلوك ج ٢ ق ٢
ص ٥٢٤ .

واهتم السلاطين اهتماما بالغا بتربية مماليكهم ، فعينوا لهم مؤدبين من أكابر الأمراء بالاضافة الى الفقهاء ومعلمى الفروسية . وقام هؤلاء الأمراء بفحص أحوال المماليك ومراقبة حركاتهم وسكناتهم وبقاب الخارج على آداب الدين أو الدنيا عقوبة صارمة بمعرفة الطواشية^(٢٣) . وذكر المقرئى أن هؤلاء الطواشية كانوا فى عصره ذوى حرمة وافرة وكلمة نافذة ، ويعد شيخهم من أعيان الناس^(٢٤) . كذلك ذكر أبو المحاسن أن الطواشى « كانت له سطوة ومهابة على المماليك السلطانية ، بحيث أنه كان لا يستجرىء أحد أن يمر من بين يديه كائنا من كان ، بحاجة أو بغير حاجة ، وحيثما وقع بصره عليه أمر بضربه »^(٢٥) . والواقع أن الطواشية كانوا مسئولين — إلى حد كبير — عن تربية المماليك ، كما يفهم من قصة تواترت فى المصادر المعاصرة وفحواها أن السلطان الناصر محمد سمع بأن أحد مماليكه شرب خمرا فأمر بضربه بالمقارع حتى مات ، ثم قطع حوامك مقدمى الطبايق من الطواشية وأنزلهم من القلعة لأنهم فرطوا فى تربية المماليك^(٢٦) . وبلغ من اهتمام بعض السلاطين بتربية مماليكهم أنهم أشرفوا عليهم أشرافا مباشرا ، فأحضروهم الى حضرتهم بين حين وآخر ليقرؤوا أمامهم وليمتحنوهم بأنفسهم^(٢٧) . وكثيرا ما ذهب السلطان — ومعه كبار أمرائه — الى طباق المماليك ليفاجئهم بزيارته ويتفقد أحوالهم^(٢٨) .

على أنه فى الوقت الذى فرض السلاطين هذه الرقابة الصارمة على

(٢٣) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ٣٤٧ .

(٢٤) المصدر السابق ج ٤ ص ٢١٩ .

(٢٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٣٨ .

(٢٦) ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٢٦٥ ، أبو المحاسن : النجوم

ج ٩ ص ٧٢ ، ٧٨ .

(٢٧) الحسينى : نفائس المجالس السلطانية ص ٢٢٥ .

(٢٨) Dopp : L' Egypte au Commencement : p. 17. (٢٨)

مماليتهم لم يظنوا عليهم بالأرزاق والأموال ، بل نظرا اليهم نظرة الأبوة الصادقة^(٣٩) . وقد ذكر ابن فضل الله العمري « وصية مقدم المالك » ، وهى توضح كيف كان مقدمو المالك يوصون بحسن معاملتهم ويوجهون الى رعايتهم ، فطلب من المقدم أن يكرمهم « وليعلم أنه واحد منهم ولكنه مقدم عليهم ، وليأخذ بقلوبهم مع إقامة المهابة التى يخيّل اليهم أنه معهم وخلفهم وبين أيديهم ... وليكن لأحوالهم متعهدا ولأموارهم متفقدا ، وليستعلم أخبارهم حتى لا يزال منها على بصيرة ، ويتعرف ما هم عليه مما لا يخفى عليه ، فإنهم إن لم يكونوا أهلا فهم جيرة .. »^(٤٠) وهكذا خصص السلاطين لماليتهم الأطعمة المختلفة من لحوم وحلوى وفواكه^(٤١) ، كما عينوا لهم الكسوات الفاخرة « من القطن البعلبكي والكتان الخام المتوسط »^(٤٢) . وقيل إن السلطان تلاقون عكف على الخروج الى رحبة القلعة لمعرفة أحوال الطعام الذى يقدم لماليتهم ، فيتفقد اللحم ويختبر الخضر .. فإذا رأى به عيبا اشتد على المشرف والإستادار ، وربما أنزل العقوبة بالمسئول عن مخالفة الأوامر السلطانية^(٤٣) .

وعندما يشب الملوك ويخرج من الطباق تقرر له جامكية تتدرج من ثلاثة دنانير الى خمسة الى سبعة الى عشرة^(٤٤) . وقد جاء فى مذكرات بطرس مارتيرى الذى بعثته الملكة إيزابلا والملك فردناند الى السلطان الغورى سنة ١٥٠٢ م أن متوسط جامكية كل مملوك من المالك السلطانية بلغت ستة دنانير^(٤٥) أما مجموع نفقات الرواتب

(٢٩) العيني : عقد الجمان - حوادث سنة ٦٨٨ هـ .

(٣٠) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ص ٩٨ - ٩٩ .

(٣١) المقرئى : الخطط ج ٣ ، ص ٣٤٧ .

(٣٢) المقرئى : السلوك ج ٢ ، ص ٥٢٤ (حوادث سنة ٧٤١) .

(٣٣) المقرئى : الخطط ج ٣ ، ص ٣٤٦ .

(٣٤) المقرئى : السلوك ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٥٢٤ .

Schefer : op. cit. : p. 49.

(٣٥)

والجوامك للمماليك السلطانية فقد تفاوتت من عهد سلطان الى عهد آخر ، وقد ذكر المقرئى أنها بلغت سنة ٧٤٨ هـ — أى فى عهد السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاون — مائتين وعشرين ألف درهم شهريا^(٣٦) .

ولم تكن هذه النفقة على المماليك السلطانية كل ما هنالك ، إذ ينتقل الملوك بعد ذلك من الجامعات الى الاقطاعات والى إمرة العشرات ثم الى الطبلخانات ، ومنهم من ينتقل الى تقدم الألف وإمرة المئين ، ولكل من هذه المراتب نفقات معلومة كذلك^(٣٧) ، « فإذا وصل الى منزلة كبيرة ورتبة عالية عرف مقدارها ، وما كان فيه من الشقاء وما صار إليه من النعيم »^(٣٨) . وقد أورد المقرئى وصفا لما جرت به العادة من الاحتفال عند تأمير السلطان مملوكا من المماليك ، وأشار الى اليمين الذى يقسمه الملوك عندئذ للدلالة على إمرته ، وهو فيما يبدو يمين الإخلاص والتبعية للسلطان^(٣٩) . على أنه يلاحظ أن فرص الترقى لم تكن مهياة لجميع المماليك على قدم المساواة ،

(٣٦) المقرئى : الخط ج ٣ ص ٣٤٨ .

(٣٧) العبنى : عقد الجمان (حوادث سنة ٦٨٨ هـ) .

(٣٨) المقرئى السلوك ج ٢ ص ٥٢٥ .

(٣٩) وهذا نص ما أورده المقرئى (المواعظ ج ٢ ص ٣٨٠ بولاق) : « وكانت العادة اذا أمر السلطان احدا من أمراء مصر والشام ، فانه ينزل من قلعة الجبل وعليه التشريف والشربوش ، وتوقد له القاهرة ، فيهر الى المدرسة الصالحة بين القصرين . وعمل ذلك من عهد المعز ابيك ومن بعده ، فنقل ذلك الى القبة المنصورية قلاون ، وصار الامر يحلف عند القبر المذكور ، ويحضر تحليفه حاجب الحجاب ، وتمتد أسمطة جليلة بهذه القبة . ثم ينصرف الأمير ويجلس له فى طول شوارع القاهرة الى القلعة اهل المقاني ، لتزفه فى نزوله وصعوده ، وكان هذا من جملة منزهات القاهرة ، وقد بطل ذلك منذ انقرضت دولة بنى قلاون » .

انظر كذلك المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٣٣٥ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٢ ص ٢١٦ — ٢٢١ ، والعمرى : التعريف بالمصطلح التشريف ص ١٤٦ — ١٥١ حيث ورد نص يبين علامة لتحليف الأمراء المماليك فى مختلف المناسبات

إذ يبدو أن الأمل في التحرر والحصول على لقب الإمارة كان مهيباً للمماليك السلطانية بنسبة أكبر بكثير منها للماليك الأمراء . وفي ذلك يقول القلقشندي عن المماليك السلطانية : « وهم أعظم الأجناد شأنا وأرفعهم قدرا وأشدهم قربا وأوفرهم إقطاعا ، ومنهم تؤمّر الأمراء رتبة بعد رتبة »^(٤٠) ومهما يكن الأمر ، فإن المملوك اذا وصل إلى مرتبة الإمارة أصبح سلطانا صغيرا أو على قول القلقشندي « سلطانا مختصرا »^(٤١) ، له إسطنبول أي مجموعة من المباني تشمل مسكنه وبيوت مماليكه وموضع خيوله ومخازن مؤنتها وسروجها^(٤٢) . ولكل أمير منهم موظفون من الطشت خاناه والفراش خاناه ٠٠٠ وله من أجناده استادار ورأس نوبة ودوادار ٠٠٠ كأنه سلطان . وأطلق المصطلح المماليكي اسم البيوت الكريمة على بيوت الأمراء كما أطلق البيوت الشريفة على بيوت السلطان^(٤٣) . ويلاحظ دائما أن المملوك عندما يتحرر ويصبح أميرا ويقتنى بدوره عددا من المماليك ، فإنه كان يوليهم حظا من العطف والرعاية مثلما نال هو من أستاذه فيما قبل ، فكان الأمير « لا يمكن أن يأكل إلا وجميع أجناده معه ويأخذ غلمان أجناده الطعام كل يوم من مطبخه ، وإذا رأى نارا توتقد سأل عنها فيقال له إن فلانا انتهى كذا فيغضب ممن لا يأكل عنده »^(٤٤) .

وأعلى درجات الأمراء أمير مائة مقدم ألف ، وتدق على بابيه ثمانية أحمال من الطبل وزمران وأربعة أنفرة ، ويليه في المرتبة أمير طبلخاناه وتدق على بابيه ثلاثة أحمال طبل ونفيران ثم تطورت وأصبحت طبلان وزمران ، ثم أمير عشرة فأمر خمسة^(٤٥) . وشغل بعض هؤلاء

(٤٠) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٥ — ١٦ .

(٤١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦٠ .

(٤٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ١١١ حاشية ٤ .

(٤٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦٠ .

(٤٤) القرينزي : الخطط ج ١ ص ٨٧ — ٨٨ (بولاق) .

(٤٥) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦١ .

الأمرء وظائف في الدولة ، على أن بعضهم عاش دون أن تكون له وظيفة سوى رتبته العسكرية في جيش السلطان . وقد ارتبطت هذه الوظائف بعدد من التقاليد المماليكية ، فوظيفة أمير كبير أو أمير سلاح أو أمير مجلس يجب أن يكون صاحبها من مقدمى الألو ، ، ووظائف شساد الشرايخانا والدوادار الثانى. يكون صاحبها من أمراء الطبلخانا وهكذا (٤٦) . وهنا نلاحظ أن الإنعام برتبة الامارة لم يقتصر على المماليك وحدهم ، وإنما وجدت حالات أنعم فيها السلاطين بهذه الرتبة على أفراد لا ينتمون — بحكم أصلهم — الى طبقة المماليك . من ذلك ما يرويهِ المقرئى من أنه « قدم في أيام الناصرية محمد بن قلاون تاجر فرنجى بهدية الى ملكتمر الحجازى ، فأعجبتهُ مصر وأسلم وعزف بأقسنقر الرومى . وأنعم عليه السلطان الناصر محمد بن قلاون بإمرة عشرة (٤٧) . . . » كذلك أنعم السلاطين على أبناء الأمراء المتوفين بإمرة خمسة أو عشرة ، وذلك « رعاية لسلفهم » وليس بموجب أى حق إقطاعى (٤٨) .

وشهد الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر في عصر سلاطين المماليك — مثل فرسكو بالدى Frescobaldi الذى جاء الى مصر سنة ١٣٨٤ م — بضخامة الثروة التى تمتع بها أمراء المماليك ، ومظاهر الترف والنعيم التى نطقت بها قصورهم (٤٩) . ، وأفاض المقرئى في شرح هذه الناحية ، فوصف قصور الأمراء وما احتوت عليه من ثروة وتحف ، حتى أن سعن الذهب هبط في الديار المصرية بعد نهب قصر الأمير قوصون سنة ٧٤٢ هـ لكثرة ما وصل من الأنهاب الذهبية الى أيدي الناس (٥٠) .

(٤٦) فرس الدين خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١١٤ — ١١٥ .

(٤٧) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٧١٦ (حوادث سنة ٧٤٧ هـ) .

(٤٨) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٥ ، المقرئى :

السلوك ج ٢ ص ٣١٤ .

Schefer : op. cit. : p. X.

(٤٩)

(٥٠) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ١١٧ — ١١٨ .

كذلك ذكر المقرئى عن الأمير شمس الدين بيسرى أن عليق خيله وخيل مماليكه بلغ في اليوم الواحد ثلاثة آلاف عليقة ، وأن راتب كل واحد من مماليكه بلغ في اليوم مائة رطل لحم ، وأنه اعتاد أن ينعم بالآلف دينار مرة واحدة^(٥١) .

أما مصدر هذه الثروة فهي الإقطاعات السخية التي أجراها السلطان على الأمراء والجنود كل حسب درجته ورتبته . فبلغ متوسط إقطاع الأمير مساحة تتراوح بين زمام قرية وعشر قرى ، أما الملوك السلطاني فتراوح إقطاعه بين زمام قرية ونصف قرية ، في حين لم يقل إقطاع جندي الحلقة عن نصف زمام قرية^(٥٢) . وقد قدر القلقشندي إقطاع الأمير الكبير بمائتي ألف دينار^(٥٣) ، وإقطاع أمير الطبلخاناه بين ثلاثة ألف دينار وثلاثة وعشرين ألف دينار ، في حين أن العشاوات كان أعلاها سبعة آلاف دينار ، وأجناد الحلقة أعلاها ألف وخمسمائة دينار^(٥٤) .

وكان السلطان يتولى بنفسه - عادة - توزيع الإقطاعات ، فإذا تقدم إليه الملوك سألوه عن اسمه وأصله وتاريخ قدومه إلى الديار المصرية وأستاذه الذي اشتراه من تاجره ، وعن حياته التعليمية من الكتاب في الطباق إلى ميدان الفروسية^(٥٥) . فإذا وقع اختياره عليه ليمنحه إقطاعاً أمر ناظر الجيش بأن يكتب ورقة مختصرة تسمى « المثال » مضمونها حيز فلان كذا ، ويكتب اسم المقطع ثم يناولها للسلطان . وبعد أن يوقع عليها السلطان يعطيها الحاجب لمن رسم له ، فيقبل الأرض ثم يعاد المثال إلى ديوان الجيش فيحفظ فيه^(٥٦) . وقد

(٥١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ١١٢ .

(٥٢) Poliak : Feudalism in Egypt, Syria, Some Notes, p. 99.

(٥٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٠ .

(٥٤) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٥٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٥١ - ٥٢ .

(٥٦) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٣٥٢ - ٣٥٣ .

اختص السلطان بإصدار مناشير الأمراء وأجناد الحلقة ، أما أجناد الأمراء فصدرت مناشيرهم عن أمرائهم . كذلك روعى أن يعين في منشور الأمير تلك الإقطاع للامير نفسه ، ولأجناده الثلثان (٥٧) .

وظلت القاعدة العامة أن يكون الإقطاع شخصيا بحتا ، لا دخل لحقوق الملكية أو الأحكام الوراثة فيه ، بل يستغله المقطع بدل السلطان ، ثم يؤول كله الى السلطان بمجرد انتهاء مدة الإقطاع المتفق عليها ، أو بسبب وفاة المقطع ، أو بسبب عزله أو إخلاله بشروط العقد القائم (٥٨) . واقتصرت الإقطاعات على نوعين : أولها أن يكون للمقطع الحق المطلق في استغلاله ، وثانيها يكون فيها المقطع مقيدا بشروط خاصة يلتزمها أثناء التمتع بإقطاعه (٥٩) .

أما الأمراء والمالكي المسنون الذين لا يتحملون تبعات الإقطاع ، فأعتاد سلاطين المالكي أن يمنحهم بدل الإقطاع رواتب نقدية تخصص لها جهات معينة يتناول المقطع نصيبه منها . ويذكر المقرئى أنه جاء وقت أصبحت فيه معظم الضرائب والمكوس المفروضة في مصر « عليها إقطاعات الأمراء والأجناد (٦٠) » . فلما رآك الناصر محمد البلاد سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) أبطل هذا النوع من الرواتب التي تحمل صفة الإقطاع « وصارت الإقطاعات كلها أراضى وبلادا » (٦١) . كذلك أصبح من القواعد المستقرة منذ الروك الناصرى ألا يكون الإقطاع وحدة متماسكة من الأرض ، بل يوزع إقطاع الفرد الواحد بين عدة جهات مختلفة . وهكذا أصبح زمام القرية الواحدة مقسما بين عدة

(٥٧) نفس المصدر والجزء ص ٣٥٠ .

(٥٨) المقرئى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٠٦ حاشية ٣ .

(٥٩) Berlin : Du Regime des Fiefs, p. 208.

(٦٠) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٨٨ ، ٨٩ ، ١٠٣ ، ١١١ (بولاق) .

(٦١) أبوالمحسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٥٢ ، وخطط المقرئى ج ٣ ص ٣٥٣ . والمقصود بالروك عملية مسح الأراضى الزراعية لحصرها وتقدير درجة خصوبتها وربط الخراج المناسب عليها ، وإعادة اقتطاعها .

مقطعين ، لكل منهم أتباعه الذين يدفعون المستحق عليهم لسيدهم مباشرة أو لندوبه المسمى « القاصد »^(٦٢) . وفي جميع هذه الأحوال لم يتعد المقطع حدوده المرسومة له ، ولم يأخذ من إقطاعه إلا ما جرت به العادة ، فإذا ظلم أحد جاز للمظلوم أن يرفع أمره الى الديوان السلطاني أو الى السلطان في دار العدل^(٦٣) .

والمحوظ أن النظام الإقطاعي في مصر على عصر سلاطين المماليك لم يحدث من الآثار مثلما أحدث في الغرب الأوربي في عصر النضج الإقطاعي . ففي الغرب تطور الإقطاع الى نظام التوريث ، ومن ثم وجدت بيوت وأسران اقتترنت أسماؤها بالإقطاع الواحد مئات السنين ، مما ترك أثرا بالغا في الحياة الاجتماعية الغربية . أما في مصر فترتب على عدم توريث الإقطاع خلو الحياة الاجتماعية من ذلك الأثر الخطير .

ولم تكن الإقطاعات المصدر الوحيد لثروة الأمراء وأرزاقهم ، بل رتب السلطان للأمراء الرواتب الجارية من اللحم والتوابل والخبز والعليق والزيت والشمع ، هذا عدا الكسوة السنوية ، مع تفاوت مقادير كل ذلك بحسب المراتب . وإذا ولد لأحد الأمراء ولد خصص السلطان له زيادة في المال واللحم والخبز ، حتى يكبر عندئذ يدخل ضمن الحلقة ويمنح إقطاعا مستقلا^(٦٤) .

وقد تمتع أمراء المماليك بمكانة كبيرة في المجتمع ، ومنزلة رفيعة عند السلاطين ، كما يبدو ذلك جليا في العهد الصادر عن السلطان المنصور قلاوون الى ولده الأشرف خليل ، وفيه يوصيه برعاية الأمراء « فهم السور الواقى . . . وهم ذخائر الملوك وجواهر السلوك . . . »

Poliak : Feudalism in Egypt & Some Notes : p. 104. (٦٢) .

(٦٣) الأسدي : التيسير والاعتبار ص ١٧ .

(٦٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥١ .

Belin op. cit; p. 205.

فكن لجنودهم متحيبا ، ولصالحهم وآرائهم مستصوبا ، وفي شكرهم مسهبا» (٦٥) وقد بعث السلطان الظاهر بيبرس — وهو في أوج مجده وقوته — برسالة من دمشق الى أمراءه بمصر ، فقال لكبار الأمراء « ولدكم » وليقتيتهم « أخوكم ووالدكم يسلم عليكم وينشوق إليكم ، وإيثاره ألا يفارقكم . وانما قدمنا راحتكم على راحتنا . . . » (٦٦) . وكثيرا ما نزل السلطان من قصره ليعود أميرا مريضا (٦٧) ، فإذا دخل عليه أثناء زيارته بعض كبار الأمراء قام لهم (٦٨) . وإذا مات أحد الأمراء مشى السلطان في جنازته . ولذلك ليس غريبا أن نسمع أن نفوذ الأمراء طغى أحيانا على نفوذ سلطان الماليك في الشئون العامة ، فضلا عن الشئون السلطانية الخاصة المتعلقة برغباته وطعامه وأفراحه . ومن الواضح أن نفوذ كبار الأمراء وتحكمهم في السلطين ازداد وضوحا في حالة قيام سلطان صغير السن في منصب السلطنة ، مثلما حدث للسلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٣ وسنة ٧٠٨ من تحكم الأميرين بيبرس الجاشنكير وسلار ، إذ كان السلطان يطلب بعض ما اشتهاه من حلوى وأوز فيرد الأمير سلار على حامل الطلب « وايئش يعمل السلطان بالأوز ؟ هو الأكل عشرون مرة بالنهار ؟ » (٦٩) .

والمعروف أن الأمراء ومماليكهم لم يحاولوا الزواج من أهل البلاد من المصريين ، بل اختاروا زوجاتهم وجواريتهم من بنات جنسهم اللاتى جلبهن التجار (٧٠) . كذلك رسم السلطين للقضاء والشهود أن لا يعقد

(٦٥) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٦٦ — ١٧٣ .

(٦٦) المقرئى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٩٩ حوادث سنة ٦٧٠ هـ .

(٦٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٧٦ — ٣٧٧ (طبعة

كاليفورنيا) .

(٦٨) المصدر السابق : ج ٩ ص ٥٧ .

(٦٩) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٧٠٣ هـ ، أبو المحاسن :

النجوم ج ٨ ص ١٧٥ ، ٢٧٥ .

Muir : The Mamluke or Slave Dynasty; p. 225. (٧٠)

أحد منهم قران مملوك من ممالك السلطان إلا بإذنه^(٧١) . ويستثنى من ذلك بعض الحالات — التي تتخذ دليلا على اختلال نظام الممالك — كما حدث في أيام الظاهر برقوق عندما رخص للمالك في سكنى القاهرة والاختلاط بأهلها « فنزلوا من الطباق من القلعة ونكحوا نساء أهل المدينة وأخذوا إلى البطالة ٠٠٠ »^(٧٢) . ومن أمثلة البعد الفاصل بين طبقة الممالك وسائر أهالي مصر أن الوظائف الادارية الهامة — سواء بالقاهرة وغيرها من المدن والأقاليم — ظلت وقفًا على الممالك^(٧٣) . ودأبت الحكومة المالكية على تحذير الناس من انتقال مملوك من الممالك عن طريق البيع الى كاتب أو عامى ، أى الى أحد من غير الممالك ، « ومن كان عنده مملوك ملييعه ، ومن عثر عليه بعد ذلك أن عنده مملوكا فلا يلوم إلا نفسه ! »^(٧٤) غير أن هذا التحذير في ذاته يدل على وجود ممالك عند عامة الناس ، هذا فضلا عن قول المقرئى إن الخوف كان يستولى على قلوب الناس عند إذاعة مثل التحذير السابق فيبيعون ممالكهم ويخفون بعضهم^(٧٥) .

وهذا العزلة الاجتماعية التى عاش فيها المالك جعلتهم يشعرون دائما بأنهم أغراب عن أهل البلاد . مثال ذلك قول السلطان الظاهر بيبرس فى الأمير بدر الدين بيسرى « هذا ابن سلطاننا فى بلادنا »^(٧٦) . وهذه زوجة أحد السلاطين تختار لإبنها ابنة أحد الأمراء لأن هذه الزوجة جاءت الى مصر مع زوجة الأمير « فمالت إليهم للجنسية »^(٧٧)

(٧١) ابن حجر : انبأ الغبر ج ٢ ص ١٥١ ، ابن اياس : بدائع الزهور ص ٢٢٨ حوادث سنة ٨٩٠ هـ .

(٧٢) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ٣٤٧ .

(٧٣) Larrivaz : op. cit; p 58.

(٧٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٩٢ ، المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٣١٣ .

(٧٥) المقرئى : السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٣١٣ .

(٧٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٨٥ .

(٧٧) بيبرس الدولدار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٢٢٢ .

ولذا لم يكن عجبا أن بعض المماليك لم يفهم العربية إلا قليلا ، وأنهم تحدثوا فيما بينهم باللغة التركية مع تنوع أجناسهم وأصولهم (٧٨) .
ومن الواضح أن هذه العوامل مجتمعة أدت الى شدة الترابط بين المماليك . وكانت من أشد الروابط بينهم رابطة الاستاذية ورابطة الخشداشية . أما رابطة الاستاذية فهي — كما سبق أن أشرنا — الرابطة التي تربط الملوك بسعيده ، أي أستاذه الذي اشتراه رقيا في صغره وتعهده بالتربية والرعاية حتى كبر واعتقه . وكانت هذه الرابطة على درجة من القوة جعلت الكثيرين ينصون في الحجج الخاصة بأوقافهم على تخصيص جزء من ريع الوقف على تربة الواقف ، فإن لم تكن له تربة « صرفت على تربة أستاذه » (٧٩) وكان من المبادئ الراسخة في قلوب المماليك مبدأ « عدو استاذي عدوي » (٨٠) وأما رابطة الخشداشية — أي الزمالة — فكانت أقوى الروابط فيما بين المماليك جميعا ، بل إن نظام التعاقب الوحيد الذي جرى عرفهم عليه كان قائما عليها (٨١) . ويصور ابن إياس نكد جموع المماليك لأن أحدهم وجد مقتولا بجوار باب الوزير ولم يعرف قاتله (٨٢) .

على أن هذا الشعور بالعصبية الذي ربط المماليك جميعا . لم يتعارض مع العصبية العنصرية التي شعرت بها كل طائفة من المماليك إزاء بقية الطوائف المملوكية . مثال ذلك ما نصت عليه حجة وقف قايتباي — وهو أجد المماليك الجراكسة — على ألا يدخل في الوقف

(٧٨) أبو الحسن : النجوم ج ٩ ص ١٠٨ .

(٧٩) عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية واثريّة — مجلد

١ ص ٣٩ .

(٨٠) ابن إياس : بدائع الزهور — سنة ٨٧٢ هـ (صفحات لم تنشر)

ص ١٩١ — تحقيق محمد مصطفى .

(٨١) محمد مصطفى زيادة : بعض ملاحظات جديدة ص ٨١ ، ٨٢ .

(٨٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٣ حوادث سنة ٩٢٧ .

أو ينتفع به أحد « ما لم يكن والده جركسيا » (٨٣) . هذا الى أن بعض أمراء المماليك نصوا في الحجج الخاصة بأوقافهم على أن « يصرف ريعها على إخوته وبنى عمه الموجودين بالقاهرة ، أو لمن يأتى إليهم من الأولاد والأقارب المسلمين من بلاد جركس » (٨٤) وثمة دلالة خاصة لهذه العبارة الأخيرة ، إذ تشير الى أن بعض الوافدية اعتنقوا الاسلام قبل مجيئهم الى مصر ، ولذا كان لا يجوز - طبقا لأحكام الشريعة - استرقاقهم ، ومع ذلك فان بنى جنسهم الموجودين قبلهم في مصر والذين جلبوا رقيقا ونشأوا نشأة ممالكية خالصة ، شعروا نحو هؤلاء الأقارب بشعور خاص أملتة العصبية العنصرية .

ومهما يكن الأمر ، فإن العزلة الاجتماعية التي عاش فيها المماليك ، جعلتهم يحتفظون بأخلاقهم وطباعهم على مر السنين ، دون أن يتأثروا بأخلاق أهل البلاد وعوائدهم ، كما ظل المماليك المطوبون من الخارج موردا مستمرا يحيى فيهم طباعهم الأولى ويذكرهم دائما بأصولهم . وهكذا كان ممالك القرن السابع مشابهين في أخلاقهم لممالك القرن العاشر للهجرة . وإذا وجدت وجوه اختلاف بين مسلك المماليك في القرن السابع ومسلكهم في القرن العاشر ، فمرجع ذلك اختلال نظامهم الاجتماعى والحربى ، وإهمال الأسس التي قامت عليها تربيتهم ونشأتهم الأولى . ذلك أن المماليك الأجلاب لم يعودا يأتون الى مصر صغارا ، بل جاء بعضهم بعد بلوغ سن الرشد ولم يعن بترسيخ تعاليم الاسلام وروحه في قلوبهم في تلك المرحلة من العمر ، فأنصف بعضهم بضعف العقيدة . يذكر ابن إياس أنه حدث في حملة السلطان جقمق الثانية على رودس سنة ٨٤٧ هـ (١٤٤٣ م) أن « ارتد فيها طائفة

(٨٣) عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية واثريّة - مجلد

١ ص ٢٠ .

(٨٤) عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية واثريّة - مجلد

١ ص ٣٠ - ٣١ .

الى دين النصرانية من المماليك» (٨٥) . ذلك إن السلاطين عدلوا عن تسليمهم للفقهاء ليربيهم «بالآداب والحشمة والحرمة» (٨٦) ، وتركوهم وشأنهم كما سمحوا لهم بالنزول من طبقاتهم وتهاونوا معهم في أخطائهم (٨٧) . هذا الى أن نظام تقسيم الجند وتربيتهم تطرق اليه الخل ، فبعد أن كان الجند ثلاثة أقسام كل قائم بذاته ، وهى : أجناد الحلقة الذين يكونون فى خدمة السلطان — ومعظمهم من مماليك السلاطين والأمراء السابقين وأولادهم — ولكل منهم إقطاع أو يتقاضى نفقة من ديوان الجيش ، والمماليك السلطانية — ولهم جوامك ورواتب مقررة على ديوان السلطان ، ومماليك الأمراء وإقطاعاتهم ورواتبهم من بيوت الأمراء ، تغير ذلك منذ أيام السلطان برقوق . وتفصيل ذلك أن الأمراء صاروا يشترون إقطاعات الحلقة أو يأخذونها من السلطان باسم مماليكهم ، ثم يقيدون هؤلاء المماليك أيضا فى ديوان السلطان بجامكية ، وبذلك يصبح الواحد منهم جندى حلقة ومملوك سلطان وفى خدمة أمير فى وقت واحد ، أى أنه يستأثر برزق ثلاثة مماليك (٨٨) . كذلك فشى بين المماليك منذ القرن الثامن الهجرى النزول عن الإقطاعات والمقايضة بها (من الباطن) مما أدى الى تدهور نظام الجيش المماليكى وكثرة الدخلاء فى الأجناد . ومن الواضح أن النزول عن الإقطاعات والمقايضات كان من أسباب تدهور الجيش المماليكى ، لما ترتب على ذلك من أن معظم أجناد الحلقة أصبحوا « أصحاب حرف وصناعات ، وخربت منهم أراضى إقطاعاتهم » (٨٩) .

(٨٥) ابن أياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ص ٢٣٨ (تحقيق محمد مصطفى) .

(٨٦) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٥٢٤ حوادث سنة ٧٤١ هـ .

(٨٧) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ٣٤٧ — ٣٤٨ .

(٨٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٨٦ — ٢٨٧ ، ابن حجر : انباء الغر ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٨٩) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢١٩ (بولاق) . هذا ويروى

وترتب على ذلك كله أن فقد المماليك روح النظام والطاعة ، وهى الروح التى ميزت أسلافهم الأوائل ، وحلت محلها روح التمرد والعصيان . فإذا وزع السلطان دراهم الكسوة على مماليكه امتنعوا عن أخذها وطلبوا المزيد - كما حدث سنة ٨٥٥ هـ^(٩٠) - ، بل بلغ الأمر ببعضهم أن قتل أستاذه من أجل السيطرة على زمام الأمور ، كما فعل يلبيغا الخاصكى عندما قتل أستاذه السلطان حسن سنة ٧٦٢ هـ^(٩١) . وساعد على هذه الفوضى انقسام المماليك شيعة وأحزابا متطاحنة فى عهد سلطان واحد ، كما نسمع عن المماليك الأشرقية والظاهرية والمؤيدية . . على عهد السلطان المؤيد شيخ^(٩٢) . وأخذت كل طائفة من هذه الطوائف تتجسس على الأخرى ، فإذا مرض مملوك من غير طائفته - أو انقطع فى بيته - أسرع مملوك آخر لأخذ إقطاعه ، حيا كان أو ميتا^(٩٣) . كذلك أكثر المماليك من التعرض لحريم الأهالى وأولادهم^(٩٤) ، حتى أمسوا رمزا للسلب والنهب والإجرام ، وعنوانا للفوضى وعدم الاستقرار فى البلاد . وهذا ما صارت إليه طبقة المماليك على أيام المقرئزى الذى قال عنهم : « ليس فيهم إلا من هو أزنئ من

المقرئزى فى السلوك (حوادث سنة ٧٤٤ هـ) أن الامير الحاج آل ملك نائب السلطنة ابطال (النزول عن الاقطاعات والمقايضات بها ، بعد أن نشى ذلك بين الاجناد حتى أن جنديا قبايض آخر باقطاعه ، بمبلغ الفين وخمسمائة درهم اقتبضه منها الفين ، فالزمه الامير الحاج آل ملك يحمل الالفين لبيت المال ، فانكف الاجناد عن المقايضات) .

(٩٠) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ١ ص ١١٣ ، السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٥٢ .

(٩١) ابن قاضى شهبه : الاعلام ج ٤ ص ١٨٦ ، السخاوى : التبر المسبوك ص ٤٢ .

Muir : op. cit., p. 149. (٩٢)

(٩٣) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٢ ص ٣٢٤ .

(٩٤) ذيل الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ص ٧٨ .

(م ٣ - المجتمع المصرى)

فردا، وألص من فأرة وأفسد من ذئب»^(٩٥) . أما أبو المحاسن فقد قارن بين الممالك في أول عهدهم ، عندما « كانوا على حظ وافر من الأدب والحشمة ، والتواضع مع الأكابر ، وإظهار الناموس وعدم الأزدراء بمن هو دونهم » وبين ما صار إليه أمرهم على أيامه في أواخر عهدهم عندما غدوا « ليس لهم صناعة إلا نهب البضاعة ، يتقنون على الضعيف ويشرهن حتى في الرغيف ، جهادهم الإخراق بالرئيس وغزوهم في التبن والدريس ! »^(٩٦) والمعروف أن أبا المحاسن من أبناء الممالك ، ولم يصدر عنه هذا الوصف إعتباطا .

وبعد ، فإننا نختتم كلامنا عن طبقة الممالك بالإشارة التي أن لفظ « مملوك » كثيرا ما فقد معناه الحرفي في ذلك العصر ، وأصبح لا يقصد به إلا الدلالة على التواضع والطاعة . من ذلك أن الناصر محمد بن قلاوون — وهو سلطان ابن سلطان لم يمسه الرق — نعت نفسه بالمملوك^(٩٧) . بل إن الشيخ نور الدين على سبط الشيخ شريف الدين عمر بن الفارض وصف نفسه سنة ٧٣٤ هـ بالمملوك^(٩٨) . وكثيرا ما نصادف في وثائق ذلك العصر وحججه أن رجالا ونساء من المصريين حرصوا على أن ينعثوا أنفسهم دائما بصفة « المملوك » ، لا سيما في الأوراق الرسمية المقدمة منهم الى الحكام . وربما كان في ذلك تسهيلا لهم على قضاء حوائجهم ، في عصر صارت الطبقة الممتازة المنعمة ذاهب النفوذ والسلطان هي طبقة الممالك^(٩٩) .

(٩٥) القرينى : الخطط ج ٣ ص ٣٤٨ .

(٩٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٩ .

(٩٧) محمد مصطفى زيادة : حاشية ٢ — السلوك ج ٢ ص ٥٢ .

(٩٨) السيوطى : الكنز المدفون ص ١١ — ١٢ .

(٩٩) عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية وأثرية — المجلد

الأول ص ٣١ .

المعممون :

أما الفئة الثانية في بناء المجتمع المصرى على عصر سلاطين المماليك فهي فئة المعتمدين ، من أرباب الوظائف الديوانية والفقهاء والعلماء والأدباء والكتاب . وتسميهم بعض المصادر « أهل العمامة » (١٠٠) ، كما أطلق عليهم أرباب الأقلام تمييزاً لهم عن غيرهم من الطوائف ، وبخاصة أرباب السيوف من المماليك .

وقد امتاز المعتمدون - لا سيما جماعة العلماء - بمميزات معينة طوال عصر المماليك ، رغم ما تعرضوا له أحياناً من امتحان نتيجة لحدق طوائف المماليك . ومن هذه الامتيازات نفوذهم في الدولة ، واحترام السلاطين وإجلالهم لهم ، ومنها ما عاش فيه هؤلاء المعتمدون من سعة وبسطة في الحياة نتيجة لما أعدته الدولة عليهم من رواتب . وحسبنا دليلاً على ذلك كله ما استأثر به المعتمدون من الوظائف الدينية والسياسية العليا ، مثل مناصب قضاة القضاة الأربعة والحسبة والموزارة وغيرها . ومنشأ هذه السعة والبسطة في الحياة أن المماليك أحسوا دائماً بأنهم أغراب عن البلاد وأهلها ، وبأنهم في حاجة إلى دعامة يستندون إليها في حكمهم ويستعينون بها على إرضاء الشعب . وطبيعى أنهم وجدوا هذه الدعامة في فئة العلماء بحكم ما للدين ورجاله من قوة وسطوة في النفوس . وعلى ذلك نستطيع القول أن بعض السبب الذي دفع بيبرس إلى إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة سنة ٦٥٩ هـ ، هو السبب نفسه الذي أملى على من سبقوه وتبعوه من سلاطين المماليك احترام العلماء وإجلالهم ، « الآن بهم عرفوا دين الاسلام وفي بركتهم يعيشون » (١٠١) . ثم إن المماليك - كما هو معروف - لم يكن لهم نظام ثابت في وراثة الحكم ، ولكن

(١٠٠) ابن حجر : انبأ الفهر ج ٢ ص ٢٧٧ ب ، أبو المحاسن :

النجوم ج ٧ ص ٢٠٥ ، تاريخ ابن الفرات ج ١ ص ٢٣٧ .

(١٠١) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٢٨٢ .

« عصابهم يغلبون على الأمر واحد بعد واحد » كما قال ابن خلدون^(١٠٢) . ولذلك وجب على الأمير الذي يطمع في الحكم أن يستميل هذه القوة — قوة العلماء ورجال الدين — الى جانبه ليكتسب عن طريقها تأييد الرأي العام في البلاد . وحسبنا أن العيني ذكر الأسباب التي بررت استحقاق الملك المؤيد للسُلطنة ، فكان أولها « الفضل والكرم والإحسان الى أهل العلم »^(١٠٣) .

أما مظاهر احترام سلاطين المماليك للعلماء فهي كثيرة ومتعددة في المصادر المعاصرة . فهذا الشيخ فتح الدين محمد بن سيد الناس يدخل على السلطان لاجين ، فلا يدعه السلطان يقبل الأرض حسب العادة المتبعة ، ويقول له « أهل العلم منزهون عن هذا » ، ويجلسه بجواره على المقعد^(١٠٤) . وهذا السلطان برقوق إذا دخل عليه عالم أو فقير انتصب له قائما^(١٠٥) . بل إن السلطان خُشقدم لم ينس — وهو يعاني آلام الموت أن يقوم من فراشه إذا دخل عليه أحد العلماء^(١٠٦) . وبالغ بعض سلاطين المماليك في إظهار إجلالهم للعلماء حتى أن لاجين نزل عن سرير الملك ليقبل يد الامام محمد بن علي المنفلوطي^(١٠٧) . بل إن الأشرف قايتباي مرغ وجهه على قدمي الشيخ عبد القادر الدشوطي^(١٠٨) . ولا عجب لنزول بعض السلاطين من القلعة مرة أو مرتين في الاسبوع ليزور أحد العلماء أو يعودوه في

(١٠٢) ابن خلدون : المقدمة ص ١٨٣ .

(١٠٣) العيني : السيف المهند ص ١٩٧ .

(١٠٤) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ١٠٨ .

(١٠٥) المقرئزي : السلوك ج ٣ ص ٥٢٣ ، أبو المحاسن : النجوم

ج ٥ ص ٤٢٢ ، ٥٩٩ ، نيل الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ج ٢ ص ١٤٧ .

(١٠٦) أبو المحاسن : حوائث الدهور ج ٣ ص ٥٥٥ .

(١٠٧) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٩١ — ٩٤ .

(١٠٨) طبقات الشعراني ج ٢ ص ١٩٠ .

مرضه (١٠٩) . فإذا مات ذلك العالم حضر السلطان الصلاة عليه ،
ومشى أمام نعشه الى أن يدفن ، وربما حاول السلطان أن يحمل النعش
على كتفه فتحمله أكابر الأمراء عنه (١١٠) .

ومن مظاهر احترام العلماء في عصر الماليك ما أضفته عليهم
الرسائل السلطانية ، ومن نماذجها « أعز الله تعالى أحكام المجلس
العالي القاضى الأميرى العالمى الأفضلى ... جمال الاسلام
والمسلمين ، فخر المدرسين ... » (١١١) كذلك ظهر ذلك الاحترام في
السماح لهم بركوب الخيل واقتنائها ، شأنهم في ذلك شأن الماليك ،
اللهم إلا في أوقات الحرب عندما تشتد حاجة الدولة الى الخيل (١١٢) ،
أو في أوقات الفتن والاضطرابات (١١٣) .

أما عن مكانة المعممين من العلماء والقضاة وغيرهم في المجتمع
الماليكى عامة ، فلم تقل عن مكانتهم عند السلاطين . ذلك أن الناس
أكرموا العلماء وأصفوا عليهم مختلف ألقاب التقدير والتفخيم مثل
« فقيه زمانه » ، و« عالم عصره » ، و« انتهت اليه رئاسة العلم » ،
و« انتهت اليه رئاسة المذهب » (١١٤) . وفي زحام الأسواق عند البيع
والشراء اعتاد الناس أن يقدموا العالم على أنفسهم (١١٥) . ولعل أقوى

-
- (١٠٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٧٨ ، الكتبى : ميون
التواريخ ج ٢ ص ٥ ، الذهبى : تاريخ الاسلام ج ٣١ ص ١ ، ٢ .
(١١٠) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٤٤٤ ، ابن حجر : انباء الغمر
ج ١ ص ٢٢٠ - ٢٢١ ، أبو المحاسن النجوم ج ٥ ص ٤٣١ .
(١١١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ١٨٣ ، زبير شقين :
تاريخ الماليك ص ١٠ .
(١١٢) تاريخ ابن الفرات ج ١ ص ١٥٩ ، المقرئى : السلوك ج ٣
ص ٥٧٣ .
(١١٣) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٢٠٥ ، تاريخ ابن الفرات
ج ١ ص ٢٣٧ .
(١١٤) Ibrahim Salama : L'Enseignement Islamique, p. 26. (١١٤)
(١١٥) السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٦٦ - ٣٦٧ .

دليل على إحساس الناس بمكانة العلماء أنهم صاروا يقصدونهم لقضاء حوائجهم ويتوسلون بهم للمشفاعة لهم عند أهل الدولة (١١٦) .

وهذا الاحترام الذى حظى به العلماء فى عصر المماليك جعلهم يعتدون بأنفسهم ومكانتهم ويصمدون فى وجه الأمراء والسلاطين . من ذلك ما رواه المقرئى من أنه حدث عندما زار السلطان الظاهر بيبرس مدينة الاسكندرية سنة ٦٦١ هـ أن رغب فى زيارة الشيخ محمد بن منصور القبارى . ولكن الشيخ لم يسمح للسلطان بالاطوع اليه « ولم يكلمه إلا وهو فى البستان والشيخ فى عليته » (١١٧) ومن أمثلة ذلك أيضا أن الشيخ أحمد الذرعى دخل على السلطان الصالح اسماعيل ابن الناصر محمد سنة ٧٤٥ طالبا إبطال عدة مظالم ومكوس فأجابته السلطان الى كل ما طلب (١١٨) . وقام السلطان لاجين من مجلسه ليقبل يد القاضى تقى الدين بن دقيق العيد ، فلم يزد القاضى على قوله « أرجوها لك بين يدي الله ! » (١١٩) والتمس السلطان شعبان من القاضى أبى البقاء السبكى إبطال وقف ، فرفض القاضى وقال للسلطان فى غلظة « اسمع يا مولانا السلطان ! إن كنت ما تعرفنى فأنا أعرفك بنفسى ! » ثم خرج من حضرة السلطان بغير سلام (١٢٠) . وحكى ابن بطوطة أنه سمع بمصر أن السلطان الناصر محمد قال لجلسائه « إنى لا أخاف أحدا إلا شمس الدين الحريرى قاضى قضاة الحنفية » (١٢١) . وهناك أمثلة كثيرة من هذا النوع تدل على المكانة السامية التى حظى بها بعض كبار العلماء فى عصر المماليك مثل عز الدين ابن عبد السلام وابن

(١١٦) السخاوى : تحفة الأحابى ص ٢٩ ، ذيل الاعلام ص ٨٧ .

(١١٧) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٩٩ ، حوادث ٦٦١ هـ .

(١١٨) ابن قاضى شهبه : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ج ٢ ص ٦٤ .

(١١٩) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٤ .

(١٢٠) ابن حجر : رفع الاصر عن قضاة مصر ص ٢٣٢ .

(١٢١) رحلة ابن بطوطة : ج ٢ ص ٨٨ .

دقيق العيد وابن تيمية ، وغيرهم من تتردد أَسْمَاؤُهُمْ بكثرة في المصادر المعاصرة .

على أن المعممين لم يحظوا بهذه الكفاة باضطراد طوال العصر المالكي ، بل تخللت ذلك العصر - وبخاصة منذ النصف الثاني للقرن الثامن الهجري - حوادث ظهر فيها حقد الماليك على العلماء بسبب قربهم من السلاطين (١٢٢) . وهكذا أخذ الماليك يتعرضون للعلماء بالنقد ويتهمون عليهم في مجالسهم ، مما آثار سخط المقرئزي (١٢٣) وكان الماليك لم يعجبهم أن تشاركهم طائفة أخرى في ركوب الخيل ، فثاروا واشترطوا على السلاطين المنادة في شوارع القاهرة أن متعمما لا يركب فرسا - كما حدث سنة ٧٨١ ، وسنة ٧٩١ ، وعندئذ يضطر السلاطين إلى الإذعان لطلبهم (١٢٤) . وكثيرا ما انسابت جموع الماليك في شوارع القاهرة للاعتداء على الفقهاء والمعممين وانزالهم عن خيولهم وسلبهم إياها بعد ضربهم ، كما حدث سنة ٨٥٤ ، وسنة ٨٥٨ هـ (١٢٥) . ولكن سرعان ما تعود المياه إلى مجاريها عقب خمود الفتنة واستقرار الأوضاع فاستعيد العلماء مكانتهم ويركبون خيولهم (١٢٦) .

وتشير كثير من الشواهد إلى أن العلماء تمتعوا في عصر الماليك بكثير من السعة وبسطة العيش . من ذلك أن القاضي عبد الله بن عبد الرحمن (ت ٧٦٩ هـ) اشتهر بأنه « كثير التأنق في مأكله وملبسه ومشربه » (١٢٧) ،

(١٢٢) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٧٢٣ ، ونجها نكر العيني أنه قبض على أحد القضاة بسبب بغض أكابر الأمراء له « لقربه من السلطان جدا واستملاكه قلوب الناس بالمواهب والعطايا » .

(١٢٣) المقرئزي : السلوك ج ٣ ص ٢٨٢ .

(١٢٤) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٣ ص ٥٣٤ .

(١٢٥) ابن حجر : رفع الاصر ص ١٢٥ ، أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ١ ص ٧٦ ، ج ٢ ص ٢٠٥ .

(١٢٦) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ٢٧٧ ب .

(١٢٧) ابن حجر : رفع الاصر ص ١٢٥ ب .

وأن جمال الدين بن عبد الله (ت ٧٤٣ هـ) شغف باقتناء الخيول
والمسابقة عليها حتى اشتمل اصطبغه على كثير من الخيل والنعام
والغزلان (١٢٨) ، فضلا عن دارا كلفها الأموال الطائلة (١٣٦) ، وزينها
بالرخام « فجاجت في أحسن قالب وأبهج زى » (١٣٠) . كذلك ملاء
بعض القضاة دورهم بالجوارى الحسان والخدم والمماليك « مما
يعجز كثير من الملوك عن مضاهاته » (١٣١) ويروى أبو المحاسن أن
دماليك العالم الزينى وقفوا سنة ٨٥٧ هـ للمسلطان فزادوا على الثمانين
غير الكتابية الصغار « وذلك شىء لم نعهده لمتعمم » (١٣٢) . هذا عدا
ما جمعه في بيوتهم من آلاف المجلدات النفيسة والأوانى الثمينة ،
التي يصعب تقديرها (١٣٣) .

أما المصدر الرئيسى لهذه الثروة التي تمنع بها المعمون فهي
الأوقاف والأحباس التي أوقفت على المؤسسات العلمية والدينية
كالمدارس والمساجد والخانقاوات ، أو على الأشخاص أنفسهم
فيتوارثون المرتبات إينا عن أب (١٣٤) . وبالإضافة الى هذه الأوقاف
لم تضمن الدولة في منح المعممين ذوى الوظائف مرتبات سخية ، حتى
بلغ معلوم القاضى مبلغ خمسين ديناراً وهو مبلغ كبير بالنسبة
لمستويات ذلك العصر . كذلك لم تحرم الدولة ملائفة المعممين من
الأرزاق العينية التي اعتادت صرفها للمماليك ، فأجرت على ذوى

(١٢٨) ابن قاضى شهبه : الاعلام ج ١ ص ٤٦ ، ابن حجر : رفع
الاصر ص ٢٣٣ .

(١٢٩) ابن قاضى شهبه : الاعلام ج ١ ص ٤٦ .

(١٣٠) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ١٢٣ .

(١٣١) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٩٤ ، الذهبى : تاريخ
الاسلام ج ٣٠ ص ١ .

(١٣٢) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٢ ص ١٦٧ .

(١٣٣) ابن قاضى شهبه : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ج ١ ص ٤٦ .

(١٣٤) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ٣٦٤ .

الأقلام أنصبة شهرية من الغلة ، ويومية من اللحم ، والتوابل والخبز والعليق ، هذا عدا السكر والشمع والزيت ، والكسوة والأضحية في كل سنة ، مع زيادة تعيين الحلوى والسكر في شهر رمضان^(١٣٥) . ويبدو أن هذه المرتبات العينية التي صرفتها الدولة للفقهاء « والمتعممين قاطبة » صارت موردا أساسيا يعتمدون عليه في حياتهم ، حتى أنه عندما قطعت عنهم هذه المرتبات سنة ٨٧٣ هـ « حصل لهم غاية الضرر والبهدلة »^(١٣٦) . ولعل هذا الحادث كان مما دفع بعض القضاة والفقهاء الى عدم الاعتماد على ما تجود به عليهم الدولة من مرتبات وأرزاق ، فحاولوا الكسب عن طريق إعطاء بعض أموالهم للتجار حتى يشغلوها لهم في التجارة سرا ، ولكنهم في هذه الحالة تعرضوا لنقمة السلاطين إذا اكتشف أمرهم^(١٣٧) .

التجار :

أما الفئة الثالثة التي أسهمت في بناء المجتمع في مصر على عصر سلاطين المماليك فكانت طائفة التجار . ومن المعروف أن مصر قامت بنشاط كبير في النشاط التجارى بين الشرق والغرب في ذلك العصر ، مما أدى الى ثراء التجار وجعلهم طبقة ممتازة الى حد بعيد . وقد أدرك سلاطين المماليك هذه الحقيقة ، وأحسوا أن طبقة التجار دون غيرها هي المصدر الأساسى الذى يمد الدولة بالمال ، لا سيما في ساعات الحرج والشدة . ولذلك عمد السلاطين الى تقريب التجار منهم ، واصطفوا منهم ندماء وأصحابا^(١٣٨) ، بل أنعموا على بعضهم بإمارة طبليخاناه ، وهذا أمر نادر الحصول لغير المماليك^(١٣٩) . وهكذا

-
- (١٣٥) نفس المصدر والجزء والصفحة .
(١٣٦) ابن لياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٠٢ — ١٠٣ .
(١٣٧) الذهبى : تاريخ الإسلام ج ٣٠ ص ١٩ .
(١٣٨) الذهبى : تاريخ الإسلام ج ٣٠ ص ٣٣ ب .
(١٣٩) ابن قاضى شهاب : الامام بتاريخ أهل الإسلام ج ٤ ص ٣٣ ب .

تمتع التجار باحترام كبير ومكانة بارزة في مختلف المدن والبلاد المصرية على عصر سلاطين المماليك ، فاذا أرادوا مدح شخص قالوا عنه أنه « من بيت تجارة ووجاهة » (١٤٠) ، وفي دمياط أبيح للتجار أن ينوبوا عن قضاتها (١٤١) .

كذلك تدل جميع الشواهد على ما تمتع به التجار في ذلك العصر من يسر ورخاء ، كما يبدو ذلك جليا في قصص ألف ليلة وليلة (١٤٢) . ويحكى عن بعض التجار أنه بنى دارا فصرف عليها خمسين ألف ديناراً وزين قاعاتها وأروقتها بالرخام المثلث ، وزخرفها بمختلف النقوش والزخارف (١٤٣) . على أنه يتضح من كلام الشعرائي أن كثرة الثروة في أيدي التجار جعلت الكثير منهم لا يحافظون على آداب الدين ، فيجلسون في المساجد قبل الصلوات ويتحادثون في لغو وغفلة . كذلك يدعو الشعرائي الى التواضع في الحج بلبس الثياب اللاتقة ، « لا كما يفعل التجار » (١٤٤) .

ولكن يبدو أن كثرة الثروة في أيدي التجار جعلتهم دائماً مطمع سلاطين المماليك ، فغالوا في فرض الرسوم عليهم كما أكثروا من مصادرتهم . ومن هذه الرسوم ما يؤخذ من التجار عند خروج الجند للمغزو (١٤٥) ، فإذا لاح خطر مفاجيء ، واحتاج السلطان الى الأموال لإعداد الجيوش فليس أمامه في هذه الحالة سوى التجار ليقترض

(١٤٠) السخاوى : الضوء اللامع ج ١٠ ص ١٤ ترجمة محمد بن محمد الفارسكورى .

(١٤١) نفس المصدر والصفحة .

(١٤٢) ألف ليلة وليلة ، قصة مريم الزنارية ص ٨٠ — ١١١ .

(١٤٣) ذيل الاملام بتاريخ اهل الاسلام ج ٢ ص ٢١٨ .

(١٤٤) الشعرائي . لوائح الانوار في طبقات السادة الاخيار ،

زكى مبارك : التصوف ج ١ ص ٣٥٥ .

(١٤٥) ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ١٣٢ .

منهم ما يحتاج إليه بضمان وشهود كما حدث سنة ٧٩٦ هـ (١٤٦) ،
أو يصادر نصف أموالهم أو ثلثها كما حدث سنة ٨٠٣ هـ (١٤٧) ، أو أن
يفرض عليهم مبلغا معيناً يتعاونون في جمعه ودفعه في الحال كما حدث
سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨) . وهكذا بلغ من قسوة هذه المظالم الغاشمة أن
دعا بعض التجار « على أنفسهم أن يغرقهم الله حتى يستريحوا مما هم
فيه من الخرامات والخسارات وتحكم الظلمة فيهم » (١٤٩) .

الصناع وأرباب الحرف :

ووجدت بالمدن المصرية في عصر سلاطين المماليك طائفة كبيرة من
العمال والصناع وأصحاب المهن الخاضعة لنظام النقابات السائد بين
أفراد كل حرفة . فأهل الحرفة الواحدة يكونون نقابة لها نظام ثابت
يحدد عددهم ومعاملتهم قيما بينهم بعضهم وبعض ، وفيما بينهم وبين
الجمهور ، كما يكون لهم رئيس أو شيخ يرأسهم ويفض مشاكلهم
ويرجعون إليه في كل ما يهمهم ، لا سيما في الوساطة بينهم وبين
الحكومة . ولما كان دخول أى فرد جديد في حرفة من الحرف من
سأته أن ينافس أصحابها الأصليين ، فإنهم كانوا لا يمرنون أحدا
على طرق صناعتهم إلا أن يكون من أبنائهم ، ولا يسمحون لأى
شخص بمشاركتهم إلا أن يكون أتى ليحل محل أحدهم ، وفي هذه
الحالة يقبل بشروط خاصة (١٥٠) . ووصف لين Lane الاحتفال الكبير
الذى كان يقام عند قبول عضو جديد في إحدى النقابات في القرن
التاسع عشر الميلادى ، وهو احتفال لا بد راجعة أصوله الى ما قبل
ذلك (١٥١) . كذلك أفاض برنارد لويس في الكلام عن النقابات الاسلامية

(١٤٦) ابن حجر : انباء الغر ج ١ ص ٣٦٥ .

(١٤٧) نفس المصدر والجزء ص ٥٢٩ .

(١٤٨) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٤٥ .

(١٤٩) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٤٤٤ .

(١٥٠) سهر القلماوى : الف ليلة وليلة ص ٢٣٢ .

(١٥١) Lane : An Account of the Manners; p. p. 509 — 510 .

ونظمها ، ولكنه لم يخص عصر سلاطين المماليك في مصر بجزء من بحثه (١٥٣) .

العوام :

واكتظت المدن المصرية كذلك على عصر سلاطين المماليك بجمهور كبير من الباعة والسوقة والسقائين والكاريين والمعدمين أو أشباه المعدمين . والاصطلاح الذي تستخدمه عادة المصادر المعاصرة للتعبير عن هذه الفئات مجتمعة هو لفظ « العوام » وألحقت بعض المصادر بالعوام طوائف البلاصية (١٥٣) ، والزعر (١٥٤) ، والحرافيش (١٥٥) ، والمشاعلية (١٥٦) . ويبدو من استعمال هذه الألفاظ في المصادر المعاصرة أنها تعنى أهل الفساد من العوام وهم الذين أطلق عليهم المعاصرون اسم « أوباش العامة » (١٥٧) . فابن بطوطة وصف الحرافيش في مصر بأنهم « طائفة كبيرة أهل صلابة وجوه ودعارة » . كذلك ذكر هذا الرحالة عنهم حكاية يفهم منها أنهم غدوا أحيانا أصحاب سطوة تخشاهم السلاطين (١٥٨) . وفي حوادث سنة ٨٥٠ هـ أن شخصا اسمه حسن استقر في « مشيخة الحرافيش » بعد عزل آخر اسمه

(١٥٢) برنارد لويس : النقابات الإسلامية .

(١٥٣) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٢٢١ ، ٢٥٤ ، ابن دقماق : الجواهر ص ٣٨ .

(١٥٤) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٩٣ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٩٣ .

(١٥٥) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٤٦ ، ابن دقماق : الجواهر ص ١١٧ .

(١٥٦) القرىزى : الخطط ج ١ ص ١٤٤ ، السخاوى : التبر المسبوك ص ٢١١ .

(١٥٧) القرىزى : كتاب السلوك ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٨٧٥ (تحقيق المؤلف) .

(١٥٨) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٨٥ .

أبو بكر ، وذلك ببذل أموال^(١٥٩) . أما المشاعلية فهم حملة المشاعل في المواكب وغيرها ، واعتبرت هذه الفئة في مصر من الطبقة الوضيعة ، فيشتغلون بالأعمال الحقيرة مثل كنس الطرقات وكسح الأبنية وتنفيذ الإعدام في المحكوم عليهم . وفي نفس الوقت قاموا ببعض أعمال الشرطة ، كما ظهر في تمثيلية « عجيب وغريب » وهي إحدى تمثيليات خيال الظل الشهيرة الباقية من ذلك العصر^(١٦٠) .

ومهما يكن الأمر ، فإن العوام عاشوا في العاصمة والمدن في ضيق وعسر بالقياس الى الممالك وغيرهم من الطبقات الانعمة . ولحظ بعض الرحالة الأجانب — الذين زاروا مصر في عصر سلاطين المماليك — أن بالقاهرة عددا كبيرا من العوام بلا مأوى في النهار والليل سوى الطرقات ، يهيمنون فيها وأجسادهم شبه عارية ، وتفاوتوا في تقدير ذلك العدد بين خمسين ألفا ومائة ألف^(١٦١) . كذلك دهش برنارد دي بريدنباخ لكثرة عدد الشحاذين بالقاهرة ، وقال أنهم أحاطوا به من كل جانب طالبين منه الاحسان^(١٦٢) . وكان أن دفع الضيق والجوع والعري هذه الطوائف الى انتهاز الفرص للنهب والسلب وخطف كل ما تصل اليه أياديهم^(١٦٣) . على أن العوام أفادوا أحيانا من منازعات أمراء المماليك ، إذ حاول بعض هؤلاء الأمراء أن يكتسب العوام الى جانبه كما حدث سنة ٧٠٧ هـ . وحينما اشتدت المنافسة بين الناصري ومنطاش سنة ٧٩١ هـ ، تقرب منطاش من العوام وأخذ

(١٥٩) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٤٦ .

وقال على باشا مبارك (الخطط التوفيقية) ان قرية الحرامشة احدى قرى مديرية جرجا انما سميت بهذا الاسم لذلك .

(١٦٠) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٨٩ (بولاق) .

Paul Kahle : The Arabic Shadow Play in Egypt.

Dopp : Le Caire Vu., Tome 23: p. p. 135 — 141. (١٦١)

Larrivaz : Les Saintes peregrination de Bernard de (١٦٢)

Breydenbach p. 51.

(١٦٣) ابن قاضي شهبه : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ج ١ ص ٢٢ .

« يترقق لهم ويقول لهم أنا واحد منكم وأنتم إخواننا وأصحابنا » (١٦٤) .
ولكن العوام لم يقتصروا بأن يكونوا أداة في خدمة المصدقين عليهم
فحسب ، بل حدث أيام الغلاء سنة ٧٩٨ هـ أن هددوا المحتسب حتى
انقطع أياما في بيته لا يجرؤ على مغادرته خوفا على نفسه من
العوام (١٦٥) وكان إذا مات أحد الولاة الظالمين دفنته الدولة في مقابر
النصارى « خوفا عليه من العامة أن تحرقه لظلمه وتعسفه » (١٦٦) .
وفي دمياط قام العوام بثورة سنة ٨٢٠ هـ لظلم واليهم وفسقه ، فحلقوا
لحيته وشهروه على جمل والمغانى تزفه ثم قتلوه (١٦٧) . كذلك لم
تحتمل العامة ظلم والى المحلة سنة ٨٥٤ هـ فهجموا عليه في منزله
ونهبوه ، ثم أخرجوه وضربوه واستصحبوه الى الجامع وهو عريان
حيث مات من الضرب (١٦٨) .

على أن سلاطين المماليك جعلوا للفقراء نصيبا من ثروتهم من
باب التقوى والزلفى على عادتهم ، فجعل السلطان الظاهر بيبرس وقف
الطرحاء لتغسيل فقراء المسلمين وتكفينهم ودفنهم (١٦٩) . كذلك أوقف
هذا السلطان وقفا آخر لشراء الخبز وتوزيعه على المعدمين ، كما
اعتاد أن يتصدق كل سنة بعشرة آلاف اردب قمح على المساكين (١٧٠) .
أما السلطان المؤيد فدأب على إرسال بعض مماليكه للسؤال عن
المحتاجين لسد حاجاتهم (١٧١) . وفي أثناء المجاعات اعتاد بعض سلاطين

(١٦٤) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٤٦٤ ،

— Poliak : Les Revoltes Populaire .

(١٦٥) تاريخ ابن الفرات ص ٤٣٩ (حوادث سنة ٧٩٨ هـ) .

(١٦٦) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ١٤٧ .

(١٦٧) ابن حجر : انباء الغر ، العينى : عقد الجمان (حوادث

سنة ٨٢٠ هـ) .

(١٦٨) السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٢٢ .

(١٦٩) المقرئى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٣٨ .

(١٧٠) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٠٨ .

(١٧١) العينى : السيف المهند ص ١٩٨ .

المالِك — مثل الظاهر بيبرس — أن يكثرُوا من توزيع الأموال في سَخاء على المساكين والمعدمين^(١٧٣) كما يأمرُون بجمع الفقراء وذوي الحاجات وتوزيعهم على الأغنياء والأمراء بحيث يلتزم كل منهم بإطعام عدد معين^(١٧٣) . من ذلك ما ورد في حوادث سنتي ٦٦٠ هـ ، ٧٧٠ هـ عندما اشتد الغلاء إذ أمر السلاطين بجمع الحرافينس وعدهم وتفريقهم على الأمراء والتجار — كل واحد على قدره — « ورسم لكل حرفوش في اليوم رطلين خبز ، فما رئى أحد يسأل بالديار المصرية من الفقراء »^(١٧٤) . وكان أن فودى بالقاهرة ومصر أن « أي حرفوش شحت صلب »^(١٧٥) .

أهل الذمة :

أما أهل الذمة فكانوا يكونون أقلية ضخمة ذات أهمية في المجتمع المصري حتى قدرهم بعض الرحالة الغربيين الذين زاروا مصر في عصر سلاطين المالِك بعشرين ألفا في القاهرة وحدها ، نصفهم من الأقباط والنصف الآخر من اليهود^(١٧٦) . وقد احتفظ الأقباط بنظمهم الخاصة في الحياة كما احتفظوا بكنائسهم الكثيرة في القاهرة وسائر بلاد القطر المصري . وعدد المقريزي أديره القبط بالوجه القبلي فبلغ عددها ثمانية وخمسين ديرا يحمل النصارى إلى رهبانها النذور والقرايين^(١٧٧) . هذا عدا الكنائس العديدة التي إذا أُضيقَت إلى أديرة الصعيد فإنها

(١٧٢) ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٧٦٨ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٥٦ .

(١٧٣) المقريزي : السلوك ج ٣ ص ٢٤٢ — ٢٤٣ ، افاقة الأمة ص ٣٥ ، ابن حبيب : درة الاسلاك ج ١ ص ٣٣ .

(١٧٤) ابن حنبل : الجوهر الثمين ص ١١٧ سنة ٦٦٠ هـ .

(١٧٥) نفس المصدر ص ١٨٥ سنة ٧٧٦ .

Schefer : op. cit., p. 51.

(١٧٦)

(١٧٧) المقريزي : أخبار قبط مصر ص ٣٦ — ٥٤ .

تقارب الألف (١٧٨) . كذلك جاء في تاريخ الفيوم أن عدد الأديرة بالفيوم وحدها بلغ قبيل العصر المماليكى مباشرة ثلاثة عشر ديورا خلاف الكنائس (١٧٩) . واحتفظت الكنيسة القبطية بطقوسها اقديمية ، كما اهتم القبط — لا سيما في الصعيد — بالمحافظة الشديدة على عوائدهم وحرصوا على استخدام اللغة القبطية في محادثاتهم فيما بينهم وبعض (١٨٠) . ولم يهتم مؤرخو عصر المماليك من المسلمين بشرح تفصيلات النظام الكنسى القبطى ، وأهم ما نخرج به من كتاباتهم هو أن القبط احتفظوا ببطرك يخلع عليه السلطان خلة البطركية (١٨١) ، ويعامل باحترام في المكتابات الرسمية الصادرة من الديوان السلطانى (١٨٢) . كذلك تمتعت بطركية الأقباط في القاهرة بثروة عظيمة على عصر سلاطين المماليك ، ولم تكن ببعض هذه الثروة على الحجاج المسيحيين المارين بالقاهرة في طريقهم الى دير سانت كاترين (١٨٣) .

أما اليهود فقد رهم برنارد بريديناخ في القاهرة وحدها على عصر سلاطين المماليك بخمسة عشر ألف يهوديا ، يشتغلون بمختلف الأعمال لاسيما التجارة (١٨٤) . ويبدو أن ثروة مصر واتساع تجارتها في ذلك العصر اجتذبت كثيرا من اليهود من القسطنطينية وبغداد ودمشق وعكا وصور وحلب والأندلس ، فضلا عن البلاد الأوربية مثل فرنسا وإيطاليا وغيرها . كذلك يبدو أن هؤلاء اليهود الذين استقروا في مصر صارت لهم سيطرة خطيرة على النشاط المصرفى والأعمال المالية (١٨٥) . وقد

-
- (١٧٨) فرس الدين خليل بن شاهين : زينة كشف الممالك ص ٢٢ .
(١٧٩) الثنابلسى : تاريخ الفيوم : ٢٢ .
(١٨٠) المقرئى : أخبار قبط مصر ص ٤٣ .
(١٨١) المقرئى : السلوك ج ٢ ق ١ ص ١٥٧ .
(١٨٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ٣٩٢ — ٣٩٣ .
(١٨٣) Dopp : L'Egypte; p. p. 31 — 33 .
(١٨٤) Larrivaz : op. cit; p. 56.
(١٨٥) Clerget : op. cit; Tomel, p. 217 & Schefer : op. cit, (١٨٥)
p. 51 & Larrivaz, op. cit, p. 56.

احتفظ اليهود في مصر بمعايدهم ، التي عددها المقريزي ، كما حافظوا على عوائدهم ونظمهم الموروثة^(١٨٦) . وتولى زعامتهم رئيس أو حاخام أشرف عليهم بطوائفهم الثلاث — الربانيين والسامريين والقرائيين — وتمتع ذلك الرئيس بنفوذ ديني وقضائي كبير في مختلف المشاكل التي تنشأ فيما بينهم^(١٨٧) .

ومن المعروف أن أهل الذمة في مصر أصبحوا منذ الفتح العربي أسعدا حالا مما كانوا عليه تحت حكم البيزنطيين بسبب ما لقوه من تسامح ديني . واستمرت سياسة التسامح تجاه أهل الذمة سائدة طوال عصر الطولونيين والاختشيديين حتى وصل الذميون في العصر الفاطمي الأول الى أرفع مناصب الدولة . أما صلاح الدين الأيوبي فأدخل كثيرا من أقباط مصر في خدمته ، وكذلك فعل ملوك الأيوبيين من بعده^(١٨٨) . ولكن يبدو أن الآية انقلبت في عصر سلاطين المماليك الى بعض الاضطهادات العنيفة التي تشير اليها مختلف المصادر المعاصرة ، كما تبدو واضحة في القمص الشعبي الذي يرجع الى ذلك العصر^(١٨٩) . ومرجع ذلك عدة أسباب ، منها أن الحروب الصليبية أثارت روح العداء بين المسلمين وغير المسلمين في مصر والشام ، ومنها رغبة سلاطين المماليك في مصر في الظهور بمظهر حماة الدين لدعم مركزهم في نظر المسلمين^(١٩٠) . وربما كان أيضا من أسباب اضطهاد أهل الذمة في ذلك العصر أن كثيرين من سلاطين المماليك حسدوا أهل الذمة على ثروتهم وطمعوا في الاستيلاء عليها ، وهم مطمئنون الى أنهم

(١٨٦) المقريزي : الخطط ج ٤ ص ٣٤٩ — ٣٦١ .

(١٨٧) Clerget : op. cit; Tome I; p. 217.

(١٨٨) Reinaud : Notice sur la vie de Saladin; p. p. 36—37.

(١٨٩) باول كالة : منارة الاسكندرية في خيال الظل المصري

ص ٤٠ — ٤١ .

(١٩٠) السخاوي : التبر المسبوك ص ٤٠ ، المقريزي : السلوك

ج ٣ ص ٤٤ — ٧٥ .

(م ٤ — المجتمع المصري)

لن يتعرضوا في هذه الحالة لنقد أو معارضة من الفقهاء . على أنه لا ينبغي أن يفهم من ذلك أن عصر سلاطين المماليك بمصر امتلا من أوله الى آخره بالاضطهاد المتواصل ضد أهل الذمة ، لأن هذه الاضطهادات اتخذت في الواقع شكل زوابع تهب بين حين وآخر وتستمر مدة من الزمن تطول أو تقصر حسب الأحوال . ثم لا تلبث بعد ذلك أن تعود الأوضاع الى الهدوء تدريجيا فيتخلص أهل الذمة من القيود التي فرضت عليهم قييدا بعد آخر ، سواء في اللبس والمظهر العام أو غير ذلك ، كما يعودون الى مباشرة الوظائف الكتابية والمالية في الدولة وعند الأمراء . وربما انصرف بعضهم الى جمع الثروة حتى يصبح من أصحاب الخدم والحواشي^(١٩١) ، « ويتزعمون في ملابسهم وهيئتهم »^(١٩٢) ، ويركبون البغال والخيول^(١٩٣) ، كل ذلك والدولة راضية ما داموا يدفعون الجوالى ، وهي الجزية المفروضة عليهم^(١٩٤) ،

(١٩١) السخاوى : الضوء اللامع ج ١١ ترجمة علم الدين ابو الفضل

القبلى ، ابن قاضى شهبه : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ص ٢٦٥ ،

٢٧٢ ، المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٩٠ .

(١٩٢) المقرئى : ذكر دخول قبط مصر ص ١٣٤ .

(١٩٣) زيتر شتين : تاريخ المماليك ص ٨٥ .

(١٩٤) ابو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٤٤ ، القلقشندى : صبح

الأعشى ج ٣ ص ٤٦٢ — ٤٦٣ . وقال المقرئى ان الجزية صارت

تعرف في أيامه بالجوالى ، وقد قدرت هذه الجوالى سنة ٥٨٧ هـ — أى

زمن الأيوبيين — بمائة وثلاثين الف دينار . ولكنها تناقصت كثيرا في عصر

المماليك بسبب تهرب النصارى منها واظهارهم الاسلام . وفي سنة ٨١٦ هـ

عمل السلطان المؤيد شيخ على ضبط الجوالى واستقصاء أمر أهل

الذمة ، فبلغت في أيامه أحد عشر الف واربعمائة دينار . وكانت هذه

الضريبة تجبى من أهل الذمة مقدما في فترة السنة . وثمة ما يشير الى

وجود مكوس أخرى غير الجوالى كانت تجبى من أهل الذمة ، اذ يقول

المقرئى في خططه عند تعداد الضرائب الهلالية : « وما يستادى من أهل

الذمة غير الجوالى » .

(الخطط ج ١ ص ١٠٧ — بولاق) .

ثم لا تلبث أن تأتي موجة اضطهاد أخرى لأى سبب من الأسباب ، كأن يمر أحد أعيان البلاد الاسلامية بمصر فينتقد وضع أهل الذمة وما هم عليه من ترف وتعالى . من ذلك ما حدث سنة ٧٠٠ هـ من مرور وزير المغرب بالقاهرة في طريقه الى الحجاز ، فتألم لما وجد عليه أهل الذمة في مصر من نعمة وهناء وحرص أهل الدولة عليهم (١٩٥) . وقد يحدث أيضا أن يستفتى بعض الناس أحد العلماء في استخدام السلاطين والأمراء لأهل الذمة وتولييتهم مناصب الدولة (١٩٦) ، أو في السماح لهم بلبس الأبيض من الثياب ، وعندئذ تتبدل الحال وتبدأ موجة اضطهاد عنيفة يعانى فيها أهل الذمة كثيرا من ضروب الخسارة والمغرامات .

أما ألوان ذلك الاضطهاد الذى كان يتعرض له أحيانا أهل الذمة في مصر على عصر سلاطين المماليك فهي كثيرة ومتنوعة ، منها طردهم من مباشرة الدواوين وحرمانهم من مباشرة الأمراء (١٩٧) ، ومنها هدم بعض كتائبهم وأديرتهم وحل الأوقاف المحبوسة عليها أو تحويل بعضها الى جوامع (١٩٨) ، ومنها التضييق عليهم في بعض مظاهر الحياة كالزامهم بتصغير عمائمهم دون العشرة أو السبعة أذراع مع تلوينها باللون الأزرق للنصارى والأصفر لليهود (١٩٩) ، ومنعهم

-
- (١٩٥) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٩٠٩ ، ابن النقاش : الذمة ص ٩٧ ، المقرئى : أخبار قبط مصر ص ٣١ .
- (١٩٦) ابن النقاش : الذمة في استخدام أهل الذمة ص ٧٩ وما بعدها .
- (١٩٧) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٢٣ ، ابن حجر : اتحاف اخوان الصفا ١٢٨
- (١٩٨) أبو العباس الدمشقى : أخبار الدول وآثار الأول ، ابن دقماق : الجوهر اللئيم ص ١٦٩ .
- (١٩٩) ابن قاضى شهبه : الاعلام بتاريخ أهل الاستلام ج ٥ ص ٢٥٤ ، المقرئى : السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢١٦ ، النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ ص ٣ .

من ركوب الخيل والسماح لهم بركوب الحمير على أن تكون قيمة
الحمار دون المائة درهم ، فإذا مر أحدهم بمسلم جالس نزل عن
حماره « وأظهروا المسكنة » (٢٠٠) . ومنها عدم السماح لأحدهم
بدخول الحمامات العامة إلا بصليب أو جلاجل في رقبتة ، بحيث
لا تدخل نساؤهم مع نساء المسلمين حماما واحدا (٢٠١) . هذا كله عدا
أرهابهم - في فترات الاضطهاد هذه - بالمغرم والضرائب وما تفرضه
عليهم الدولة من آلاف الدنانير يؤدونها « مصالحة » (٢٠٢) . وفي
تلك الأوقات ينتهز الغوغاء « والنهابة » الفرصة لمهاجمة دور أهل
الذمة ونهبها ، كما يتسلطون عليهم في الطرقات فيضربونهم بالنعال
ويمزقون ثيابهم حتى يضطر كثير من أهل الذمة الى الاختفاء حتى
تهدأ الحال (٢٠٣) . ثم ان هذه الأعمال التعسفية لم تقتصر على القاهرة
وحدها ، بل امتدت أيضا الى الصعيد والوجه البحري (٢٠٤) . من ذلك
أنه حدث مرة سنة ٧٠٨ هـ أن شخصا صاح فجأة في أحد مساجد
قوص « يا أصحابنا الصلاة في هدم الكنائس » فلم يأت ظهر اليوم
نفسه حتى هدمت ثلاث عشرة كنيسة (٢٠٥) ١

كذلك يلاحظ أن هذه الموجات المتباعدة من الاضطهاد لم تنزل بفئة
دون أخرى من فئتي أهل الذمة ، فحوادث هدم معابد اليهود كثيرة

-
- (٢٠٠) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٥٠٣ ، زيترشتين : تاريخ
المالِك ص ٨٤ .
(٢٠١) ابن دقاق : الجوهر الثمين ص ١٧٠ ، ابن قاضي شهبه :
الاعلام ج ٢ ص ٨٦ .
(٢٠٢) المقرئى : السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٣١٢ ، ابن كثير : البداية
والنهاية ج ٤ ق ٣ ص ٤١٣ .
(٢٠٣) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ٥٩ ، ١٠٥ ، ابن اياس :
بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٤٩ .
(٢٠٤) المقرئى : نكر دخول قبط مصر ص ١٥٨ .
(٢٠٥) الأندلسى : الطالع السعيد ص ٧٢ ، العيني : عقد الجبان
حوادث سنة ٧٢١ هـ .

ومتواترة في مصادر العصر المالكي^(٣٠٦) . ولكن جرت العادة أن يشتد نيار الاضطهاد ضد طائفة ويهدأ عن الأخرى ، فاذا اشتدت الأزمة ضد النصارى وسكن الموقف بالنسبة لليهود ، فان النصراني في هذه الحالة اذا أراد الخروج من داره يستعير عمامة صفراء من أحد جيرانه ويلبسها في الطريق حتى يسلم من أذى العامة^(٣٠٧) .

على أنه يبدو أن أهل الذمة لم يستسلموا على الدوام لتلك الكوارث التي أخذت تترى عليهم بين حين وآخر في عصر الماليك ، بل كثيرا ما لجأوا الى بعض الأعمال الاستفزازية والانتقامية مثل احراق بعض أحياء القاهرة أو بعض مساجدها كما حدث سنة ٦٦٣ هـ (٢٨) ، وسنة ٧٢٠ هـ (٢٦) ، وسنة ٧٢١ هـ (٣٠) ، وسنة ٧٥١ هـ (٣١) . وكان بعض هذه الحرائق « يحدث فيها من الشائع أضعاف ما كان يحدث من هدم الكنائس »^(٣١٢) وفي معظم هذه الحرائق ألقى القبض على رهبان من النصارى ومعهم خرق مستديرة على هيئة الكعكة في داخلها قطران ونفط ، واعترف بعضهم أنه اتفق

(٢٠٦) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٥ ، ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٣٧ ، العيني : عقد الجبان حوادث سنة ٦٦٩ هـ .
(٢٠٧) المقرئى : نكر دخول قبط مصر ص ٢٠٦ ، العيني : عقد الجبان حوادث سنة ٧٢١ هـ .

(٢٠٨) مفضل بن أبى الفضائل : المنهج السديد ص ٧٦٦ — ٤٧٧ ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٣٣ ، المقرئى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٣٥ .

(٢٠٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٦٣ — ٦٥ ، ابن كثير : البداية ج ٤ ص ٢٤٩ .

(٢١٠) ابن حبيب : درة الاسلاك ج ٢ ص ٢٢٤ .

(٢١١) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ٤٩ .

(٢١٢) المقرئى : نكر دخول قبط مصر ص ١٨٦ .

مع زملائه على إحداث الحريق ، وأنهم قسموا القاهرة ومصر الى مناطق بحيث يتولى كل منهم اشعار النار في منطقة معينة منها (٢١٣) .

فاذا فشل أهل الذمة في تحقيق أغراضهم عن طريق العنف ، حاولوا دفع البلاء عنهم بمختلف الوسائل السلمية ، ومن هذه الوسائل بذل الأموال الطائلة لأهل الدولة (٢١٤) ، ومنها أيضا اظهار الاسلام حتى يستردوا مركزهم الأدبي في المجتمع ويستريحوا عن ذلك العناء المفضى . وفي ذلك يقول المقرئى « وألجأت الضرورة بعضهم الى اظهار الاسلام أنفة من لباس الأزرق وركوب الحمير » (٢١٥) . ثم ان كثيرا من أهل الذمة الملحقين بخدمة الدواوين أظهروا الاسلام رهبة وخوفا ، عندما يأمر السلطان بعرض الاسلام على الكتاب « فمن امتنع عن الاسلام ضربت عنقه » (٢١٦) فاذا اعتق أحدهم الاسلام لبس الأبيض من الثياب ، وزاد في عمامته كيما ثناء ، وربما خلع عليه وتولى المناصب الرفيعة في الدولة (٢١٧) . وحدث مثل ذلك لغير الملحقين بخدمة الدواوين فنزولا على تقوى أحد الأمراء . حتى يقال أنه أسلم في مدينة قليوب في يوم واحد أربعة وخمسين نصرانيا (٢١٨) . وفي قصص ألف ليلة وليلة ما يدل على أن النصرارى الذين اعتنقوا الاسلام لم يفعلوا ذلك الا للاستمتاع ببعض

(٢١٣) المقرئى : أخبار قبط مصر ص ٥٤ — ٥٥ ، ذكر دخول قبط

مصر ص ١٩٢ .

(٢١٤) ابن حبيب : درة الاسلاك ج ١ ص ١٥٢ ، ابن الاياس صفحات

لم تنشر ص ٢٣ سنة ٨٦٨ هـ ، ابن حجر : اتحاف اخوان الصفا ص ١٢٨ .

(٢١٥) المقرئى : ذكر دخول قبط مصر ص ١٤٨ .

(٢١٦) المقرئى : أخبار قبط مصر ص ٣٠ .

(٢١٧) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٩٠ .

(٢١٨) المقرئى : ذكر دخول قبط مصر ص ١٥٨ .

المباحث (٢١٩) . ولعل هذا ناشعور هو الذى دنع كثيرا من المسلمين المعاصرين الى عدم الاطمئنان اليهم ، حتى بعد اشهارهم الاسلام ، فحاولوا تأليب السلاطين عليهم كما سخروا منهم فى شمرهم ونثرهم (٢٢٠) . ولكن هذا لا ينفى أن هؤلاء الذين اعتنقوا الاسلام جماعة « حسن اسلامهم » — على قول ابن بطوطة — وحفظوا شعائره دينهم الجديد (٢٢١) .

ومهما يكن الأمر ، فاننا نحب أن نؤكد — مرة أخرى — أن أهل الذمة لم يتعرضوا للمهوان الا فى أوقات الشدة والاضطرابات والفتن ، وفيما عدا ذلك تشهد كثير من الكتابات المعاصرة على أنهم تمتعوا فى عصر المماليك بكل ما تمتع به اخوانهم المسلمون من حقوق وامتيازات . ويصف ابن الأخوة المتوفى سنة ٧٣٩ هـ حال أهل الذمة فى زمانه ، فيقول ان دورهم صارت تملو على دور المسلمين ومساجدهم ، وصاروا يدعون بالنعوت التى كانت للخلفاء ويكونون بكتاهم ، فمن نجوتهم الرشيد وأبو الحسن وأبو الفضل ، كما « ركبوا مركوب المسلمين ولبسوا أحسن ملبوسهم .. » ولم يحرم أهل الذمة فى ذلك العصر من عطف سلاطين المماليك ، بل ان المكانة الرفيعة التى وصلوا اليها « عضدتها يد سلطانية » (٢٢٢) . وهناك فى الحجج الشرعية والوثائق المعاصرة ما يوضح ألوان العطف الذى شمل به سلاطين المماليك أهل الذمة ، اذ ورد فيها أن بعض السلاطين وقف ثلاثة وأربعين شجرة زيتون على خدام احدى الكتائس ، ورصد لخدام طور سيناء احدى وثلاثين شجرة أخرى ، وللمراهبات المقيمات بدير الشوبك أنشأ بستان «من أموال

٢١٩) سهر القلماوى : الف ليلة وليلة ص ٢٣٩ .

٢٢٠) النویری : الالم بالاعلام ج ١ ص ٩٣ ب .

٢٢١) رحلة ابن بطوطة : ج ٢ ص ٨٥ .

٢٢٢) ابن لأخوة : معالم القرية ص ٤٢ — ٤٣ .

بيت المال المأمور^(٢٢٣) . وبعبارة أخرى فإن الاضطهادات التي تقدمت الاشارة اليها ليس معناها أن الصلات الطيبة بين أهل الذمة واخوانهم المسلمين انقطعت تماما في عصر سلاطين المماليك . ففي سنة ٦٥٩ هـ خرج النصارى يحملون الانجيل ، واليهود يحملون التوراة الى جانب اخوانهم المسلمين لاستقبال الخليفة العباسي^(٢٢٤) . واطمان المسلمون — رجالا ونساء — حتى مشايخ الصوفية ، الى ألباء اليهود والنصارى وتركوهم يتولون علاجهم^(٢٢٥) وحاول بعض سلاطين المماليك منع ذلك دون جدوى^(٢٢٦) . هذا الى أن كثيرا من المسلمين نضلوا تعليم أبنائهم في كتاتيب النصارى حتى يجيدوا الحساب^(٢٢٧) . وقد أدى كل ذلك الى كثير من التقارب بين عناصر الأمة فلاذت المسلمات بأماكن البركة اليهودية والمسيحية ، كما اعتقد اليهود والنصارى في قدرة أولياء المسلمين وتوسلوا بهم^(٢٢٨) .

الفلاحون :

أما الفلاحون — وهم السواد الأعظم من أهل البلاد ، فيبدو أن تصيهم في المجتمع المماليكي لم يكن سوى الاحتقار والاهمال . ومما قلله ابن خلدون عن الفلاحة وأهلها « انها معاش المستضعفين ويختص

(٢٢٣) عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية واثرية مجلد ١ ص ٢٧ ، ٢٧ .

(٢٢٤) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٠٩ ، المقرئ : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٤٨ .

(٢٢٥) الشعرائي : ذيل لواقع الآثار ص ٣٦٩ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢٨٠ .

(٢٢٦) السخاوي : التبر المسبوك سنة ٨٥٢ هـ .

(٢٢٧) ابن الحاج : المنخل ج ٢ ص ٣٢١ .

(٢٢٨) المصدر السابق : ص ٦٨ ، كلوت بك : لحة مائة ج ٢ ص ١٠٣ .

أهلها بنخلة» (٢٢٨) . وهذا الحكم الذى أصدره ابن خلدون على الفلاحين يعبر عن نظرة معاصريه اليهم . فالفلاح فى جميع المؤلفات المعاصرة موصوف بالجهل والتأخر وخشونة الطبع وقذارة المظهر . بل ان بعض المؤلفين المعاصرين كتب القصص الطويلة ليثبت أن الصفات السابقة متأصلة فى الفلاح وليحاول أن يلصق به كل نقص ورذيلة (٢٣٠) . وهناك أمثلة كثيرة يمكن للباحث أن يستخرجها من بطون المؤلفات المعاصرة ليستشهد بها على موقف المماليك من الفلاح المصرى ونظرتهم اليه . فاذا صادف وارتقى رجل أصله من الارياف الى بعض وظائف الدولة الكبيرة ، غضب المماليك وصاحوا « ما كان فى مماليك السلطان من يعتمد عليه الا هذا الفلاح » (٢٣١) . واذا تجرأ أحد العوام على بعض المماليك صاحوا فيه « اخرج يا فلاح يا كلب ا » (٢٣٢) . واذا ولى أحد أمراء المماليك المتشددين على بعض الأقاليم ، فانه لا يسمح لاحد الفلاحين أن يلبس مئزرا أسود أو يركب فرسا أو يتقلد سيفاً ، أو حتى يحمل عصا مجلبة بالحديد (٢٣٣) . ويبدو أن هذه المعاملة أثرت فى نفوس أهل الريف ، حتى أصيبوا بمركب الشعور بالنقص . ومن ذلك أن أحد علماء الأزهر فى القرن العاشر الهجرى تزوج قاهرية فلما قدمت أمه من الريف لزيارته تنكر لها اثلا تعرف زوجته أن أمه فلاحة ، وهددها بالضرب ان علم أحد أنها أمه (٢٣٤) .

وهكذا عاش الفلاح فى عصر سلاطين المماليك مربوطا الى الأرض التى يفلحها ويفنى حياته فى خدمتها وليس له من خيراتهما الا القليل ،

(٢٢٩) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٤١ .

(٢٣٠) الشريبنى : عز القحوف فى تصيدة ابى شادوف ص ٢ وما بعدها .

(٢٣١) ابن قاضى شهبه : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ج ٢ ص ٥٤ .

(٢٣٢) سيرة الظاهر بيبرس ج ٦ ص ٥٠ .

(٢٣٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٤٦ .

(٢٣٤) زكى مبارك : التصوف ج ١ ص ٣٦١ .

لأن أراضي مصر الزراعية ظلت نهبا موزعا بين السلاطين والامراء ومماليكهم وأوقافهم . وفي بعض أقاليم الشرقية والبحيرة والمنيا تمتع العربان بنصيب في ملكية الأرض ، أما الفلاحون فلم يكن لهم سوى العمل والسخرة ودفع الأموال وهم صاغرون^(٢٣٥) . لذلك لم يكن عجبا ألا يجد الفلاح ما يستر به عورته ، وأنه في أفقر مأكوله لا يأكل إلا الشعير والجبين القريش والبصل^(٢٣٦) . وقد أدرك المقرئ ريف مصر وأهله يشترون الكثير من حوائجهم ببعض الدجاج وينخال الدقيق . ولا عجب فإن « الغلال معظمها لأهل الدولة أولى الجاه وأرباب السيوف الذين تزايدت في اللذات رغباتهم فخرّب معظم القرى لموت أكثر الفلاحين وتشردهم في البلاد »^(٢٣٧) .

ومما زاد حال الفلاحين سوءا : كثرة المغارم والمظالم التي حلت بهم من الولاة والحكام ليأخذوا منهم « غير العادة أضعافا »^(٢٣٨) . كذلك فرض الولاة على أهل القرية الواحدة نظام المسؤولية المشتركة فيما يستحق عليهم من أموال ، حتى في حالة توزيع زمام القرية الواحدة بين عدة ملاك أو مقطعين ، اعتبر كل فلاح بالنسبة لزملائه شريكا^(٢٣٩) . وعند وصول المشد الى القرية توزع نفقات اقامته على الفلاحين من حيث الأكل والشرب وما تحتاج اليه دوابه من عليق . . . ويلتزم الفلاح بكل ذلك قهرا مهما بلغ فقره . وربما هرب الفلاح لضيق يده فتلتزم زوجته وأولاده بالمطلوب ، وتضطر الى بيع ما لديها لنسراء ما يلزم المشد من دجاج ولحم^(٢٤٠) . وقد حدث سنة ٨١٦ هـ أن قام الأمير فخر الدين

(٢٣٥) ابن الجيعان : التحفة السنوية .

(٢٣٦) الشربيني : هز القحوف ص ٥٩ . .

(٢٣٧) المقرئ : اغائة الامة ص ٣٦ ، ٤٦ .

(٢٣٨) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٠٢ .

(٢٣٩) Poliak : Some Notes .

(٢٤٠) الشربيني : هز القحوف ص ١١٠ - ١١١ .

ابن أبي الفرج « بجولة » على قرى الصعيد ، فنهب البلاد التي مر بها واستولى على ما فيها من غلال ، كما سلب النساء حليهن وكسوتهن . وبعد أن انتهت جولته عاد الى القاهرة ومعه الخيل والجمال والابقار والأغنام التي لا يحصى عددها ، هذا عدا الذهب والحلى والأمان والعبيد . وهكذا خرب الصعيد على يد أمير واحد (٢٤١) .

ولم يسلم الفلاحون من أذى العربان وبطشهم . فكثيرا ما أغار العربان على القرى وفعلوا بالفلاحين : « ما لا تقطعه الخوارج ولا الكفرة » (٢٤٢) . وقد تكررت هذه الاغارات بين حين وآخر (٢٤٣) حتى أصبحت « من سنن العربان الجارية » (٢٤٤) . وحاول بعض السلاطين حماية الفلاحين من أذى العربان ، فولوا بعض مشايخ العربان على القرى وبلاد الأرياف المجاورة لهم ، ولكن الفلاحين أصبحوا بذلك كالغيران تحت وصاية القط لأن العربان انتهزوا الفرصة لينزلوا بالفلاحين مختلف أنواع العذاب باسم القانون (٢٤٥) . وخلاصة انقول أن الفلاحين في عصر المماليك عاشوا « في حال من المعارم معروفة » على قول المقرئ (٢٤٦) .

ولم يخفف عن الفلاحين سوى أن يصادف مرور السلطان ببعض القرى للنزهة والصيد ، فينتقم اليه الفلاحون بالشكوى من عسف الولاة والحكام المباشرين (٢٤٧) ، أو من أذى العربان (٢٤٨) . وفي هذه

-
- (٢٤١) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٥٥ .
(٢٤٢) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٣ ص ٦٥٤ .
(٢٤٣) نفس المصدر .
(٢٤٤) النابلسي : تاريخ اليوم ص ١٣ .
(٢٤٥) ابن الهيثم : بدائع الزهور ج ٣ ص ٦٠ ، ٣٠٢ .
(٢٤٦) المقرئ : السلوك ج ٤ ص ٤٦٩ .
(٢٤٧) تاريخ ابن الفرات ص ٣٣٥ سنة ٧٩٤ هـ ، المقرئ : السلوك ج ٣ ص ٧٠٣ .
(٢٤٨) السخاوي : التبر المسبوك ص ٤٢١ .

الحالة يعزل السلطان الوالى أو المباشر ويعين بداه ، وان كان هذا الوالى لا يلبث أن يستأنف، سياسة الظلم والبطش بالفلاحين^(٢٤٩) . ولعل هذه المظالم هي التي دفعت كثيرين من أهالى القرى الى ترك قراهم والهجرة الى المدن ، الأمر الذى حدا بحكومة السلطان الى المناداة بين حين وآخر بخروج أهل الريف من القاهرة وعودتهم الى بلادهم ، ولكن لم يعمل بمثل هذه الأوامر^(٢٥٠) .

والقرية المصرية عندئذ هي القرية نفسها التي وصفها بعض الرحالة الغربيين الذين زاروا مصر سنة ١٥١٢ م ، من حيث مظهرها العام وبيوتها المصنوعة من الطوب النيء تعلوها الأحطاب ، وأطفالها انحناءة يجرون هنا وهناك وقد كسا الذباب وجوههم^(٢٥١) . أما حياة الفلاح اليومية بين منزله وحقله فظلت تسير على وتيرة واحدة على مر العصور^(٢٥٢) .

الأعراب :

أما الأعراب فقد أحصى كل من المقريزى والقلقشندى قبائلهم ، كما ذكروا أصولها ومكان كل منها ، مما يدل على أن الأعراب بمصر بلغوا عددا عظيما فى العصر المماليكى وأنهم انتشروا فى مختلف أنحاء البلاد بالوجه البحرى والوجه القبلى^(٢٥٣) . وقد آنف الأعراب من الخضوع لدولة المماليك بمصر ، ووصفوا السلطان إبيك بأنه « مملوك قد مسه الرق »^(٢٥٤) ، وقالوا عن المماليك بوجه عام « إنما هم عبيد

٢٤٩) تاريخ ابن الفرات ج ١١ ص ٣٩ .

٢٥٠) المقريزى : السلوك ج ٤ ص ٤٧٧ .

٢٥١) Schefer : Voyage Magnifique ... p. 179.

٢٥٢) Lane — Poole : Social Life in Egypt, p. p. 54 — 70

٢٥٣) القلقشندى : صبح الأمتى ج ١ ص ٢٦٢ ، ج ٤ ص ٦٧ ،

ج ٧ ص ١٦٠ ، المقريزى : البيان والاعراب .

٢٥٤) المقريزى : البيان والاعراب ص ٦ .

خوارج» . ثم بلغ الأمر بالعربان أنهم اجتمعوا وأقاموا أحدهم حاكما وقالوا : « نحن أصحاب البلاد ونحن أحق بالملك من المماليك ، وكفى أنفا خدمنا بنى أيوب وهم خوارج خرجوا على البلاد » (٢٥٥) . ولكن المماليك قاتلوهم وهزموهم ، ومن ثم بدأ الصدام بين المماليك وطوائف العربان الذى استمر فى صورة متقطعة حتى نهاية العصر المماليكى . ولذا ظل العربان طوال ذلك العصر عنواذا للاخلال بالأمن والاضرار بالنظام والاعتداء على الأهالى الآمنين . ولم يسلم الحجاج فى طريق ذهابهم وأيابهم من اعتداء العربان عليهم بالنهب والقتل (٢٥٦) . كذلك اعتاد العربان أن ينتهزوا فرصة الفيضان — عندما تكسو مياه النيل، أراضى الحياض — فيصبحون فى مأمن من وصول قوات من العاصمة لردعهم ، وعندئذ يغيرون على القرى فيذبحون الفلاحين ذبح المواشى ، ويستولون على كل ما تصل اليه أيديهم من غلات وحيوانات (٢٥٧) . ولم تسلم المدن الكبرى مثل أسيوط والاسكندرية من عبثهم ، ففي حوادث سنة ٨٠١ هـ ورد أن طائفة من العربان أغارت على الاسكندرية وفرضوا على تجارها وأرباب المعاش فيها أموالا معينة شبهها بعض المعاصرين بالجالية التى تجبها الحكومة من أهل الذمة (٢٥٨) . بل ان عاصمة البلاد ومركز الحكم بها لم تتج من شرهم ، فكثيرا ما أغار العربان على أطراف القاهرة وخطقوا كل ما وصلت اليه أيديهم ، حتى عمائم الناس وأثوابهم (٢٥٩) . وذكر بيلوتى أن الاسكندرية ظلت مدة تحت رحمة العربان لأنهم سيطروا

• (٢٥٥) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٨٦ .

• (٢٥٦) نفس المصدر ج ٤ ص ٨٥٨ — ٨٥٩ .

(٢٥٧) ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ١٤٣ ، ٢٠١ ، ابن حنبل : للجوهر الثمين ص ١٦٩ ، بيبيرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٧٠١ ، المقرئى : السلوك ج ٣ ص ١٣ ، ج ٤ ص ١٦٢ .

(٢٥٨) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ١٤٩ ، العيني : عقد الجمان

حوادث ٨٠١ هـ ، المقرئى : السلوك ج ١ ص ٩٢٠ .

(٢٥٩) ابن ابياس : بدائع الزوهر ج ٢ ص ٢٢٤ .

على الطريق الذى يربطها بالعاصمة^(٣١٠) . كذلك ذكر غيره من الرحالة الغربيين أن السبب فى الحراسة الشديدة المفروضة على المدن المصرية ليلا هو الخوف من اعتداء العربان الذين ينتهزون الفرص دائما للاغارة على المدن وسلب متاجرها وبيوتها^(٣١١) ومن الغريب أن هذه الاعتداءات لم تقطع فى ساعات الحرج والخطر الخارجى . من ذلك ما حدث عند اغارة جيوش ملك قبرص على الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ ، اذ كان القبارصة يذهبون المدينة ويذهبون الى سفنهم فيدخل الأعراب المدينة فى ظلام الليل ويستمررون فى النهب والسلب حتى طلوع الفجر ، وبذلك « استغنى من العرب من كان فقيرا »^(٣١٢) . وذكر فابر Faber الذى زار مصر سنة ١٤٨٣ م أن الأدلاء الأعراب الذين رافقوه من سيناء الى القاهرة أوصلوه حتى المطرية فقط وقالوا له أنهم لا يستطيعون دخول العاصمة لأنهم لو فعلوا ذلك فان جمالهم وأمواهم ستصادر. ويلقى بهم فى السجن^(٣١٣) . أما ما فعله سلاطين المماليك لدفع شر الأعراب وحماية الأمن والطرق من عبثهم ، فانهم قربوا اليهم مشايخ العربان وأجزلوا لهم العطاء حينما ، وأرسلوا التجاريد والحملات لردعهم أحيانا^(٣١٤) . ومع ذلك فان العربان ظلوا لا يهدأ لهم بال طوال عصر سلاطين المماليك . وعندما ضعف شأن تلك الدولة فى أواخر القرن التاسع الهجرى — الخامس عشر للميلاد ، أخذ العربان يرددون « ان مصر ما بقى بها من الجند الا قليلا » . وزاد طمعهم فى « حق الترك » . لذلك أخذ المماليك فى ذلك الدور يستعرضون

Dopp : L'Egypte su... p. p. 19 — 20. (٢٦٠)

Laurent d'Arvieux : Memoires; p. 118. (٢٦١)

(٢٦٢) النويرى : الالم بالاعلام ج ١ ص ١٣٢ ، ب . .

Schefer : Le Voyage d'Outremer. p. XXX. (٢٦٣)

(٢٦٤) ابن حجر : انباء النغر ج ١ ص ٧٧١ ، ابن اياس : بدائع

الزهور ج ٢ ص ٢٤٣ ، بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٣٨١ .

قواهم لارهاب الأعراب (٣٦٥) .

وعن حياة الأعراب الخاصة ، يبدو من كتابات المعاصرين أن كثيرين من مشايخهم وصلوا في عصر سلاطين المماليك الى درجة عظيمة من الثروة والغنى (٣٦٦) . وقد استتبع تلك الثروة وذلك الغنى اقتناء الجوارى والأتباع والاكثار من شراء الخيول ، حتى أن السلطان الظاهر بيبرس عندما دهم أحد مشايخ العربان سنة ٧١٣ هـ وجد عنده أربعمائة جارية غير العبيد والبهائم (٣٦٧) . كذلك تمسك العربان بفكرة تعدد الزوجات والاكثار من الأبناء حتى بلغ أبناء أحد مشايخهم ثمانين ولدا (٣٦٨) . ويفهم من المصادر المعاصرة أن الأعرابي في عصر المماليك احتفظ بحق الزواج بمن يشاء من بنات الفلاحين ، وإذا منع فلاح ابنته عن يطلبها من الأعراب فمصيره القتل (٣٦٩) . وعلى العكس لم يسمح اعرابي لفلاح بالزواج بابنته (٣٧٠) .

الأقليات الأجنبية :

وبالإضافة الى سكان مصر من الطوائف السابقة ، وجدت فيها عنى عصر سلاطين المماليك مجموعة كبيرة من الأقليات الأجنبية ، حتى قال البلوى المغربى الذى زار مصر سنة ٧٣٧ هـ أنه رأى بها أناسا كثيرين من مختلف الأجناس (٣٧١) . وقد قدر بعض الكتاب عدد الأجانب فى الاسكندرية وحدها فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى

(٢٦٥) ابن ايبس : بدائع الزهور ، ج ٢ ص ٢٥٣ سنة ٨٩٢ هـ
(تحقيق محمد مصطفى) .

(٢٦٦) القلقشندى : صبح الامشى ج ٧ ص ١٦٠ .

(٢٦٧) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٥٦ .

(٢٦٨) ابو الجاسن : النجوم ج ٩ ص ٣٦ .

(٢٦٩) سيرة الظاهر بيبرس ج ٨ ص ٩ .

(٢٧٠) Lane : Manners and Customs; 195.

(٢٧١) رحلة البلوى المغربى ص ١٥٤ .

بثلاثة آلاف تاجر مسيحي^(٢٧٣) ومن هؤلاء الأجانب المسيحيون الغربيون أو اللاتين ، والمسيحيون الشرقيون أو الروم ، فضلا عن المسيحيين الوافدين من جورجيا والحبشة وأرمينية وغيرها من البلاد^(٢٧٣) . وأختار الأوروبيون الإقامة بصفة خاصة في المدن التجارية والثغور على شاطئ البحر المتوسط مثل الاسكندرية ودمياط^(٢٧٤) . وكان لكل جالية منهم قنصل يشرف على شئون أفراد الجالية ومصالحها الاقتصادية « وإذا حدث من طائفة أحدهم ما يشين في الاسلام يطلب منه »^(٢٧٥) . كذلك اتخذت كل جالية لنفسها فندقا أو أكثر ينزل فيه أفرادها . وقد زار مصر سنة ١٣٩٥ م أمير فرنسي فحكى الكثير عن فنادق البنادقة والجنوية والكييلان والقبارصة وأهل نابلى وأهل كريت وأهل مرسيليا وغيرهم^(٢٧٦) . ورتبت أمور هذه الفنادق بحيث تكون لكل منها ادارة مستقلة على رأسها مدير يدير شئون الفندق . فعند وصول تاجر أجنبي الى الثغر ، تفتش أمتعته بدقة وعناية ويطلب منه دفع ٢/١ من قيمة ما معه من ذهب وعملة نقدية^(٢٧٧) . وبعد ذلك يقصد فندق جاليته حيث يضع بضائعه ويجتمع باخوانه ومواطنيه ، ويستطيع أن يعيش وفق النمط الذي تعود به في بلاده . ذلك أن الفندق اشتمل على جميع ما احتاجه التاجر الأجنبي من مأوى وكنيسة ومخبز وحمام^(٢٧٨) ..

وتمتع هؤلاء التجار داخل فنادقهم بقسط وافر من الحرية ، اذ سمحت لهم السلطات المالكية باحضار الخمر في سفنهم وانزالها

Kammerer : Le Regime et le Status des Etrangers en (٢٧٢)
Egypte ; p. 17.

Dopp : Le Caire Vu... Tome 23; p. 133. (٢٧٣)

Schefer : Le Voyage d'Outremer p. 122. (٢٧٤)

(٢٧٥) خليل بن شاهين : زبدة كشف المالك ص ٤١ .

Schefer : Le Voyage... p. IX. (٢٧٦)

Ib.d. (٢٧٧)

Kammerer : op. cit; p. 20. (٢٧٨)

الى فنادقهم^(٢٧٩) . ويبدو أن الأجانب اعتادوا احضار هذه الخمرور بكميات ضخمة ، حتى أنه عندما حاول السلطان الصالح اسماعيل منع الأجانب سنة ٧٤٤ هـ من احضار الخمرور الى الاسكندرية ، عارضه النائب وقال أنه يتحصل من ذلك في السنة نحو الأربعين ألف ديناراً^(٢٨٠) . ومع ذلك اشترط على الأجانب بعض التعليمات والقيود وشدد عليهم في تنفيذها ، منها اغلاق أبواب فنادقهم مساء كل يوم ووقت صلاة الجمعة^(٢٨١) . كذلك لم يسمح للأجانب داخل البلاد بارتداء ما يختارون من الملابس أو بركوب الخيل ، وانما فرض عليهم ركوب الحمير — شأن أهل الذمة من المواطنين — يستثنى من ذلك القناصل وكبار الأمراء الزائرين الذين تسمح لهم بركوب الخيل^(٢٨٢) . واعتبر السلاطين أولئك الأجانب رهينة لدى الدولة ، فإذا أصاب المسلمين أذى أو اعتداء من جانب البلاد المسيحية ، يكون الاقتصاص في هذه الحالة من الفرنج الموجودين بمصر^(٢٨٣) . كذلك عندما يحيط بالبلاد خطر الغزو كانت تفرض الحيطة الشديدة على الأجانب وتعلو الدعوة الى قتلهم أو طردهم^(٢٨٤) . وكثيرا ما شهدت الاسكندرية بوجه خاص احتكاكات بين المواطنين والأجانب أدت الى قيام فتن كبيرة ذهبت ضحيتها أرواح كثيرة ، كما حدث سنة ٧٢٧ هـ وسنة ٨٢٢ هـ^(٢٨٥) . على أن السلاطين

Reinaud : Traitès de Commerce; p. 40. (٢٧٩)

(٢٨٠) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٦٩٤ .

Laurent d'Arvieux : Memoires; p. 204. (٢٨١)

Ibid. (٢٨٢)

(٢٨٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٦٦٥ ، السخاوى : التبر

المسبوك ص ٦١ . تاريخ ابن الفرات ج ١ ص ٣٣ .

(٢٨٤) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٧٣ .

(٢٨٥) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٧٠ ، المقرئى :

السلوك ج ٤ ص ٣٢٩ .

(م ٥ — المجتمع المصرى)

عملوا؛ في بعض هذه الأحوال على حماية الأجانب والزود عنهم واطهار العطف عليهم^(٢٨٦) .

هذا ، ولم يكن جميع الأجانب الذين أقاموا بمصر في ذلك العصر من التجار بل شهدت المدن المصرية الكبيرة جاليات من عناصر مختلفة استوطنوا البلاد واشتغل كثير منهم بأعمال متنوعة أهمها عصر الخمر ، من ذلك ما يرويهِ القريزى من تكاثر عدد الأرمن في القاهرة على عهد السلطان الناصر محمد ، الذى « اتخذ الأسرى وجلبهم الى مصر من بلاد الأرمن وغيرها ، وأنزل عدة كثيرة منهم بقلعة الجبل وجماعة كثيرة بخزانة البنود . فملأ أولئك الأرمن خزانة البنود حتى بطل السجن بها ، وعمرها السلطان الناصر مساكن لهم وتولدوا بها وعصروا الخمر بحيث أنهم عصروا في سنة واحدة اثنتين وثلاثين ألف جرة باعوها جهارا »^(٢٨٧) .

وبعد ، فهذا عرض عام للطوائف والفئات المختلفة التى تألف منها المجتمع في مصر على عصر سلاطين المماليك . ومن الواضح أن النظم المماليكية شجعت على الفصل بين هذه الفئات في المظاهر العامة ، كما سيتضح عند دراسة الملابس والألقاب وغيرها في الفصول التالية .

Tafur : Travels; p. 96.

(٢٨٦)

(٢٨٧) القريزى : السلوك ج ٢ ص ٦٤٠ — حوادث سنة ٧٤٤ هـ .

الفصل الثاني

القصر السلطاني وحياة السلاطين

قلمة الجبل :

كانت قلعة الجبل في عصر سلاطين المماليك دار الملك ومركز السلطنة وعظمتها بحيث لا تنتم سلطنة الواحد منهم : « الا بدخوله قلعة الجبل »^(١) . وقد وصف القريري هذه القلعة فقال انها بناء عظيم مرتفع يحيط بها سور ضخيم به عدة أبواب وبداخل ذلك السور توجد ديار وقصور عديدة وحمامات وأحواش^(٢) ، كما توجد طباق واسعة للمماليك السلطانية هي اثنتا عشر طبقة كل طبقة منها بقدر حارة تشتمل على عدة مساكن بحيث تتسع كل طبقة الألف مملوك^(٣) . وبالقلعة عدا ذلك دور لخواص الأمراء ونسائهم وأولادهم ومماليكهم ودواوينهم^(٤) ، فضلا عن دار الوزارة التي اشتملت على قاعة الانشاء وديوان الجيش وبيت المال وخزانة الخاص^(٥) . واحتوت القلعة كذلك على الاصطبلات الشريفة التي بها الخيول السلطانية^(٦) ، وساحات الأغنام والطيور والحيوانات الغريبة^(٧) من زراف وفيلة

-
- (١) القريري : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٥٨ .
 - (٢) القريري : الخطط ج ٣ ص ٢٣٢ - ٢٢٣ .
 - (٣) خليل بن شاهين : زبدة ص ٢٧ .
 - (٤) التلقشندى : صبح الاعشى ج ٢ ص ٢٧٦ ، القريري : الخطط ج ٢ ص ٢٢٣ .
 - (٥) القريري : الخطط ج ٣ ص ٣٣٣ .
 - (٦) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٢٧ .
 - (٧) القريري : الخطط ج ٣ ص ٢٤١ .

وغزال وأسود^(٨) ، يتخلل كما ، ذلك البساتين والأشجار. والمياه الجارية التي ترفعها السواقي من النيل الى القلعة برغم ارتفاعها ما يقرب من خمسمائة ذراع^(٩) ، وكانت قلعة الجبل موضع غناية سلاطين المماليك دائما ، فأضافوا اليها اضافات كثيرة ، وشيدوا بها عمائر جديدة من قصور ومساجد وأبراج وأحواش وقاعات وغيرها ، مثل القصر الأبلق ومسجد القلعة وقد شيدهما الناصر محمد ، وقاعة البيسرية التي أنشأها الناصر حسن^(١٠) . ولذلك كله أصبحت قلعة الجبل في عصر المماليك مضرب الأمثال بقصورها الفخمة وسقوفها المذهبة وطرقها المغطاة بالرخام الثمين الجلوب من مختلف البلاد ، وبيوتها المزخرفة بالزجاج القبرصي الملون^(١١) .

وسارت الحياة في قلعة الجبل حسب نظم خاصة من رسوم الملك في العصور الوسطى ، منها دق الكوسات عند أبوابها ، وهي صنجات من نحاس يدق بها مع طبول وشبابة مرتين كل ليلة ويدار بها في جوانب القلعة مرة بعد العشاء ومرة في الفجر قبل التسبيح على المآذن وتسمى كل منهما « الدورة »^(١٢) . ومنها الزفة بالطبلخانة ،

(٨) Tafur : op. cit; p. p. 78 — 79 & Schefer : Le Voyage d'Outremer; p. XXX.

والسخاوي : التبر المسبوك ص ١٤٠ .

(٩) المقرئى : السلوك ج ٢. ق ١ ص ١٢٤ ، الخطط ج ٣ ص ٣٤١ — ٣٤٣ .

(١٠) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٣٧٣ ، خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٢٦ ، المقرئى : الخطط ج ٣ ص ٣٤٣ .

(١١) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ٣٤٣ .

Tafur : op. cit; p. p. 78 — 79 & Dopp : Le Caire Vu ... Tome 23; p. p. 126 — 127.

Tome 24; p. 116.

Tome 26; p. 8, 110.

(١٢) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٩ .

وهى طبول متعددة معها أبواق وزمر تختلف أصواتها على إيقاع مخصوص تدق كل يوم بالقلعة صباحا وبعد صلاة المغرب فيصير لها دوى عظيم يعرف به موعد فتح أبواب القلعة وغلاقها من مسافة بعيدة^(١٣) . وجرت العادة أن يحفظ السلطان عنده مفاتيح أبواب القلعة ، فيحضرها إليه المتولون على الأبواب كل مساء^(١٤) .

البيوت السلطانية الشريفة :

وقد أشرف على أعمال الصيانة العامة بالقلعة ديوان الدولة الشريفة الذى تولى ناظره الانفاق على قصور السلاطين من عمائر وأسمطة وصدقات ... وكل ما تحتاج اليه البيوت السلطانية^(١٥) .

أما هذه البيوت ، فيطلق عليها أيضا اسم حواصل السلطان ، وهى عديدة ويشرف على كل منها مباشر من أمراء المثمن له مساعدون وغلما ن عديدون^(١٦) . ومن هذه البيوت الشرابخانة — أى بيت الشراب — ويحوى مختلف أنواع الأشربة والأدوية التى يحتاج اليها السلطان ، فضلا عن الترياقات والسفوفات والماجين والأقراص^(١٧) . كذلك احتوى بيت الشرابخانة على الأوانى النفيسة المصنوعة من الصينى الفاخر^(١٨) . وقام غلمان الشرابخانة بضبط جميع ما يعمل فيها من أصناف ، وموضع استعمال كل منها ، بحيث تكون لهم معرفة بحاجات الأسمطة والطوارئ والرواتب ، وما يصرف للمرضى من

(١٣) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ١ ص ١١٨ .

(١٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٠ .

(١٥) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٩٧ .

(١٦) القلقشندى : صبح الامشى ج ٤ ص ١٠ .

(١٧) النويرى : نهاية الأرب ج ٨ ص ٢٢٤ .

(١٨) القلقشندى : صبح الامشى ج ٤ ص ١٠ .

الممالك السلطانية من أنواع الأثرية والمعاجين « بمقتضى أوراق
الأطباء » (١٩) .

أما الطننت خاناه ففيها أنواع الأوانى والطنشوت والأباريق
اللازمة لغسل الأيدي والوضوء وغسل الملابس والأقمشة السلطانية ،
عدا أدوات الحمام والوقود من السخانات والكراسى والستائر
والسجادات والوسائد والمناشف وفوط الخدمة والمباخر وأنواع البخور
والطيب وماء الورد ، غير ذلك مما تحتاج إليه الدور السلطانية
للاستحمام (٢٠) .

ومن البيوت السلطانية كذلك الفراش خاناه ، وفيها أنواع
الفرش من البسط والخيام والتخوت والحمامات الخشب التى تنصب
في الدهاليز في الأسفار ، وما يتعلق بذلك من ثلاثت النوم والوسائد .
ومباشر هذا البيت يجب أن تكون له خبرة فيما يحتاج الى استصحابه
في أسفار السلطان لخاصته وجواريه ومماليكه على اختلاف طبقاتهم
وظائفهم ، حتى الكلاب السلطانية ومن يقوم بخدمتها (٢١) .

أما السلاح خاناه — وهى الزردخاناه أواخر العصر المماليكى —
فاحتوت على جميع أنواع الأسلحة من سيوف وقسي ورماح ودروع
وتشابب . وأشرف على السلاح خاناه أمير سلاح ، ومهمته ضبط
ما يخرج منها مما تتسلمه ممالك السلطان من أنواع الأسلحة عند
ركوبه أو جلوسه في مجلس عام ، أو في الحروب . واخترنت السلاح

(١٩) النويرى : نهاية الأرب ج ٨ ص ٢٢٤ ، القلقشندى : صبح
الأعشى ج ٤ ص ٩ .

(٢٠) النويرى : نهاية الأرب ج ٨ ص ٢٢٥ ، القلقشندى : صبح
الأعشى ج ٤ ص ١٠ — ١١ .

(٢١) النويرى : نهاية الأرب ج ٨ ص ٢٢٦ .

خانة جميع ما يصنع من الأسلحة الجديدة برسم السلطان ، فيحمله
الحمالون على رؤوسهم ويزف الى القلعة في يوم مشهود^(٢٢) .

وأما الركاب خاناه فاشتملت على آلات الخيل من سروج ولجم
وكتابييش ، وغير ذلك من أدوات الركوب المغشاة بالذهب والفضة برسم
السلطان^(٢٣) . وقد قيل أن عدة ما بالركاب خاناه مما تحتاج اليه
الضرورة ثلاثة آلاف قطعة مختلفة الأسماء والأشكال ، ولها مهتار
وركبدارية وغير ذلك من الموظفين^(٢٤) .

وهناك أيضا الطبلخاناه التي اشتملت على الطبول والأبواق
وتوابعها من الآلات التي بلغت في بعض الأحيان أربعين محلا من الكوسات
والطبول^(٢٥) . وأشرف على الطبلخاناه أمير من أمراء العشراوات يعرف
بأمير علم ، وهو الذي يتولى تنظيمها وتوزيعها بالقلعة وفي
الأسفار^(٢٦) .

ومن أهم البيوت السلطانية الحوائج خاناه التي خصصت لها
ميزانية تحت يد الوزير. يصرف منها على المطبخ السلطاني ، وما يحتاجه
من لحم وتوابل وما يخص الأمراء والماليك والمعممين من مرتبات^(٢٧) .
واشترط على المشرف في الحوائج خاناه المعرفة التامة بأنواع الأسمطة
السلطانية ، وما يحتاج اليه كل منها من لحوم وتوابل وخضروات
وحلوى وبخور ، إذ أن لكل منها معدل لا يصح أن يتجاوزه . كذلك
يجب أن تكون له دراية بأسماء أرباب الرواتب ونصيب كل منهم في

(٢٢) نفس المصدر والجزء ص ٢٢٧ ، وكذلك القلقشندى : صبح
الامشى ج ٤ ص ١١ - ١٢ .

(٢٣) القلقشندى : صبح الامشى ج ٤ ص ١٢ .

(٢٤) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢٤ .

(٢٥) المصدر السابق ص ١٢٥ .

(٢٦) القلقشندى : صبح الامشى ج ٤ ص ١٣ .

(٢٧) القلقشندى : صبح الامشى ج ٤ ص ١٣ .

اليوم وما يصرف في الأعياد والمواسم المختلفة . واذا مرض أحد المماليك السلطانية فإنه ينقل من باب اللحم الى باب المزاوير — أى المرق — فيقطع مرتبه من اللحم والتوابل مدة مرضه (٢٨) .

ويتصل بالحوائح خاناه المطبخ السلطاني وفيه يطهى طعام السلطان وتعد الأسمطة المتنوعة الألوان ، وله طباخ يشرف على الأبطخة حسب ارشاد استادار الصحبة ، كما أن به عدة مرقدارية — وهم صبيان المطبخ (٢٩) . وقد بلغ عدد الدجاج الذى يذبح في المطبخ السلطاني بعض الأيام سبعمائة طائر ، كما بلغ مقدار اللحم يوميا في مطبخ الظاهر بيبرس عشرة آلاف رطل لحم (٣٠) . وفى سنة ٧٤٦ هـ — أى فى زمن شعبان بن الناصر محمد — بلغ متحصل طباخ المطبخ السلطاني من ثمن الرؤوس والأكارع وسقط الطيور فى مهم واحد ثلاثة وعشرين ألف درهم ، فلما صودر ذلك الطباخ وجد له خمسة وعشرون دارا على النيل فى عدة أماكن متفرقة (٣١) .

حياة السلاطين :

أما أهم ما امتازت به حياة سلاطين المماليك فكانت الثروة العظيمة . والشواهد على ثروة سلاطين المماليك كثيرة فى المصادر المعاصرة ، وحسبنا ما خلفه الواحد منهم عند وفاته من القناطير المقتنطرة من الذهب ، عدا الفراء الثمينة والخيول المسومة وآلاف المماليك المستتراة (٣٢) . ومن الأمثلة على هذه الثروة أن أنوك بن السلطان الناصر

(٢٨) النويرى : نهاية الأرب ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٢٩) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢٥ ، صبح الأعمش ج ٤ ص ١٣ .

(٣٠) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٩٨ .

(٣١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٧٤١ ، الخطط ج ٣ ص ٣٧٤ — ٣٧٥ .

(٣٢) ابو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٥٩٧ .

محمد بن قلاون بلغ جهاز زواجه حمولة ثمانمائة جمل وستة وثلاثين قنطارا من البغال ، كما بلغ الذهب في المصاغ والملابس الزركش ثمانين قنطارا ، ومع كل ذلك استصغر والده السلطان الفاصر هذا الجهاز عندما رآه وقال أنه رأى شوار بنت الأمير سلار أحسن منه وأكثر^(٣٣) .
ومهما يكن في هذه الأمثلة من مبالغة واضحة ، فإنها تعطينا فكرة عن ثروة سلاطين المماليك وأمرائهم في ذلك العصر . ولا عجب إذا استكملت القصور السلطانية جميع مظاهر الترف والعظمة من أثاث ورياش وناפורات وصنابير للمياه الباردة أو الساخنة حسب الحاجة^(٣٤) . بل بلغ الأمر بالسلاطين أن جلبوا الثلج من جبال الشام لتبريد الماء زمن الحر صيفا ، وذلك « لكمال الرفاهية والأبهة »^(٣٥) ، فقرروا له هجنا تحمله في البر وسفنا تحمله في البحر حتى يصل إلى القلعة حيث يحفظ بالشرابخانة^(٣٦) .

وجرت العادة أن يمد السماط السلطاني في طرفي النهار من كل يوم ، ففي أول النهار يمد سماط لا يأكل منه السلطان ثم سماط ثان بعد ذلك قد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل ويسمى الخاص ، ثم سماط ثالث يكون منه مأكول السلطان . أما آخر النهار فيمد سماطان أو ثلاثة يأكل السلطان من ثالثهما . وبعد الطعام توزع الأقساماء المبردة المعفولة من السكر والمطوية بماء الموردي على الحاضرين^(٣٧) . وتولى هذه الأسمطة الأمير الجاشنكير ، وعمله أن يأكل قبل السلطان خوفا من أن يدس عليه السم في أكله أو شربه^(٣٨) .

(٣٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٤١٨ ، ترجمة أتوك بن محمد بن قلاون .

Schefer : Le Voyage d'Outremer, p. 36. (٣٤)

(٣٥) القلقشندي : صبح الاعشى ج ١٤ ص ٣٩٥ .

(٣٦) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١١٧ - ١١٨ ،

القلقشندي : صبح الاعشى ج ١٤ ص ٣٩٥ .

(٣٧) المقرئزي : الخطط ج ٣ ص ٣٤٢ .

(٣٨) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٦٠ ، ٣٩٦ .

كذلك أمعن سلاطين المماليك في لبس الفاخر من الثياب ، فأبدلوا ملابسهم ثلاث مرات في اليوم الواحد ، ومع هذا فقد حكى بعض الرحالة الغربيين الذين زاروا مصر في عصر المماليك أن الرداء الذي يخلعه السلطان لا يلبسه مرة ثانية مطلقا ، وإنما توضع الملابس المخلوعة في مكان خاص حتى ينعم بها على أمرائه وخاصة^(٣٩) . وأشرف على شؤون الملابس السلطانية أمير أسمه الجمدار^(٤٠) . كذلك احتفظ سلاطين المماليك بجماعة من البابية^(٤١) للعناية بثيابهم وصقلها . وجرت العادة أن يرتدى السلاطين الملابس البيضاء صيفا^(٤٢) ، والملابس الصوفية الملونة المبطنة بالمخمل وعليها الفراء الفاخر شتاء^(٤٣) ، وزين السلاطين أصابعهم باخواتم الياقوت والفيروزج والزمرد والألماس^(٤٤) .

وعند مبيت السلطان يظل حوله عدد من أمرائه ومماليكه للسهر على حراسته ، فيقسمون الليل بينهم كلما انقضت نوبة فئدة أيقظوا أصحاب النوبة الذين يلونهم . والمعروف أن النوبات التي تولت حراسة شخص السلطان ليلا ونهارا عددها خمس ؛ ويكون تغييرها في الظهر والعصر والعشاء ونصف الليل وعند الصباح^(٤٥) . وحرصت

Dopp : Le Caire Vu... Tome 23; p. 148, Schefer : (٣٩)
Le Voyage d'Outremer. p. XIII.

(٤٠) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٥٩ .

(٤١) بلردها بابا وهو « لقب عام لجميع رجال الطشت خاناه ممن يتعاطى القسل والصقل وغير ذلك . وهو لفظ رومى معناه ابو الآباء . . . وكانه لقب بذلك لانه لما تعاطى ما فيه ترميه مخدومه من تنظيف قمائمه وتحسين هيئته أشبه بالأب الشفيق ، فلقب بذلك » . القلقشندي : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٧٠ .

(٤٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٠ ، ٢٠٠ .

(٤٣) ابن اياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ١٨٣ .

(٤٤) ابن اياس : بدائع الزهور ص ٥٨ .

(٤٥) القرىزى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٦١ حاشية ٢ .

ذئبات النوبة أن تكون لديها أطباق فيها أنواع « المطجنات والبوارد والقشطة والجبن والموز .. » حتى يتشاغل أرباب النوبة في السهر حول السلطان بالمأكل والمشروب عن النوم^(٤٦) ، وذلك إذا أتعبتهم لعبة الشطرنج أو القراءة في المصاحف^(٤٧) .

أما الحريم السلطاني ، وهو المسمى الآدر الشريف ، فاحتوى على عدة قاعات تحيط بها البساتين والأشجار ومختلف الطيور والحيوانات الجميلة^(٤٨) . وقد خصصت لكل واحدة من زوجات السلطان الأربع قاعة خاصة بها ، فالقاعة الكبرى تعرف بالعواميد تقيم فيها خوند الكبرى ولها المكانة المفضلة ، وقاعة رمضان بها خوند الثانية ، والقاعة المظفرية بها خوند الثالثة . وأخيرا تقيم خوند الرابعة بالقاعة المعلقة ، هذا عدا قاعات أخرى برسم السراري والجواري^(٤٩) . وأحيطت كل واحدة من زوجات السلطان بعدد كبير من الوصيفات ، كما خصص لكل واحدة منهن أربعة طواشية (خصيان) بمنابة حرس دائم لها ، ولا يفارقنها في أي مكان تذهب إليه^(٥٠) . فاذا رزق السلطان بولد ذكر من إحدى زوجاته دقت البشائر بالقلعة . وأنعم على الأمراء بالخلع . وفي يوم السبوع تجتمع الخوندات ونساء الأعيان بالقلعة حيث يقام مهم حافل وتحمل القبة والطير على رأس زوجة السلطان أم المولود^(٥١) ، كما يأمر السلطان بعمل داير ومهد المولود ربما كلفه آلاف الدنانير^(٥٢) . ولم يسمح لأي أحد بالاقتراب من الحريم

(٤٦) المقریزی : الخطط ج ٣ ص ٢٤٢ .

(٤٧) التلقشندي : صبح الامشى ج ٤ ص ٤٩ .

(٤٨) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٧٥ .

(٤٩) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٢٦ — ٢٧ .

(٥٠) Schefer : Le Voyage d'Outremer; p. XXXI .

(٥١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٦٢ ، المقریزی : السلوك

ج ٢ ص ٧٦٤ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ١٨٣ .

(٥٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٨٠ .

السلطاني سوى الطوائسية^(٥٣) ، وكذلك كان حريم الأمراء لا يقترب منه أحد حتى السلطان . والمعروف أن السلطان المنصور صلاح الدين محمد عزل من السلطنة سنة ٧٦٤ هـ لأن نفسه حدثته بالاتصال بنساء الامراء^(٥٤) .

وسائل التسلية والرياضة :

هذا ، وقد اتصف بعض سلاطين المماليك بالتقوى والورع وحب البحث في المسائل العلمية والدينية . فالأشرف قايتباي عرف عنه اشتغاله بالعلم وكثرة مطالعة الكتب « وله أذكار وأوراد جليلة تتلى في الجوامع » حتى أيام ابن اياس^(٥٥) . وأحب السلطان ططر انشاد الشعر بين يديه ، لا سيما الشعر التركي الذي حفظ منه كثيرا^(٥٦) . واعتاد السلطان الغوري أن يعقد بالقصر السلطاني مرة أو مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع مجالس علمية أو دينية ودعا إليها كبار العلماء ورجال الدين والأدباء للتحدث والتباحث في مختلف المسائل العلمية والدينية^(٥٧) .

وشغف كثير من سلاطين المماليك بالموسيقى والغناء حتى جرت العادة زمن أبي المحاسن أن يكون لكل سلطان أو ملك جوقة من المغاني في داره^(٥٨) . ودفع ذلك بعض السلاطين الى تقريب أرباب الموسيقى

(٥٣) تاريخ ابن الفرات سنة ٧٦٧ هـ ص ٣٩٨ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٧٩ جاشية ٤ .

(٥٤) ابن قاضي شهبة : الاملام ج ٣ ص ١٥٩ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ١٧٧ .

(٥٥) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٩٨ .

(٥٦) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٥٢٠ (كالفورثية) .

(٥٧) نفائس المجالس السلطانية ، الكوكب الدرى في مسائل الغورى .

(٥٨) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ١٧٨ .

والغناء اليه ، فاذا سمع بمغنى أرسل في طلبه وكلفه بتعليم جواريه
فن الغناء ، كما فعل الناصر محمد مع المغنى كتيلة بن قرانغان^(٥٩) .
كذلك شغف كثير من سلاطين المماليك بلعب الشطرنج مع المقربين
اليهم من الأمراء والعلماء والأدباء^(٦٠) ، بل لقد حرص بعضهم اذا خرج
في أسفاره أن تحمل معه كمية ضخمة من العاج برسوم خرط الشطرنج ،
حتى اذا لعب السلطان بشطرنج مرة أخذه بعد ذلك أرباب النوبة
وجدد غيره للسلطان^(٦١) .

ومن ضروب التسلية السلطانية أيضا الخروج للتنزه في أماكن
متفرقة ظاهر القاهرة مثل خليج الزعفران أو الجيزة أو غيرها^(٦٢) .
وكان والى القاهرة يستغل هذه المناسبة لإقامة مهرجانات كبيرة يرمى
فيها النفط وتشعل فتائل بالزيت في قشور البيض والنانج ثم ترسل
على الماء لتكون بمثابة « أسرجة موقدة على وجه النيل »^(٦٣) ، وحدث
أحيانا أن يأمر السلطان باحضار الحرائيق المزينة التى تسير فى لىالى
وفاء النيل ، فيجتمع الناس من كل مكان للفرجة « ويحدث لهم من
البسط ما لا مزيد عليه »^(٦٤) . أما اذا استصحب السلطان حريمه ،
ففى هذه الحالة يطرد سائر الناس من الطرقات وتطلق الحوائيت^(٦٥) .
على أن بعض السلاطين فضل الانهماك فى اللذات ، وانغمس فى

(٥٩) ابن حجر : الدرر الكهنة ج ٣ ص ٢٦٥ ترجمة كتيلة بن
قرانغان .

(٦٠) ابن حجر : رقم الاصر ص ١٧٩ ، ابو المحاسن : النجوم ج ٨
ص ١٠١ .

(٦١) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٧٢٩ ، حيث نكر أن هذه الكمية
بلغت خمسة قناطير من العاج .

(٦٢) السخاوى : التبر المسبوك حوادث سنة ٨٤٩ هـ .

(٦٣) العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٨٢١ هـ .

(٦٤) ابن حجر : انباء الغر ج ٢ ص ٢٥٣ .

(٦٥) ابو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٧٤ .

حياة المجون والمحرمات^(٦٦) . ومن هؤلاء المظفر حاجي الذي بلغ من شغفه بالنساء أن قيمة عصابة الرأس لحظيته قدرت بمائة ألف دينار^(٦٧) . أما السلطان اسماعيل بن الناصر فقد اعتاد عند ركوبه الى سرياقوس للرياضة أن يصحب معه في ركابه مائتي امرأة في ثياب أطلس ملون ، وعلى رؤوسهن الطراوير من الجلد المرصع بالجواهر ، وبين أيديهن الخدام والطواشية^(٦٨) . وهناك من السلاطين من عكف على معاقرة الخمر وأسرف في تعاطيها حتى ابتكر أحد أمراء المماليك — وهو الأمير تمربغا — نوعا من الخمر نسب اليه وعرف بالتمربغاوى ، فأقبل السلطان الظاهر برقوق على شربه في مختلف المناسبات وصحبته الامراء^(٦٩) . هذا عدا أنواع العبث الشاذ التي شغف بها بعض سلاطين المماليك ، والتي سنتعرض لها بشيء من التفصيل في الباب الأخير من هذا الكتاب .

واشتهر سلاطين المماليك وأمرؤهم بولعهم الشديد بالألعاب الفروسية والصيد والرياضة على اختلاف أنواعها « لما في ذلك من تمرين النفوس على اكتساب التأييد وحصول المسرة بكل ظفر جديد^(٧٠) » . ولهذا الغرض اهتم السلاطين بعمل الأحواش في مختلف أقاليم الديار المصرية وزودوها بالشباك والصيادين^(٧١) ، كما عملوا الميادين الفسيحة مثل ميدان القبق الذي أنشأه الظاهر بيبرس خارج

(٦٦) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ٣١٢ — ٣١٣ ، الذهبي : تاريخ الاسلام سنة ٦٩٣ هـ .

(٦٧) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢ — ٤ ترجمة الملك المظفر سيف الدين حاجي .

(٦٨) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٧٣٣ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ١٩ .

(٦٩) ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٣٨١ ، المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٧٤١ .

(٧٠) القلقشندي : صبح الاعشى ج ١٤ ص ١٦٦ .

(٧١) خليل بن شاهين : زبدة كشف المالك ص ١٢٨ .

القاهرة وميدان سرياقوس الذى أشأه الناصر محمد سنة ٧٢٣
وغيرها (٧٢) . كذلك اهتم السلاطين بطيور الصيد وكلابها على اختلاف
أنواعها ، فأنشأوا لها المطاعم وعينوا لها البازدارية يشرفون عليها
تحت رقابتهم . واعتاد السلطان اينال أن ينزل بين حين وآخر الى
مطعم الطير ، فتطلق البازدارية طيوراً أعدوها ثم يطلقون وراءها
الطيور الجارحة لاصطيادها حتى يتسلى السلطان برؤية هذا
المنظر (٧٣) . أما السلطان الناصر محمد فقد عنى باقتناء الخيول ،
وعمل ديوانا ينزل فيه كل فرس فيقيد اسمه واسم صاحبه ونسب
الفرس والتاريخ الذى أحضر فيه . . فإذا حملت فرس من خيول
السلطان أحيط علما بذلك وأخذ يترقب الوقت الذى تلد فيه (٧٤) .
ويقال أن الناصر محمد كان يصرف المبالغ الطائلة دفعة واحدة فى أثمان
الخيول ، حتى مات عن أربعة آلاف وثمانمئة فرس (٧٥) .

أما الألعاب الرياضية التى شغف بها السلاطين فأولها سرحات
الصيد ، وموعدها عادة أيام الربيع عندما يسرح السلطان عدة مرات
« الى مواضع مخصوصة » وجميع الأعيان فى خدمته بالكامل (٧٦) .
وأهم هذه المواضع سرياقوس وشبرا والبحيرة (٧٧) ،
والعباسة (٧٨) ، والغربية (٧٩) ، والوجه القبلى (٨٠) . واعتاد

(٧٢) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ١٨٠ ، ٣٢٤ - ٣٢٥ .

(٧٣) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٣ ص ٤١٦ ، ٤٨٤ ، النجوم
ج ١ ص ٢٩ .

(٧٤) ابن حجر : انباء الفهر ج ١ ص ٤٣٥ ، ذيل الاعلام بتاريخ
اهل الاسلام ج ٢ ص ١٣٤ .

(٧٥) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ٣٢٣ ، ٣٦٥ .

(٧٦) خليل بن شاهين : زبدة كشف المالك ص ١٢٧ .

(٧٧) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ٣٢٤ .

(٧٨) العباسية المقصودة هنا احدى قرى مركز الزقازيق بالشرقية
النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٤١ .

سلاطين المماليك عند خروجهم للصيد أن ينعموا على أكابر أمراء الدولة بالأموال والخيول والحوائص الذهب والسيوف والثمّاش وغير ذلك^(٨١) ، وأن يصطحبوا معهم عدا الأمراء والمماليك كل من تدعو الحاجة إليه من أطباء وكحالين وأشرية وعقاقير . فضلا عن عدد كبير من الخيام^(٨٢) . وقد شهد ليناردو موكب السلطان برقوق عند عودته من الصيد سنة ١٣٨٤ م فذكر أن به أكثر من خمسة آلاف خيمة^(٨٣) .

أما طريقة الصيد فهي أن تطلق الطير في الهواء ثم يرمى لها الحب لتهبط إليه ، ويضرب الأمراء حولها حلقة وهي لاهية في التقاط الحب فيذعرونها بضرب الطبول والسلطان والأمراء مترقبون لصيدها^(٨٤) . وبعد أن يأخذ السلطان حظّه من صيد الطير يتحول الى اقتناص الوحوش ، فتعد الخيول وتضرب العساكر حلقة كبيرة واسعة تطلق داخلها النعامات والظباء ويقر الوحش وغير ذلك ، فيطاردها السلطان ومعه الجوارح الصائدة وعندئذ تموج الوحوش ويستولى عليها الذعر . وبعد أن يصيد السلطان منها كفايته يترك لأمرائه حرية الصيد^(٨٥) . وقد تواتر في بعض المصادر أن السلطان قطز شغف بصيد الأرناب خاصة^(٨٦) . وانتهز بعض سلاطين المماليك فرصة الخروج للصيد لتحرر من قيود الملك ، فارتكب بعضهم في هذه المناسبة كثيرا من المعاصي وتجاهروا بالفواحش . ومن ذلك أن

-
- (٧٩) زيتر شتين : تاريخ المماليك ص ١٢٩ .
(٨٠) بيبيرس الدوادر : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٢٠٢ — ٢٠٣ .
(٨١) أبو المحاسن : إنجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٤٧ ، ج ٨ ص ١٤٢ .
(٨٢) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ٣٢٥ .
(٨٣) Dopp : Le Cairo Vu; Tome 23, p. 131.
(٨٤) القلقشندي : صبح الامشى ج ١١ ص ١٦٧ .
(٨٥) نفس المصدر والجزء ص ١٦٩ — ١٧١ .
(٨٦) بيبيرس الدوادر : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٢٣ .

السلطان شعبان كان يستصحب معه عند خروجه للصيد عددا من الغوانى وجرار الخمور وأرباب الملاعب والملاهي^(٨٧) . ومع ذلك اعتبر المعاصرون خروج السلطان الى الصيد — والى سرياقوس بوجه خاص — من شعائر الملوك « ومن أجمل عوائدهم وأحسنها » . وأسف أبو المحاسن عندما بطلت هذه العادة سنة ٨٠٠ هـ ، اذ صار الفرق بين « سلطنة مصر ونيابة الأبلستين اسم السلطنة ولبس الكلفتاه في المواكب لا غير »^(٨٨) .

ومن الرياضيات الشهيرة عند المماليك لعب الكرة أو الأكرة أو الجوكان ، وهى اللعبة المعروفة الآن باسم بولو . وقد شغف بهذه اللعبة معظم السلاطين وأمرائهم ، فأنشأوا لها الميادين ووضعوا لها نظاما خاصا وحددوا أوقات وحفلات تلعب فيها . كذلك أعدوا لها ما يلزمها من خيول وأدوات ، وخصصوا موظفين من المماليك يشرفون عليها يسمى الواحد منهم جوكندار ، أى الذى يحمل الجوكان ، وهى عصا مدهونة طولها نحو من أربعة أذرع وبرأسها خشبة مخروطية محدودة تنيف عن نصف ذراع^(٨٩) . وقد اعتاد السلاطين عند الخروج للعب الكرة أن يفرقوا حوائص من ذهب على بعض الأمراء المقدمين^(٩٠) .

وشهد الرحالة تافون سلطان المماليك وأمراءه يلعبون هذه اللعبة ، فقال أن الميدان الفسيح الذى لعبوا فيه كان مقسما ومخططا بخطوط بيضاء ، وعلى جانبى الميدان عدد كبير من فرسان المماليك بيد كل

(٨٧) القرىزى : السلوك ج ٤ ص ٤٦ — ٤٧ ، ج ٢ ص ٧٤٥ .

(٨٨) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٥٧٣ .

(٨٩) القرىزى : السلوك ج ١ ص ٤٤٤ حاشية ١ ، ابن اياس : صفحات لم تنشر حاشية ١ ص ٢٩ .

(٩٠) القرىزى : الخطط ج ٣ ص ٣٢٥ ، التتقىندى : صبيح

الاعشى ج ٤ ص ٥٢ — ٥٥ .

(م ٦ — المجتمع المصرى)

منهم عصا طويلة ، وفي وسط الميدان كرة • ويكون اللعب بأن يحاول كل جانب اجتذاب الكرة الى جانبه ، والذي ينجح في ذلك تكون له الغلبة^(٩١) • وجرت العادة أن يقوم المهزوم في اللعب بعمل مهم حافل أو وليمة كبيرة ، وربما وصلت تكاليف هذه الوليمة الى مائتي ألف درهم نظرا لما يذبح فيها من مئات المواشى والخيول والطيور ، عدا الحلوى والمشروبات^(٩٢) • وفي بعض الأحيان تحمل السلطان نفقات هذا المهم — رغم أنه الغالب — وذلك تخفيفا عن الأمير المغلوب^(٩٣) •

ومن الألعاب الرياضية التي شغف بها أيضا سلاطين المماليك رمى القبق • وتفصيل هذه اللعبة هو أن تنصب خشبة عالية في ميدان اللعب ويعمل بأعلىها دائرة من خشب ، وتقف الرماة بقسيتها وترمي بالسهم جوف الدائرة اكي تمر من داخلها الى هدف معين ، وذلك تمرينا لهم عن احكام الرمي^(٩٤) • وأحيانا يكون بدل هذه الدائرة شكل قرعة عسلية — واسمها بالتركية القبق — من ذهب أو فضة ويكون في القرعة طير حمام • ثم يأتي اللاعبون للمباراة في رمي الهدف بالنشاب أو السهام وهم على ظهور الخيل ، فمن أصاب منهم القرعة أو أطار الحمام حاز السبق وأخذ القرعة المعدنية نفسها^(٩٥) • وعدا ذلك ينعم السلطان على من يصيب القبق بقرس اذا كان من الأمراء

Tafur : Travels; p. 80.

(٩١)

(٩٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٢٨ — ٢٩ ، المقریزی : السلوك ج ٢ ص ٧٨٥ •

(٩٣) ابن حجر : انباء الغر ج ١ ص ٤٣٦ ، نيل الاعلام ج ٢ ص ١٣٥ •

(٩٤) المقریزی : الخطط ج ٣ ص ١٨٠ •

(٩٥) المقریزی : السلوك ج ١ ص ٥١٨ هاشمية ٦ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ١٦ •

وبخلعة اذا كان من المماليك^(٩٦) . ويبدو أن السلاطين اعتادوا لعب القبق — أو يأمرون بلعبه — عدا أيام اللعب العادية في مناسبات الفرح والسرور اظهارا لشعورهم ، كما حدث سنة ٦٩٢ هـ عندما أمر السلطان الأشرف خليل بلعب القبق « وذلك بسبب ظهور أخى الملك الأشرف — وهو الملك الناصر محمد بن قلاوون — وطهور ابن أخيه الأمير مظفر الدين موسى ابن الملك الصالح علاء الدين على بن قلاوون ، فاحتقل السلطان لظهورهما . »^(٩٧) . وعند رمى القبق يرتدى المماليك السلطانية أجمل العدد والخوذ والآلات والسلاح الكامل ، ويخرج أهل القاهرة من الرجال والنساء للفرجة ، فتصب السوق لهم عدة صواوين فيها أنواع البقول والمأكول والمشارب^(٩٨) .

وكثيرا ما انتهى أمر لعبة القبق الى الطعان بالرمح أو بالدبابيس أو السيوف فينقسم اللاعبون فريقين عقب لعب القبق ، يأخذون في المبارزة والطعان « فلا يرى الناس الا سيوفا تبرق »^(٩٩) . وقد ذكر أبو المحاسن أن ممالك قلاوون استحدثوا أشياء كثيرة في تلك اللعبة من حيث طريقة اللعب والقبض على الرمح حتى أصبح اللعب بالرمح في زمانه يكاد يخالف لعب المماليك الأوائل في غالب حركاتهم^(١٠٠) .

ومن الألعاب المماليكية كذلك الرمي بالبندق ، والبندق كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص أو غيرها وترمى به الطيور . وكان لرمي البندق شأن كبير في العصور الوسطى بمختلف البلاد

(٩٦) العيني : عقد الجمان سنة ٦٧٥ هـ ، المقرئى : السلوك

ج ١ ص ٦٧٦ .

(٩٧) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ١٦ .

(٩٨) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ١٨١ .

(٩٩) تاريخ ابن الفرات ج ١٣ ص ٦ ، المقرئى : السلوك ج ١

ص ٦٢٦ .

(١٠٠) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣١١ .

ومنها مصر ، حتى أن خط البندقانيين بالقاهرة ينسب الى صناعة أقراص البندق (١٠١) . ومن السلاطين الذين شغفوا بهذه اللعبة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (١٠٣) .

وبعد ، فإن الألعاب السابقة ليست ضروب النشاط الرياضى الوحيدة التى عرفها المماليك . فكثيرا ما أقام السلاطين والأمراء مسابقات بين الهجن والخيول فى الأماكن الفسيحة الواسعة ، مثل بركة الحاج ، أو بركة الحبش (١٠٣) ، أو ميدان القيق (١٠٤) . هذا فضلا عن الألعاب الأخرى الفردية التى يصعب حصرها . فالسلطان الظاهر بيبرس مثلا عرف عنه ولعه العظيم بالسباحة لمسافات طويلة حتى أنه سبج مرة فى النيل وهو يرتدى ملابس الحرب ويسحب خلفه بعض أمرائه جالسين على عوامة مسطحة (١٠٥) .

البلاط والحياة الرسمية :

أما الحياة الرسمية فى البلاط الممالىكى فاتصفت بالتعقيد وأحيطت بمختلف مظاهر التتخيم والتعظيم ، حتى قال عنها بعض الكتاب المحدثين أنها تطلبت من قواعد البروتوكول ما يفوق أعظم بلاط فى عصورنا الحديثة (١٠٦) . فعلى رأس البلاط كان السلطان ، وله من صفات العظمة والألقاب العديدة ما يصعب حصره (١٠٧) . وأخطا بالسلطان عدد كبير من الأمراء أرباب الوظائف ، لكل منهم رتبته ولقبه ومنزلته ووظيفته . فهناك أمير جاندار ، وهو الذى يستأذن على دخول الأمراء

-
- (١٠١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ١٧٢ حاشية ٢ .
(١٠٢) رينتر شتين : تاريخ المماليك ص ٢٧ .
(١٠٣) ابن حجر : انباء الغمر ، ج ٢ ص ٢٥٨ .
(١٠٤) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٣٦٦ .
(١٠٥) Lane — Poole : A. Hist of Egypt; p. 250.
(١٠٦) Lane — Poole : Cairo- p. 89.
(١٠٧) القلقشندى : صبح الامشى ج ١٣ ص ١٦٤-١٦٥ .

للخدمة ، ويدخل أمامهم الى الديوان (١٠٨) . كما كان من اختصاص
هذا الأمير أن يدور بالزفة بحول السلطان في سفره صباحا ومساء (١٠٩) .
وهناك الاستادار واليه أمر البيوت السلطانية كلها من المطبخ
والشرابخانة . . . وهناك أمير سلاح مقدم السلاحدارية والمتولى لحمل
سلاح السلطان . . . وهناك الداودار ومهمته تبليغ الرسائل عن السلطان
وتقديم القصص وعامة الأمور اليه (١١٠) .

وجرت العادة أن يخرج السلطان صباحا من أحد قصوره الجوانية
الى القصر الكبير المشرف على اصطبلاته حيث يجلس على تخت الملك
ويدخل عليه خواصه وأمرأؤه . أما الغرباء فليس لهم عادة بحضور هذا
المجلس الا في حالة الضرورة . ويظل السلطان بذلك القصر حتى الساعة
الثالثة من النهار ، ثم يدخل بعدها الى أحد قصوره الجوانية للنظر في
مصالح ملكه ، وعندئذ يحضر اليه أرباب الوظائف مثل الوزير وكاتب
السر وناظر الخاص وناظر الجيش لعرض شئون الدولة عليه (١١١) .

ويتضح من عبارة « جلس كبار الأمراء قبل دخولهم الى
الخدمة . . . » (١١٢) ، أو من عبارة « اذا وقف الأمراء
بالخدمة . . . » (١١٣) أو من عبارة « الأمراء عند السلطان
بالخدمة . . . » (١١٤) ، أن المقصود بالخدمة الحضرة السلطانية . وربما
يفهم أحيانا من هذا اللفظ معنى التحية وتقديم فروض الولاء
والاحترام ، كما يتضح من عبارة « وتقدم الأمراء للسلطان

(١٠٨) نفس المصدر ج ٤ ص ٢٠ .

(١٠٩) المتريزي : الخطط ج ٣ ص ٢٦١ .

(١١٠) نفس المصدر والجزء ص ٣٦٠ وما بعدها .

(١١١) القلقشندي : صبح الامشي ج ٤ ص ٤٤ .

(١١٢) المتريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٣٢ .

(١١٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ١٧٢ .

(١١٤) المتريزي : الخطط ج ٤ ص ١٠١ .

وبخدموه (١١٥) فاذا جمعنا بين المعنيين وقلنا أن الخدمة السلطانية هي مثل الأمراء بين يدي السلطان لتقديم فروض الولاء وعرض أمر من أمور الدولة عليه ، فان الخدمة بهذا المعنى جرت بانتظام أربع مرات في الأسبوع على عهد السلطان جقمق (١١٦) . وفي المواعيد المقررة لها انتظر الأمراء في رحبة قرب باب القصر (١١٧) ، بحيث لا يسمح لأحدهم بدخول القصر السلطاني الا بمملوك واحد فقط (١١٨) . فاذا دخل الأمراء على السلطان ، فانهم يبدأون بتقبيل الأرض ، اظهارا للولاء والخضوع ، بحيث اذا أراد أحدهم غير ذلك امتنع عن تقبيل الأرض للسلطان (١١٩) . وهذه العادة الخاصة بتقبيل الأرض أدخلها المعز أول الخلفاء الفاطميين ، ومن ثم ظلت سائدة في العصور التالية لا يعنى منها وزير أو أمير أو مملوك حتى سنة ٨٢٥ هـ عندما أبطلها السلطان برسبای ، فمنع الناس من تقبيل الأرض له واكتفى بتقبيلهم يده (١٢٠) . وقد جرت العادة عندما يتقدم الأمراء لتقبيل يد السلطان بأن يتأخر الكبير ويتقدم قبله الصغير (١٢١) . هذا فضلا عن أن أمراء المماليك حافظوا — وهم بالخدمة السلطانية — على آداب خاصة ، فيقف كل أمير في مكانه المعروف الذي يتفق مع مكانته ورتبته (١٢٢) ، ولا يجرؤ أحدهم على أن يتكلم مع غيره ويلتفت نحوه خوفا من مراقبة السلطان (١٢٣) .

-
- (١١٥) المقریزی : السلوك ج ١ ص ٧٦٢ ، وحاشية ١ بنفس الصفحة .
(١١٦) المقریزی : السلوك ج ٤ ص ٨٦١ .
(١١٧) المقریزی : الخطط ج ٣ ص ٢٢٣ .
(١١٨) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣ .
(١١٩) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ سنة ٨٢٥ هـ ، ابن حجر : النبیه الغمر ص ٣٢٧ .
(١٢٠) المقریزی : الخطط ج ٣ ص ٣٥٢ .
(١٢١) المقریزی : السلوك ج ٢ ص ١٩٣ .
(١٢٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ١٧٢ .
(١٢٣) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة .

المواكب السلطانية :

وتمثل الاستقبالات والمجالس الرسمية جزءا كبيرا هاما من الحياة السلطانية ، مما جرى المصطلح على تسميته المواكب ، وهي كثيرة ومتعددة^(١٢٤) . على أننا نستطيع تقسيم هذه المواكب السلطانية الى قسمين : قسم داخل أسوار القلعة والقسم الآخر جرى خارجها . أما النوع الأول فأشهره موكب استقبال الرسل والسفراء الأجانب وموكب الايوان وموكب الاسطبل . فسلطان المماليك حرص عند استقبال رسول أجنبي على الظهور في أعظم مظهر ، فيرتدى أفخر الملابس ويحيط به الأمراء في أبهى الحلل^(١٢٥) . ويجلس السلطان على سرير الملك وهو منبر من الرخام بصدر الايوان على هيئة منابر الجوامع الا أنه يستند الى الحائط^(١٢٦) ، ومغطى بالمخمل الأخضر^(١٢٧) . وقبل أن يتشرف السفير بالمثل بين يدي السلطان ينبهه رجال الحاشية الى قواعد البرتوكول السلطاني من ضرورة تقبيل الأرض وعدم البصق في حضرة السلطان^(١٢٨) .

وقد وفد الى مصر سنة ١٤٢٢ م برانكاشي Brancacci مبعوث فلورنسا لعمل اتفاق تجارى مع السلطان برسباي ، فوصف المراحل العديدة التي مر بها حتى توصل الى رؤية السلطان . ذلك أنه بدأ بمقابلة الدواذار وقدم له خطاب اعتماده ، فقابله الدواذار بترحاب . وبعد ذلك قابل كاتب السر ليتحقق من شخصه ، فقابله بنفس الاسلوب . وأخيرا حدد له يوم لمقابلة السلطان ، فبكر برانكاشي بالذهاب الى القلعة في ذلك اليوم . وهناك أخذ يمر بين صفوف

(١٢٤) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٨٧ .

Schefer : Voyage du Magnifique et tres illustre (١٢٥)

Chevalier Domenico Trevisan : p. 184.

(١٢٦) التلقشندى : صبح الأمتى ج ١ ص ٦ — ٧ .

Schefer : Voyage du Magnifique; p. 184. (١٢٧)

Idem, p. 185, Tafur : Travels; p. 75. (١٢٨)

لا تنتهي من الممالك والأمراء ، حتى وصل أخيرا الى القاعة الفسيحة التي يجلس فيها السلطان . وكان السلطان متربعا في صدر القاعة ، يحيط به عدد كبير من الأمراء المدججين بالسلاح ، وفي أركان القاعة بعض المنشدين والموسيقيين يعزفون في هدوء على مختلف الآلات الموسيقية من رباب وعود وغيرها . وظل بزناكاشي يسير في تلك القاعة متجها نحو السلطان حتى أصبح على مقربة خمس وعشرين ذراعا منه ، وعندئذ أمر بالوقوف وكفت الموسيقى عن العزف ، فقبل الرسول الأرض وقدم مطالبه الى السلطان (١٣٦) . ولم يكن من الصعب على مثل هذا السفير أن يتفاهم مع السلطان وحاشيته ، إذ روى ماندفيل Mandville الذي مر بمصر سنة ١٣٣٦ م أنه وجد بين حاشية السلطان أربعة يتكلمون الفرنسية بطلاقة ، وأن السلطان نفسه (الناصر محمد) يتفهما في سهولة (١٣٠) .

ومن مواكب داخل القلعة جلوس السلطان بالايوان الكبير المسمى دار العدل للنظر في المظالم ، وهي القضايا التي لم يرض أصحابها بأحكام القضاة فيها فرفعوها الى السلطان من باب الاستئناف ، أو القضايا التي اختص السلطان بالنظر فيها مباشرة . وقد خصص كثير من سلاطين الممالك يوما أو يومين في الاسبوع لهذا الغرض ، فيجلس السلطان في الايوان الكبير على كرسى من الخشب المغشى بالحريير (١٣١) ، وعن يمينه قاضيان من القضاة الاربعة هما الشافعي والمالكي ، وعن يساره قاضيان هما الحنفي والحنبلي . ويلى القاضى المالكي من الجانب الأيمن قضاة العسكر الثلاثة الشافعي والحنفي فالمالكي ، ويليهم مفتو دار العدل ثم وكيل بيت المال ثم الناظر في المحسبة . ومن الجانب الأيسر يجلس بعد القاضى الحنبلي الوزير وكاتب السر .

Dopp : Le Caire Vu... Tome 24, p. p. 124 — 127. (١٢٦)

Schefer : Le Voyage d'Outremer; p. VII. (١٣٠)

(١٣١) الغلثسندى : صبيح الامشى ج ٣ ص ٢٧٢ ، ج ٤ ص ٤٤ .

وهكذا حتى تستدير الحلقة فيصير الجالس بها مستديرا باب الايوان . ويقف وراء السلطان مماليك صغار عن يمينه ويساره من السلاحدارية والجمدارية ، في حين يجلس على بعد خمس عشرة ذراعا تقريبا ذؤو السن من أكبر امراء المئين ، وهم أمراء المشورة . أما أرباب الوظائف وباقي الأمراء فيظلون وقوفا . وخلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان بقف الحجاب والدوادارية لعرض أوراق القضايا المطلوب النظر فيها . ثم تقرأ على السلطان القصص ، فما احتاج منها الى مراجعة القضاة شاورهم السلطان فيها « ورجع الى ما يقولون » (١٣٣) . وما تعلق منها بالعسكر تحدث السلطان فيها مع الحاجب وناظر الجيش ، ويأمر في الباقي بما يراه (١٣٣) . ومع مرور الزمن اقتصر جلوس السلاطين بالايوان على مدة قصيرة بصفة شكلية ، لا لشيء سوى اقامة رسوم الملكة (١٣٤) ، لا سيما بعد أن نودى بأن أحدا لا يتقدم بشكايته الى السلطان الا بعد أن يرفع أمره الى الحكام أولا ، فاذا لم ينصفوه ذهب الى السلطان ، ومن خالف ذلك وقعت عليه عقوبة (١٣٥) .

ومن المواكب السلطانية بالقلعة كذلك موكب الاسطبل مرتين في الاسبوع ، والغرض منه النظر في شئون الأمراء والمماليك والاقطاعات . وفي هذا الموكب يجلس السلطان في صدر المكان وحوله الأمراء مقدمو الألوف يمينا ويسارا على مقاعد من حريير ، ولا يحضر القضاة هذا المجلس . وبعد أن يقرأ ناظر الجيش ما يتعلق بالاقطاعات يمضى السلطان منها ما يشاء . ثم يدخل كاتب السر ويقدم العلامة فيعلم

(١٣٢) ابن قاضي شهبة : الاملام بتاريخ أهل الاسلام ج ١ ص ١٢ .

(١٣٣) القلقشندي : صبح الامشى ج ٤ ص ٤٤ — ٤٥ ، المقرزي :

الخط ج ٣ ص ٣٣٩ ، السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٠٩ — ١١٠ ، اللطاف الخفية ص ٥٤ .

(١٣٤) المقرزي : الخط ج ٣ ص ٣٣٦ .

(١٣٥) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٢٩ ، تاريخ ابن الفرات

ج ١ ص ١٧ .

السلطان ما أمضاه . وأخيرا يدخل الجيش طائفة بعد طائفة لتقديم واجب الولاء واطهار الطاعة للسلطان ، ثم يمد سماط كبير عند انتهاء هذا الموكب (١٣٧) .

أما الموكب السلطانية خارج القلعة فمنها السرحات للصيد أو اللعب ، أو موكب العيدين الفطر والأضحى ، أو موكب كسر الخليج (١٣٧) . واعتاد سلاطين المماليك أن يخرجوا في هذه الموكب بشعائر السلطنة . على أن هذه الموكب لم تكن كلها واحدة في تزيينها ومظاهرها ، بل تفاوتت في المظهر حسب أهمية كل منها ووفق ما جرت به العادة فيه . فإذا خرج السلطان الى صلاة أحد العيدين مثلا ، يكون الموكب في أجمل صورة فيخرج السلطان وعلى رأسه العصائب السلطانية ، وهي رايات صفر عليها ألقاب السلطان واسمه مطرز بالذهب . وترفع على رأس السلطان المظلة ، ويعبر عنها بالجتتر . وهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب ، وفي أعلاها طائر من فضة مطلى بالذهب ويحملها بعض أمراء المثمن الأكبر (١٣١) . وأمام السلطان أحد الركبدارية رافعا العاشية على يديه يلفتها يمينها وشمالا حتى يخالها الناظر مصنوعة كلها من الذهب (١٤٠) . ويركب الجفتاوات أمام السلطان ، وهما اثنان من أوشاقية الاصطبل السلطاني قريبان في السن عليهما قباءان أصفران من حرير ، وعلى رأسيهما قبعتان من زركش ويركبان فرسين أشهبين (١٤١) . وعن يمين السلطان يمشى الجمقدار يحمل دبوسا له رأس ضخم ويكون نظره متجها الى

(١٣٦) خليل بن شهابين : زبدة كشف الممالك ص ٨٦ - ٨٧ .

(١٣٧) المصدر السابق والصفحة نفسها .

(١٣٨) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٠ ، القلقشندي :

صبح الأعشى ج ٤ ص ٨ .

(١٣٩) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ - ٨ .

(١٤٠) نفس المصدر والجزء ص ٨ .

(١٤١) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٥٦ ، القلقشندي : صبح

الأعشى ج ٤ ص ٨ .

السلطان من أول خروج الموكب حتى نهايته (١٤٢) . وعلى هذه الصورة يسير الموكب السلطاني متهاديا بين زغردة النساء ودعاء الرجال (١٤٣) .

الأسفار السلطانية :

أما الأسفار السلطانية فاختلقت مراسيمها ومظاهرها باختلاف طبيعة السفر والغرض منه ، فإذا سافر السلطان الى جهة خارج الأراضي المصرية ، فإنه في هذه الحالة يكتب تذكرة لنواب السلطنة فيما يتعلق بأحوال الديار المصرية ومصالحها ويوصيهم بإقامة الشرع والانصاف بين الرعية وتشديد الحراسة على السجون والأسرى (١٤٤) . وربما عين السلطان نائبا للسلطنة من الأمراء أو من أحد أبنائه ، ليحل محله مدة غيابه . واعتاد سلاطين المماليك أن يصطحبوا معهم في أسفارهم جميع ما يحتاجون اليه من خيام من القطن والجوخ الملون لتحل محل القصور في الاقامة (١٤٥) . وكانت هذه الخيام على أنواع عدة ، منها ما يناسب النزهة ، ومنها ما خصص للحروب ، وغير ذلك (١٤٦) . وأشرف ناظر الخاص على حاجات السلطان في رحلته من قدور الطعام ومباقل ورياض من خشب لزرع ما تدعو الحاجة اليه ، فتهيء من البقول والكراث والكسبرة والنعناع والريحان وأنواع المشمومات الشئ الكثير ، ويتعهدا الخولة بالسقاية طوال الرحلة . هذا عدا الأفران (١٤٧) ، والحمامات الخشبية التي تنقل على ظهور الدواب (١٤٨) .

(١٤٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٦٦ حاشية ٣ .

(١٤٣) التويرى : الايام بالاعلام ج ٢ ص ٣٤٢ .

(١٤٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٩١ - ٩٢ .

(١٤٥) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٩ .

(١٤٦) النويرى : نهاية الأرب ج ٨ ص ٥٨ .

(١٤٧) أبو المحاسن : الجوم الزاهرة ج ٩ ص ٥٨ .

(١٤٨) النويرى : نهاية الأرب ج ٨ ص ٢٢٦ .

فاذا جن الليل في الطريق قضى السلطان ليلته في مخيمه ، وتضرب
خيام الأمراء حوله وطائما ، ثم تحيط بهم المماليك دائرة بعد أخرى ،
ويطوف بالجميع الحرس^(١٤٩) . وتدور الزفة حول مخيم السلطان في
كل ليلة مرتين الأولى عندما يأوى السلطان الى فراشه ، والثانية عند
استيقاظه من النوم . وكل زفة يدور بها أمير جاندار وحوله الفوانيس
والمشاعل والطبول .

الفصل الثالث

الحياة العامة في القاهرة والمدن

صورة القاهرة في عصر المماليك :

فاقت القاهرة في عصر سلاطين المماليك مثيلاتها من المدن في أوروبا والعالم الاسلامي من حيث السعة وكثرة السكان . وقد أظنبت الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر في ذلك العصر — سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين — في وصف أحوال البلاد ومدنها والحياة فيها ، وخصوا القاهرة بشطر كبير من ملاحظاتهم وأوصافهم . فابن بطوطة قال عن القاهرة في القرن الثامن الهجري « هي أم البلاد المنتهية في كثرة العمارة ، المتباهية في الحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط الضعيف والقادر ، بها ما شئت من عالم وجاهل وجاد وهازل ، تموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها »^(١) . وقال الرحالة اليهودي الثرى مشولام بن مناحم Meshullam Ben Manahem الذي زار مصر سنة ١٤٨١ م أنه لا يكفيه مجلد لوصف القاهرة ، وأن عدد سكانها يبلغ نصف مجموع سكان روما وميلان وبادوا وفلورنسا وأربع مدن أخرى من أعظم المدن الأوروبية^(٢) . كذلك ذكر جيهان نتود Thenaud الذي زار مصر سنة ١٥١٢ أن القاهرة تبلغ ثلاثة أمثال باريس^(٣) . أما برنارد دي بريديناخ فقال أنه لا يعتقد في وجود مدينة أخرى في العالم كله تضاهي القاهرة في كثرة سكانها واتساعها وعظمتها وثروتها ، وأن جميع سكان إيطاليا

(١) رحلة ابن بطوطة : ج ١ ص ٦٧ .

(٢) Dopp : Le Caire Vu; Tono 24, p. 112

(٣) Carré : Voyageurs et Ecrivains Français en Egypte, p. 4.

لا يظاهرون في الكثرة القاهرة وحدها^(٤) . وهنا نلاحظ أن هذه الأوصاف لم تقتصر على القاهرة فحسب ، بل امتدت حتى شملت غيرها من المدن المصرية المعروفة . فابن بطوطة أشاد أيضا بعظمة الاسكندرية ودمياط ، كما اهتم سانوتو — الذى زار مصر فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى — بوصف رشيد وعظمتها^(٥) .

وامتازت القاهرة فى ذلك العصر بكثرة منازلها وضيق دروبها وطرقاتها ، وعدم استقامتها ، واكتظاظها بالمارة والسوقة والدواب^(٦) . فبناء المنازل وغيرها من المنشآت وتخطيط الشوارع والطرق لم يخضع لنظام أو قانون ، بل كثيرا ما شيد الناس منازلهم دون مراعاة مقتضيات الطريق العام . ومع ضيق هذه الطرق ، لم ينقطع منها الضجيج لاكتظاظها بالناس^(٧) ، فانتشر فيها الباعة الجائلون ، لا سيما أصحاب الطبليات والدكك المستديمة « حتى ضيقوا الطريق على المارة^(٨) هذا فضلا عن أصحاب الحرف الصغيرة والحلاقين الذين يطوفون الشوارع ومراياهم معلقة فى رقابهم يصيحون بصوت مرتفع ليسمعهم أنراغبون فى قص الشعر والزينة^(٩) . يضاف الى كل ذلك كثرة الدواب ، فالخيول المطهمة يركبها المالك ويركضون بها وسط الدروب والأسواق المزدحمة وهم يضربون الناس يمنا ويسرة ليفسحوا لهم ، غير مباليين اذا سقط بعض المارة تحت حوافز خيولهم^(١٠) . والجمال العديدة تحمل القرب ويطوف بها السقاؤون على المنازل والأسواق لامدادها بما تحتاج اليه من الماء . وقدر البلوى الغربى هذه الجمال فى

Clorget : Le Cairo; Tome 1; p. p. 152 — 153. (٤)

Schefer : Le Voyage d'Outremer, p. 29. (٥)

(٦) القرىزى : الخطط ج ٣ ص ٤٦ ، ج ٢ ص ١٨٧ .

Larrivaz : op. cit; p. 37. (٧)

(٨) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٨٠ .

Tafur : Travels, p. 101. (٩)

Schefer : Le Voyage d'Outremer, p. XXXIII. (١٠)

القاهرة في القرن الثامن الهجري بمائتي ألف جمل^(١١) ، كما قارب عدد السقائين خمسة آلاف سقاء سجلوا أنفسهم عند المحتسب وقاموا بدفع ضريبة معينة الحكومة مقابل ما يأخذونه من ماء النيل^(١٢) . أما الحمير فبلغت عددا كبيرا لأنها قامت بدور سيارات الأجرة في عصرنا ، فعنى أصحابها برشمها وتطعيمها^(١٣) ، حتى يستأجرها الناس في قضاء حاجاتهم وسفرياتهم نظرا لسرعتها ووداعتها^(١٤) . وهكذا قدر ابن بطوطة عدد المكاريين في القاهرة بثلاثين ألف مكاري^(١٥) . وقد أدى ضيق الطرقات وكثرة من فيها من مارة ودواب الى أن شدد المحتسب على أصحاب الدواب بأن « يشدوا في أمتاق دوابهم الأجراس وصفاقات الحديد والنحاس ليعلو جلبة الدابة اذا عبرت في السوق ، فينحذر منها الضريز والإنسان الغافل والصبيان وكذلك يفعل المكارية والتراسين وجمالين الحطب ومزابل الطين وغيرهم »^(١٦) .

وزار مصر سنة ١٤٦٥ م التاجر الروسي باسيل Basile . فقال ان بالقاهرة أربعة آلاف شارع ودرب ، كل منهما له بابان وحارسان . وفي بعض هذه الشوارع ما يقرب من خمسة عشر ألف مسكن ، ولكل شارع سوق كبير لسد مطالب سكانه اليومية^(١٧) . وفي الليل تضاء هذه الشوارع بالمصابيح وتخلق أبوابها ، وتشد الحراسة عليها ، فيرتب لها جماعة من الطواف لكشف الأزقة وغلق الدروب وتفقد أصحاب الأرباع وتأديب المخالف ، ومن سار في الليل لخير سبب مقبول قبض عليه . كذلك خصص بعض الأمراء والأجناد للطواف ليلا^(١٨) .

(١١) رحلة البلوى المغربى ص ٥٥ .

Dopp : Le Cairo Vu, Tome 23- p. 144. (١٢)

Idem; p. 114. (١٣)

Tafur : Travels, p. 101. (١٤)

(١٥) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٧ .

(١٦) ابن الأخوة : معالم القرية ص ٢٤٠ — ٢٤١ .

Dopp : Le Cairo Vu, Tome 26, p. 107. (١٧)

(١٨) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ١٩ .

أما سلاطين المماليك فاعتنوا بالقاهرة ، وعملوا على تجميلها بكس الشوارع ورشها بالمياه منعا لاثارة الأتربة^(١٩) . وذكر المقرئى أن الباعة كلفوا فى ذلك العصر بكس الشوارع ورشها^(٢٠) . وأمر أرباب الحوانيت بأن تكون عند أبواب حوانيتهم أزيار مملوءة بالماء لتسهيل اطفاء ما يقع من الحريق^(٢١) . واختص المشاعلية بأسرمة البيوت والحمامات وخزاناتها ، فقاموا على كسحها وتنظيفها بين حين وآخر مقابل أجر معين^(٢٢) . كذلك أمر بعض السلاطين — مثل بيبرس وبرقوق — باخراج البرصاء والمجذومين من القاهرة ، وأندروا من يظل منهم داخل أسوارها بالقتل^(٢٣) . هذا فضلا عن عنايتهم بتطهير العاصمة من الكلاب لأنها من الحيوانات المكروهة لنجاستها ، فأمروا بامسакها ونفيها الى الجيزة ، وقرر على كل أمير أو تاجر عدد معين من الكلاب يجب أن يمسكها ويسلمها للوالى . وهكذا لجأ العوام الى اقتناء أثر الكلاب ليبيعها للتجار حتى بيع الكلب سنة ٧٨١ هـ بدرهم^(٢٤) .

Larrivaz : op. cit. 57.

(١٩)

(٢٠) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٦٦٧ .

(٢١) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ١٧٤ .

(٢٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٤٨ .

(٢٣) تاريخ ابن الغرات سنة ٧٩٤ هـ ص ٣١٠ (مطبوع) ج ١١

سنة ٦٦٤ هـ ص ١١١ (مخطوط) ، العيى : عقد جهان سنة ٦٦٤ هـ .

(٢٤) ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ١٢٥ ، المقرئى : السلوك

ج ٣ ص ٣٥٣ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٣١٧ .

ويبدو ان القطط تمتعت فى ذلك العصر بقسط من الرعاية والعطف يعدل ما عانتة الكلاب من كره واضطهاد . وحكى لين انه سمع من أهل القاهرة أن السلطان الظاهر بيبرس أنشأ بجوار جلمعه حديقة أطلق عليها « غيط القطه » لاطعام القطط الشاردة فيها . فلما اندثرت معالم هذه الحديقة ، لصبح القاضى زمن لين — أى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى — هو الذى يقوم باطعام القطط كل يوم أمام دار القضاء بالقاهرة .

(Lane : Manners- p. 287)

الأسواق :

وزخرت القاهرة بالأسواق التي حوت مختلف أصناف البضائع (٢٥) .
وتشابهت هذه الأسواق في كافة المدن المصرية من حيث نظامها ،
كما يتضح ذلك من المقارنة بين وصف المقریزی للأسواق القاهرة ،
والوصف الذي ورد في قصص ألف ليلة للأسواق الاسكندرية (٢٦) ،
والوصف الذي ذكره بعض الرحالة الغربيين لأسواق رشيد (٢٧) . ذلك
أن كل سوق انفرد بنوع معين من البضائع ، فسوق الشماعين اختص
ببيع الشمع ، وسوق الدجاجين ببيع الدجاج والطيور الداجنة ،
وسوق السلاح ببيع القسي والنشاب وهكذا (٢٨) . ومن محاسن
هذا النظام أن التاجر لم يستطع أن يثد عن جيرانه أو أن يرفع
أسعار السلعة التي يتجر فيها ، لأن منافسيه على مقربة منه ، كما أن
المشترى إذا لم يعجبه نوع السلعة أو ثمنها فإنه يستطيع أن ينتقل
بكل سهولة الى تاجر ثان وثالث دون أن يتحمل أدنى مشقة ، أما
عيوب هذا النظام فأهمها أن الفرد إذا أراد شراء عدة أصناف
متباينة من البضائع ، فعليه أن يقطع المدينة كلها طولا وعرضا عدة
مرات حتى يقضى حاجاته ، لأنه لن يجد في السوق الواحد سوى نوع
واحد من البضائع (٢٩) .

وامتازت حوانيت الأسواق بصغر حجمها ، حتى أن متوسط
مساحة الواحد منها بلغ خمسة أقدام مربعة يكس فيها التاجر كل
بضائعه ، ويحتفظ في مقدمة الحانوت بمكان يشبه المصطبة يجلس
عليه التاجر ومن يتردد عليه من العملاء والأصدقاء للمساومة أو

Tafur : Travels, p. 100 & Schefer : op, cit; p. 48. (٢٥)

٢٦) ألف ليلة وليلة : قصة مريم الزنارية ص ٩٠ .

Laurent d'Arivieux : op, cit; p. 216. (٢٧)

٢٨) المقریزی : الخطط ج ٣ ص ١٥٣ وما بعدها .

Lane — Poole : Social Life in Egypt, p. 4. (٢٩)

للحديث^(٣٠) . ذلك أن الحوانيت في ذلك العصر لم تتخذ محلا للبيع والشراء فحسب ، بل تردد فيها على التاجر معارفه وأصدقائه لينتقلوا مختلف الحكايات والنوادر . ومن المؤلف في مصادر ذلك العصر أن نقرأ عبارة « وحدث أنني كنت جالسا ببعض الحوانيت . . . »^(٣١) أو عبارة « وحكى ذلك لأصحابه في مكانه »^(٣٢) أو عبارة « وكان يوما عنده في حانوته فحكي له . . . »^(٣٣) ، مما يجعلنا نقدر أهمية الحوانيت في ذلك العصر بوصفها مراكز اخبارية واجتماعية . وفرضت حكومة المماليك على حوانيت التجار رقابة شديدة ، فدأب المحتسب على أن « لا يمكن ذوى البيوع أن يغبنوا ضعفاء الرعايا وأغبياءهم ، ولا يفسح لهم أن يرفعوا على الحق أسعارهم ويبخسوا الناس أشياءهم . . . »^(٣٤) .

أما الأسواق الخاصة بالمأكّل والمشارب في عصر المماليك فلا يمكن احصاء ما فيها من أنواع الأطعمة ، فضلا عن بها من الأشخاص^(٣٥) . وساعد على ذلك أن الناس في تلك العصور اعتادوا عدم طهي الطعام في منازلهم ، وإنما يشترون ما يلزمهم مطهوا من الباعة . وفي ذلك يقول المقرئى إن أهل مصر كانوا « يتناولون أغذية كل يوم من الأسواق بكرة وعشيا »^(٣٦) . وقد قدر برنارد دى بريدنباخ عدد المطاعم والمطابخ في القاهرة بما يزيد عن اثني عشر ألف مطعم ، هذا عدا باعة الطعام الذين يقطعون الشوارع جيئة وذهابا ومعهم الطعام

(٣٠) Idem : p. p. 5 — 6.

(٣١) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٧٤ .

(٣٢) سيرة الظاهر بيبرس .

(٣٣) السخاوى : الضوء اللامع ج ١ ص ١٧٦ ترجمة ابراهيم بن

دوسى بن بلال .

(٣٤) التلقيندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ٢١٠ — ٢١٢ .

(٣٥) المقرئى : الخطط : ج ٣ ص ١٥٣ .

(٣٦) المقرئى : كتاب المواعظ ، ج ١ ص ٥٠ (بولاق) .

المطهى وتحتته المواقد مشتعلة لبيعه ساخنا للشترين^(٣٧) . ووضع هؤلاء الباعة تحت رقابة شديدة من جانب الدولة حرصا على صحة الأهالى ، فكان المحتسب - الذى روعى فيه أن « يكون ذا رأى وصرامة وخشونة فى الدين »^(٣٨) - يفحص الأذعمة والمشروبات التى تباع بالطرقات للتأكد من جودتها وسلامتها ، فإذا وجد بعضها فاسدا أخذ البائع بالشدة^(٣٩) . كذلك أمر المحتسب باعة الطعام « بتغطية اوانيهم وحفظها من الذباب وهوام الأرض بعد غسلها بالماء الحار . . ويأمرهم بكثرة الأباذير وقلة الأماق ونضاجة اللحوم والتعاطى وغسل الأوعية التى يأكل فيها الناس بالماء النظيف »^(٤٠) .

عدم الاستقرار الاقتصادى :

ولم تكن القاهرة وأسواقها على حال ثابت من الهدوء والسكينة فى العصر المماليكى ، بل كثيرا ما تأثرت المدينة بعوامل اقتصادية وسياسية أدت الى زعزعة الحالة فى الأسواق وإثارة القلق فى النفوس ، مما يترتب عليه تعطيل الحركة وإغلاق الحوانيت بين حين وآخر . وقد عدد المقرئى العوامل الرئيسية التى أدت الى القلق الاقتصادى فى عصره ، فكان أولها زيف النقود المتداولة بين الناس . ذلك أن بعض السلاطين أنكروا من ضرب الفلوس ، واختلفوا فى تقديرها بالوزن ، فحينما يكون الرطل منها بستة دراهم ، وأحيانا باثنى عشر درهما أو بدرهمين ونصف . وفى جميع هذه الأحوال أرغم التجار والأهالى على التعامل بها وفق القيمة التى تحددها الحكومة ، مما يضطر كثيرين الى إغلاق حوانيتهم خوفا من بخس بضائعهم . ويصحب هذه

Tafur : Travels , p. 74 & Larrivaz : op. cit; p. 50. (٣٧)

(٣٨) ابن الاخوة : معالم القرية فى أحكام الحسبة ص ٨ .

(٣٩) السبكى : معيد النعم ص ٩٢ .

(٤٠) ابن الاخوة : معالم القرية ص ١٠٨ .

الحالة ارتفاع الأسعار وقلة الخبز . . (٤١) فيتراحم العامة على الحوانيت
« جريا على عادتهم في مثل ذلك » (٤٣) .

ومن عوامل القلق الاقتصادي كذلك كثرة المنازعات والفتن بين
أمراء الممالك وأحزابهم . فكثيرا ما قام الممالك بثورات « فيوالوا
الاجتماعات الليلية وتأسيس العصابات السرية للمهيجان » (٤٣) ، ثم
ينتشرون في الطرقات والأسواق لنهب الحوانيت وخطف العمائم
وانتزاع الخيول من أصحابها ، بل أحيانا يهجمون على النساء في
بيوتهن وفي الحمامات فيخطفوهن (٤٤) . وفي هذه الأحوال يغلّق التجار
حوانيتهم ويسرعون الى منازلهم ، كما تغلق الأبواب التي تفصل بين
أحياء المدينة ودروبها . وربما استمر الحال على ذلك أسبوعا يقاسى
الناس طواله أنواع الجوع والفوضى والفرع (٤٥) . وكان يكفى أن يرجف
بموت سلطان (٤٦) أو هزيمة جنوده (٤٧) حتى تضطراب أحوال القاهرة
على الوجه السابق . هذا كله بالإضافة الى العامل الطبيعي المرتبط
بانخفاض فيضان النيل في بعض السنوات ، وما كان يترتب على ذلك
من نقص الأقوات وارتفاع الأسعار وانتشار الأوبئة كما حدث سنة
٦٣٢ هـ (٤٨) .

- (٤١) المقرئى : اغائة الامة ص ٤٧ وما بعدها ، السلوك ج ٢ ص
١٧ ، ج ٣ ص ٨٢ — ٨٣ .
(٤٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٦٠ .
(٤٣) سيرة الظاهر بيبرس ج ٤٩ ص ٢٠ .
(٤٤) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ١٦٤ ، ابو المحاسن : النجوم
ج ٥ ص ٤٠١ .

Clerget : op. cit; Tome 1, p. 151 & Lane — Poole : A (٤٥)
Hist of Egypt. p. 245.

- (٤٦) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٣٥ .
(٤٧) ابو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٤٠١ .
(٤٨) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٠٧ — ٥٠٨ .

المنشآت الاجتماعية :

امتازت القاهرة — وغيرها من المدن ذات الأهمية التجارية في عصر المماليك — بكثرة المنشآت الاجتماعية المتنوعة • وكان من هذه المنشآت ما هو خاص بالمسافرين والتجار مثل الفنادق والخانات والوكالات ، ومنها ما هو عام لجميع أهل المدينة مثل الأسبلة والحمامات والبيمارستانات وغيرها •

وقد لاحظ ابن بطوطة كثرة المنشآت الخاصة بالمسافرين — مثل الفنادق والخانات والوكالات — في مختلف البلاد المصرية التي زارها • وذكر أن من ملحقات هذه المنشآت سبيلا للماء وحانوتا يشتري منه المسافر ما يحتاج إليه^(٤٩) • أما الفنادق فأوت التجار وغير التجار من الأوربيين ، وإن كان بعضها خصص لجنس معين من الأجانب الوافدين من بلد واحد^(٥٠) • وكما كانت هناك فنادق للجنوبيين والبنادقة وغيرهم من أهالي البلاد الغربية ، وجدت كذلك في المدن المصرية ذات الأهمية التجارية وكالات أو خانات لاستقبال التجار الأتراك واليمنيين والهنود والقرس والمغاربة وغيرهم^(٥١) • وقد وصف بعض الرحالة وكالات رشيد في العصر المماليكي بأنها متسعة الردهات ممتازة بالنظافة وحسن النظام^(٥٢) •

أما المنشآت الاجتماعية غير الخاصة بالمسافرين والتجار فأولها الأسبلة • وكان الغرض من السبيل تيسير الحصول على ماء الشرب ، لذلك اهتم سلاطين المماليك بإنشاء أسبلة للناس في مختلف المواضع^(٥٣) ، وإن كانت العادة قد جرت بأن يلحق السبيل غالبا بأحد

(٤٩) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١١٠ •

(٥٠) انظر ما سبق ذكره عن الفنادق في الفصل الأول •

(٥١) Schefer : Le Voyage d'Outremer, p. 48. (٥١)

(٥٢) Laurent d'Arivieux : op. cit, p. 216. (٥٢)

(٥٣) السبيوطي : تاريخ الأشرف قايتباي ص ٧ ب •

المساجد • وقد قام بتسييل الماء في السبيل الزملائي الذي يؤدي عمله في الأوقات المحددة في الأيام العادية وفي شهر رمضان • وكانت بعض الأسبلة لا تفتح الا بين صلاة الظهر والعصر في وقت الحر الشديد • وتمتعت هذه الأسبلة بأوقاف للانفاق عليها منها ، وكثيرا ما اشترط الواقفون في الزملائي شروطا جسمية وخلقية خاصة ، كان يحون سالما من العاهات والأمراض - وبخاصة الجذام - « وأن يسهل الشرب على الناس ويعاملهم بالحنى والرفق ليكون أبلغ في إدخال الراحة على الواردين صدقة دائمة وحسنة مستمرة » (٥٤) • واستخدمت في الأسبلة آلات متنوعة منها سلب من الليف أو انكتان وأدلية جلد وبكر وآنية شرب وسفنج لمسح أرض السبيل ، وبخور لتبخير الأواني ، ومكافس وطشوت وأسطال نحاس ، ومواجير وكيزان وأباريق وتلك نخار وغيرها (٥٥) • وبالإضافة الى الأسبلة التي يشرب الناس منها مجانا ، وجد أناس محترفون يتكسبون من وراء سقاية المارة بالأسواق ، وهؤلاء هم سقائو الكيزان وأرباب الروايا والقرب والدلاء • « أما سقاة الماء في الكيزان فيؤمرون بنظافة أزيارهم وتغطيتها وافنقادها بالغسل بعد كل قليل من الوسخ المتجمع فيها ، ويعسلوا الكيزان ويجلوها بشقنها وبالأشنان في كل يوم ويخروها ، فانها تتغير من أفمام الناس ونكهتهم ... وينبغي أن يتخذ للأزيار أعطية من خوص مصلبة بجريد ، ولا يسقى أحد من كوز الزير ، ولا يدخل يده في الزير وهي زفرة ، ويجتهد في نظافة حانوته وبدنه وثيابه ... » (٥٦) •

أما الحيوانات فقد عمات لها أحواض الشرب ، كانت تقام الباقرب أسوار المدن وخارج تلك الأسوار •

(٥٤) عبد اللطيف إبراهيم على : دراسات تاريخية واثريه ، تحقيق ٦٦٨ ص ٥٠ .

(٥٥) نفس المرجع السابق والصفحة ، تحقيق ٦٦٩ •

(٥٦) ابن الأخوة : معالم القرية ص ٢٣٩ •

واعتنى سلاطين المماليك كذلك بأمر المرضى • وخير ما ينطق بهذه العناية البيمارستان المنصوري الذي شيده المنصور قلاوون سنة ٦٨٢ هـ والذي منلت شهرته المصادر • فابن بطوطة يقول عنه « يعجز الواصف عن محاسنه »^(٥٧) ، والبلوى المغربى وصفه بأنه « قصر عظيم من القصور الرائعة حسنا واتساعا لم يعهد مثله بقطر من الأقطار »^(٥٨) • وكان هذا المارستان مقسما الى أربعة أقسام كبيرة ، قسم للحميات وقسم للرمم وقسم للجراحة وقسم للنساء^(٥٩) • وخصص لكل مريض به فرش كامل « من التخوت والطرايح والمخدات واللحف والملاءات »^(٦٠) • كذلك عين له الأطباء لعلاج المرضى ، والصيدلية لتركيب الأدوية وتجهيزها والفراشين والفراشات لخدمة المرضى وغسل ثيابهم ، كما زود بمطبخ كبير لاعداد الطعام اللازم للمرضى^(٦١) • ولم يوقف هذا البيمارستان وأمهاله على طبقة معينة من الناس ، وإنما أوقفه قلاوون على « الملك والمملوك ، والكبير والصغير والحر والعبد »^(٦٢) • وعندما يبرأ المريض ويصرح له بالخروج يعطى احسانا كما ينعم عليه بكسوة^(٦٣) • كذلك لم تقتصر فائدة هذا البيمارستان على النازلين به من المرضى ، وإنما رتب أيضا للذين يؤثرون البقاء في منازلهم كل ما يحتاجون اليه من الأدوية والأشربة والأغذية ، حتى زاد عدد هذا الفريق في بعض الأحيان على المائتين^(٦٤) • يضاف الى ذلك المرضى الذين يحضرون

-
- (٥٧) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٧٠ - ٧١ •
• (٥٨) رحلة البلوى المغربى ص ٥٦ •
• (٥٩) خطط المقرئى ج ٤ ص ٢٦٠ •
• (٦٠) النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ ص ١٠٧ •
• (٦١) رحلة البلوى المغربى ص ٥٦ ب ، خطط المقرئى ج ٤ ص ٢٥٩ ، نهاية الأرب ج ٣١ ص ١٠٧ تحقيق الباز العرينى •
• (٦٢) تاريخ ابن الفرات ج ١٥ ص ٨ •
• (٦٣) رحلة البلوى المغربى ص ٥٦ ب •
• (٦٤) النويرى : نهاية الأرب ج ٣١ ص ١٠٨ (تحقيق العرينى) •

الى المستشفى للكشف عليهم واعطائهم ما يلزمهم من دواء ، ثم ينصرفون بعد ذلك — وهو ما نسميه في مستشفياتنا الحديثة قسم العيادة الخارجية • وهكذا قدر عدد الداخلين الى البيمارستان المنصوري والخارجين منه في اليوم الواحد بعدة آلاف (٦٥) •

وقد أدت عناية سلاطين المماليك بالشئون الصحية وأمر المرضى الى اهتمامهم بمهنة الطب بوجه عام ، فألحقوا بالبيمارستان دراسة الطب فيجلس به « رئيس الأطباء لالقاء درس طب ينتفع به الطلبة » (٦٦) • أما رئيس الأطباء — أو مقدمهم — فجرت العادة في عصر المماليك أن يعين بتوقيع من الساطن ، ثم يصبح هذا المقدم هو المتصرف في اعطاء تصريحات مزاولة مهنة الطب للأفراد أو حرمانهم منها (٦٧) • وقد نصت كتب الحسبة المعاصرة على أن يقوم مقدم الاطباء بامتحانهم : « فمن وجده مقصرا في عمله أمره بالاشتغال وقراءة العلم ونهاه عن المداواة » (٦٨) • وتدلل كثير من الشواهد على مهارة الأطباء في ذلك العصر (٦٩) ، كما يظهر لنا القمص الشعبي المعاصر مدى دلالة الاطباء على الناس ، فاذا احتاج فرد الى طبيب بالليل لا يلبي نداءه « الا اذا أتى بالأموال والخيل المنرجة والبغال » (٧٠) •

وثمة نوع من المنشآت الاجتماعية الهامة زخرت بها المدن المصرية في العصور الوسطى ، هي الحمامات العامة التي قصدها الناس من

(٦٥) وقد قدرهم البلوى المغربى بأربعة آلاف نفس (ص ٥٦ ب) •

(٦٦) خطط المقرئى ج ٤ ص ٢٦٠ ، التويرى : نهاية الأرب ج ٣١

ص ١٠٨ •

(٦٧) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ٣٧٧ — ٣٨٤ •

(٦٨) ابن الأخوة : معالم القرية ص ١٦٦ — ١٦٧ •

(٦٩) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٧٩ ترجمة على بن

عبد الواحد ، انباء الغمر ج ١ ص ٣٧٧ •

Paul Kahle : The Arabic Shadow Play in Egypt; (٧٠)

P. p. 21 — 34.

مختلف الطبقات - رجالا ونساء! - للاستحمام . ذلك أن الناس في ذلك الوقت لم يألفوا الاستحمام في منازلهم ، ولم توجد الحمامات الا في قصور الامراء . ويروى ابن الحاج - في عصر سلاطين المماليك - أن « الواحد يشترى الدار أو يبنيتها بنحو الألف ، ولا يعمل بها موضعا للوضوء أو الغسل »^(٧١) . لذلك طالب بعض الكتاب المعاصرين المحتسب بأن يأمر بفتح الحمامات العامة وقت السحر « حاجة الناس اليها للتطهر فيها قبل وقت الصلاة »^(٧٢) .

وقد عدد المقرئ حمادات القاهرة ومصر (الفسطاط) على أيامه ، فذكر أن بعضها خاص بالرجال ، وبعضها خاص بالنساء ، وبعضها يفتح للرجال قبل الظهر والنساء بعد ذلك^(٧٣) . واعتبر ابن خلدون كثرة الحمامات في المدن من مظاهر الترف والغنى ، وما يستتبعه ذلك من الرغبة في التعم^(٧٤) . أما عبد اللطيف البغدادي فوصف حمامات القاهرة بأنه لم يشاهد في كائنة البلاد « أتقن منها وصفا ولا أتم حكمة ولا أحسن منظرا »^(٧٥) . كذلك روى ابن اياس أن السلطان سليم العثماني عندما دخل حماما ببولاق سنة ٩٢٣ هـ ، أعجم على الحمامي « وأعجبته الحمام وشكرها »^(٧٦) .

ولم تتعرض المؤلفات التاريخية لوصف الحمامات العامة وتصميمها في ذلك العصر ، على أنه من الممكن أن نحصل على صورة طيبة لتلك الحمامات من الوثائق والحجج الشرعية العاصرة . من ذلك ما جاء في إحدى هذه الحجج من أن « الحمام المذكورة تشتمل على مسلخ

-
- (٧١) ابن الحاج : المخل ج ٢ ص ١٧٠ .
 - (٧٢) ابن الأخوة : معالم القرية ص ١٥٦ .
 - (٧٣) المقرئ : الخطط ج ٣ ص ١٢٩ - ١٤٠ .
 - (٧٤) مقدمة ابن خلدون ص ٤٢٢ .
 - (٧٥) عبد اللطيف البغدادي : اخبار مصر ص ١٦٦ .
 - (٧٦) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ١١٦ .

مرخم ، وبيت أول به حوضان ، وبيت حرارة به أربعة أحواض ، وجرن ، وخلوة ، ومغطس ، مفروش ذلك بالرخام ، معقود ومطبق بجامات من الزجاج الملون . وبدهليز الحمام المتوصل اليه من الباب الذي بالواجهة زلاثة موصلة للبير والساقية المعدين اذلك ، وسلم يتوصل منه للرواق به منافع وحقوق مطل على الطريق ، ودهليز يتوصل منه لباب الطريق السلوك المذكورة التي نفيها . مطل طاقات الرواق المذكور ، وبها باب يتوصل منه لمستوقد الحمام وما لـ ذلك من المنافع والمرافق والحقوق ... » (٧٧) .

وبمقارنة هذه الأوصاف للحمام في عصر المالك بما ذكره لين عن الحمامات العامة في القاهرة في القرن التاسع عشر ، يمكن القول بأن باب الحمام كان يؤدي الى مسلخ « مرخم به ثلاثة أو اوين » (٧٨) وكانت هذه الأواوين كالمصاطب مكسوة بالرخام ؛ حيث يستريح طالب الاستحمام . ومن المسلخ ينتقل المستحم الى بيت أول حيث ينزع ملابسه ، وتمتاز غرفة بيت أول هذه بادفاء ، وسميت كذلك لأنها أولى الغرف الدافئة (٧٩) . وعندما يخلع المستحم ملابسه يضع حول وسطه فوطة تصل الى الركبتين ، ثم ينتقل الى الغرفة الرئيسية المسماة بيت حرارة « به أربعة أو اوين بكل واحد منها حوض حجرا وبه أيضا خلوتان وطهر وبيت نورة » (٨٠) . وفي بيت الحرارة هذا يقوم عامل الحمام بتدليك جسد المستحم وغسله بالماء الساخن الذي يوجد بالمغطس . وبعد الاستحمام يجفف المستحم جسمه بالمناشف ، ويزيل البلان الشعر

(٧٧) وثيقة أوقف الغورى على عمائره بالحراشيين (ارشيف وزارة الاوقاف رقم ٨٨٣) ، وقد نشر هذه الوثيقة وعلق عليها وحققتها وشرح ما فيها من مسائل تاريخية وأثرية الزميل الاستاذ الدكتور عبد اللطيف ابراهيم على « دراسات تاريخية وأثرية .. » .

(٧٨) وثيقة وقف الغورى (٨٨٣ أوقاف) .

(٧٩) Lane : Manners Vol 2, p. 38.

(٨٠) وثيقة وقف الغورى (٨٨٣ أوقاف) .

من بعض المواضع - إذا لزم - ثم ينصرف المتحم إلى غرفة « بيت أول » حيث يقضى بعض الوقت فلا يغادر الحمام مباشرة معرضا نفسه للهواء البارد . أما المياه اللازمة للحمام فكانت تجلب بواسطة « ساقية خشب مركبة على فوهة بير » ، فترفعها الساقية إلى « مستودع الحمام » حيث يسخن الماء في مرجل كبير^(٨١) .

على أن أهمية الحمام في العصر المالكي لم تقتصر على أنها مكان لتنظيف البدن فحسب ، بل كانت مركزا اجتماعيا كذلك ، فالمرضى إذا دخل الحمام اعتبر ذلك إعلانا لشفاءه^(٨٢) . والعريس أو العروس يجب على كل منهما أن يدخل الحمام قبل حفل الزفاف ، فيعتبر هذا الحادث عيدا من الأعياد العائلية الرائعة . وفي الحمام اعتادت أن تجتمع النساء والصديقات فيتناقلن أخبار الناس ويقصصن على بعضهن كثيرا من أخبارهن وحياتهن المنزلية^(٨٣) . وإلى الحمام تتجه المرأة التي لا يراها الناس إلا محجبة ، فتكشف عن عورتها للبلانة (والنساء في هذا القام أشد تهاكما من الرجال !)^(٨٤) وتكون المرأة في هذه الحالة قد استصحبت معها أفخر ثيابها وأنفس حلبيها لتلبسها بعد الاستحمام ، حتى يراها غيرها « فتتعمق المفاخرة والمباهاة »^(٨٥) . لذلك لا عجب إذا أكثر أدباء عصر الماليك وشعراؤه من وصف الحبيب في الحمام^(٨٦) . ويبدو أن هذا كان سببا دفع بعض فقهاء ذلك العصر إلى النفور من الحمام . فالسيوطي يبيحه للرجال بشروط ، ويقول

(٨١) الوثيقة السابقة .

(٨٢) أبو المحاسن : حوانك الدهور ج ٢ ص ٢٢٦ - ٢٢٧ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٤٠٣ ترجمة لكرم بن هبة اله .
(٨٣) سيرة الظاهر بيبرس ج ١ ص ٦٦ .
(٨٤) ابن الأخوة : معالم القرية ص ١٥٧ .
(٨٥) ابن الدجج : المدخل ج ٣ ص ١٧٣ .
(٨٦) ابن حبيب : درة الاسلاك ج ١ ص ٢٣٠ ، ابن دانيال : طيف الخيال ص ١١٨ .

أنه مكروه للنساء إلا في حالات خاصة^(٨٧) . وابن الحاج يعيب على معاصريه من الرجال كشف عاناتهم للبلان في الحمام لازالة الشعر منها^(٨٨) ، كما ينصح معاصريه من العلماء بعدم السماح لنسائهم بدخول الحمام « لما اشتمل عليه في هذا الزمان من المفاسد والعوائد الرديئة »^(٨٩) .

وتؤدى بنا العبارة الأخيرة لابن الحاج الى الاشارة الى أن الناس قصدوا الحمام في ذلك العصر للحلاقة وازالة الشعر من الجسد ، فضلا عن الاستحمام ، وكان على المزين صاحب النوبة في الحمام أن يستعمل الأمواس الجيدة المصنوعة من الفولاذ « وأن يكون المزين خفيفا رشيقا بصيرا بالحلاقة ، وتكون الأمواس جديدة قاطعة .. ولا يأكل ما يغير نكهته كالبصل والثوم والكراث في يوم نوبته لئلا يتضرر الناس برائحة فيه عند الحلاقة .. »^(٩٠) .

السجون والعقوبات :

وعنى سلاطين المماليك بالسجون ، فاهتم السلطان الناصر محمد بتجديدها سنة ٧٣٩ هـ ، وكذلك المؤيد شيخ سنة ٨٢٠ هـ^(٩١) . وذكر المقرئى عدة سجون بالقاهرة المماليكية ، فوصف بعضها بأن أمرها مهول « من الظلام وكثرة اللواطيط والروائح الكريهة والقبائح المهولة »^(٩٢) وجعلت هذه السجون على أنواع منها ما هو خاص بسجن الأمراء والمماليك والجنود - مثل خزانة البنود ، ومنها ما هو

-
- (٨٧) السيوطى : ملقى ينبوع ورقة ٤ .
 - (٨٨) ابن الحاج : المحل ج ٣ ص ٢٣٨ .
 - (٨٩) المصدر السابق ج ٢ ص ١٧٢ .
 - (٩٠) ابن الأخوة : معالم القرية ص ١٥٦ .
 - (٩١) أبو الحسن : النجوم ج ٩ ص ٩٢ ، المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٢٢١ ، زيرشتين : تاريخ المماليك ص ١٨٠ .
 - (٩٢) المقرئى : الخط ج ٢ ص ١٨٧ وما بعدها ، بولات .

خاص بأرباب الجرائم من اللصوص وقطاع الطرق وغيرهم^(٩٣) —
مثل خزانة شمائل وحبس المعونة ، ومنها ما هو خاص بالنساء
المذنبات مثل سجن الحجر^(٩٤) . وتبعت سجون القاهرة ومصر في عهد
المماليك سلطات متنوعة بسبب تمييز القوانين الشرعية القائمة بين
الحبس — وهو تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه — ، وبين
السجن — وهو الاعتقال في مكان حرج ضيق . يضاف الى ذلك ما هنالك
من تفاوت في أنواع الجريمة والعقوبة واختصاص السلطة بنوع معين
من الجرائم^(٩٥) . ومن المكوس التي قررت في عصر المماليك أن كل
من يسجن — ولو لحظة واحدة — يجب أن يدفع رسما معيناً قدره
أبو المحاسن بمائة درهم^(٩٦) ، وقدره المقريزي « بستة دراهم سوى
كف أخرى »^(٩٧) . وظل هذا المكس سارياً حتى أبطله الناصر محمد
سنة ٧١٥ هـ .

ويبدو أن المسجونين في عصر المماليك قاسوا الكثير من الشدائد
والأهوال ، ليس فقط بسبب سوء أحوال السجون — كما يتضح من
الوصف السابق للمقريزي — بل بسبب نسيان السطات الحاكمة إياهم
حتى كانوا يقضون أحياناً ثلاثة أيام كاملة دون أن يذوقوا شيئاً ، مما
دفعهم في إحدى المرات سنة ٨٥٠ هـ الى قتل سجانهم وخروجهم من
السجن عن آخرهم^(٩٨) . أما المحكوم عليهم بالسجن المؤبد^(٩٩) ،

-
- (٩٣) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٦٨٦ — ٦٨٧ .
(٩٤) نفس المصدر والجزء ص ٤٩١ .
(٩٥) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٥١٩ حاشية ١ للاستاذ الدكتور
محمد مصطفى زيادة .
(٩٦) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٤٦ .
(٩٧) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ١٥٠ ، الخطط ج ١ ص ٨٩
(بولاق) .
(٩٨) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٤٦ ، المقريزي : السلوك
ج ٤ ص ٧٦١ .
(٩٩) العيني : عقد الجمان سنة ٨٢٧ هـ .

فكثيرا ما كانت تأخذ الشفقة السلاطين ويطلقون سراحهم بعد مدة من الزمن « نلنا أن في ذلك قرينة بالله المستعان » (١٠) . فاذا حكم على سجين بالاعدام ، حلم للمشاعلى لتنفيذ الحكم فيه بواسطة انسياف . والواقع ان عملية تنفيذ عقوبة الاعدام انطوت على كثير من العنف والقسوة في ذلك العصر . فكثيرا ما أخطأ المشاعلى عنق المحكوم عليه في أول ضربة فيضربه بالسيف ثانية وثالثة حتى يصيب عنقه . فاذا لم ينفصل الرأس عن الجسد ، لجأ المشاعلى الى حز الرقبة عدة مرات حتى ينجز مهمته (١١) . ثم يطوف المشاعلى بعد ذلك بالرأس المقطوعة في أنحاء المدينة حتى يراها كافة الناس للعتة والاعتبار (١٢) . واستخدم السلاطين أحيانا طريق التعريق لتنفيذ الاعدام ، فيؤخذ المحكوم عليه الى حيث يغرق في المياه (١٣) .

وهناك طرق أخرى كثيرة للعقاب — عدا السجن والاعدام — تفنن الحكام في تنفيذها . ومن هذه التشهير والتجريس ، وهى أن يطاف بالشخص على حمار أو ثور ويضرب الجرس على رأسه والمشاعلية تتنادى عليه ليجتمع الناس حوله . وأحيانا ترفه المعانى « ويوضع في عنقه ماشة وهون » . وفي نهاية المطاف يضرب وسط الناس بالسياط عقابا له على ذنبه (١٤) . ومن هذه العقوبات كذلك العصر بالمعصرة ، وهى

(١٠) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ٣٧٨ ، المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٦٦٧ ، ٧٦١ .

(١١) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٨٩١ ، ابن اياس : بدائع الزهور ص ٣١٢ ، العيى : عقد الجمان حوادث سنة ٨١٥ هـ .

(١٢) الذهبى : تاريخ الاسلام ج ٣٣ ص ١٥٦ .

(١٣) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٥٣٩ ، حوادث الدهور ج ٣ ص ٤٧٩ ، تاريخ ابن الفرات ص ٢٦١ .

(١٤) ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ١٩٨ ، ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ٣٦٣ ب ، ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١١٧ ، المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٣٩٣ — ٣٩٤ ، السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٥٠ .

آلة تتكون من خشبتين مربوطتين بحبل ، يوضع بينهما وجه المعاقب أو رأسه أو رجلاه أو عقباه ، ثم تشد الخشببتان^(١٠٥) . وقد استخدمت هذه الوسيلة غالبا لاجبار المذنب على الاعتراف بذنبه^(١٠٦) . أما عقوبة التسمير فتعنى دق بعض أعضاء المذنب في لوح خشب بواسطة مسامير غلاظ ، وأحيانا يوضع وهو بهذه الصورة على جمل ليشهر بالقاهرة ، فإذا حصلت له شفاة نزعوا المسامير من جسده^(١٠٧) . أما إذا لم تحدث له شفاة فينتهى أمره غالبا بأن يوسط ، ومعنى التوسط ضربه بواسطة السيف بقية قرب وسطه — أسفل السرة — فينقسم جسمه الى نصفين^(١٠٨) .

واستخدم الضرب كذلك في عقاب المذنبين ، ويكون الضرب على أى جزء من أجزاء الجسم سواء الرأس أو الجسد أو القدمين ، وتستعمل فيه المقرعة أو العصا أو الدرة أو الصغيرة الخوص^(١٠٩) . وبلغ من قسوة هذا الضرب أحيانا ما يحكى عن السلطان قايتباى أنه أمر سنة ٨٧٢ هـ بضرب أحد الأشخاص ، فضربه بعض الخدم ضرا لم يعجب السلطان ، فقام قايتباى وأخذ العصا وضربه بنفسه بحيث « أن كل ضربة صارت تدمى في الحال ، وتلوث جماعة من الحاضرين بالدم ! »^(١١٠) . ويظهر أن بعض سلاطين المماليك أحس بما في

-
- (١٠٥) المقرزى : السلوك ج ١ ص ٧٤ حاشية ٣ .
(١٠٦) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٤٥ ، أبو المحاسن :
النجوم ج ٥ ص ٥٥ .
(١٠٧) زبير شتين : تاريخ المماليك ص ٢٩ ، ابن حبيب : درة
الاسلاك ج ٢ ص ٥ .
(١٠٨) المقرزى : السلوك ج ١ ص ٤٠٤ حاشية ١ .
(١٠٩) السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٠٥ ، سيرة الظاهر بيبرس
ج ٨ ص ١٩ .
(١١٠) أبو المحاسن . حوادث الدهور ج ٣ ص ٦٢٤ ، النجوم
ج ٥ ص ٢٦٢ .

ذلك النوع من العقاب من وحشية ، فأمر الناصر محمد سنة ٧٢٦ هـ بإبطال الضرب بالمقارع من سائر مملكته ، وكتب بذلك مراسيم كثيرة قرئت على المنابر بمصر والشام ، ولكن لم يعمل بها (١١١) .

على أن الضرب مهما بلغت قسوته وشدته فإنه بلائشك أخف كثيرا من أنواع التعذيب الوحشية التي استخدمت في عصر سلاطين المماليك . ومن هذه الأنواع قلع أضراس المذنب وأسنانه ثم دقها في رأسه (١١٢) ، وغرس خازوق بالأرض لرفع المذنب على قمته (١١٣) ، وتسخين طاسة من المعدن وإلباسها للمذنب في رأسه ، أو تسخين دست وإجلاسه عليه (١١٤) . ومنها كذلك قطع بعض أجزاء من جسد المذنب كالأنف أو الأذن أو اللسان أو تكحيل عينيه بالنار (١١٥) . ونعل الشخص في قدميه كما تتعل الخيل ، أو تعليقه من يديه وربط أثقال في قدميه حتى تتخلع أعضاؤه (١١٦) .

روح المرح ووسائل التسلية :

على أن خضوع مصر الأرسقراطية حاكمة من المماليك تفننت في استغلال البلاد وأهلها ، لم يفقد المصريين روح المرح التي عرفوا بها في كل زمان ومكان . وقد وصف المقرئزي أهل مصر بأن من أخلاقهم « الانهماك في الشهوات ، والامعان في الملاذ ، وكثرة الاستهتار وعدم

(١١١) ابن دقاق : الجوهر الثمين ص ١٥١ ، أبو المحاسن : مورد اللطافة ص ٦٤ .

(١١٢) ابن أياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٧٢ ، المقرئزي : السلوك ج ٢ ص ٨٢٣ ، تاريخ الجزرى ج ٢ ص ٢٠ .

(١١٣) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٢١٥ .

(١١٤) ابن حجر : تدرج الكامنة ج ١ ص ٤٠٤ .

(١١٥) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٥٩٤ ، ٧٩٧ ، المقرئزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٦٤ ، ابن أياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٥٣ .

(١١٦) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٣٢٣ .

المبالاة» (١١٧) . وأدهشت هذه الروح العالم ابن خلدون عندما تزح الى مصر ، فوصف أهلها بأنهم : « كأنما فرغوا من الحساب !! » (١١٨) .
ومهما يكن في هذا القول من مبالغة ، فإن هذه الروح لم يضعفها حرمان الأهالي من المشاركة في حكم بلادهم أو قسوة الحكام في عقاب من يخرج عن طاعتهم من أبناء البلاد ، أو حتى الأويئة التي تعرضت اجبا مصر بين حين وآخر في عصر المماليك . من ذلك ما قيل أنه حدث أثناء الوباء الذي اجتاح البلاد سنة ٨٥٣ هـ - وهو الوباء الذي كان بحصد من أهل القاهرة في اليوم الواحد عشرة آلاف شخص - أن شوهد الناس في شوارع القاهرة وهم يضحكون ويهزلون (١١٩) ، ومبدؤهم في ذلك هو حمد الله « الذي جعل في المزاح سلوة لهم والارتواح » (١٢٠) . كذلك حكى المقرئى أنه عندما انتشر الوباء وتوقفت زيادة النيل وغلَّت الأسعار في مصر سنة ٧٠٩ هـ ، كان العامة يغنون في شوارع القاهرة « سلطاننا ركين (يقصدون ركن الدين بيبرس) ، ونائبنا دقین (يقصدون الأمير سلار) ولم يكن بلحيته سوى شعيرات قليلة) ، يجينا الماء منين ؟ جيبوا لنا الأعرج (الناصر محمد) ، يجى الماء ويدحرج » (١٢١) ! . وعندما ضاق الناس ذرعا بالأمير قرقماس الشعبانى سنة ٨٤٢ هـ ، صاروا يرددون في الأسواق « الفقر والافلاس ولاذلتك يا قرقماس » . وهكذا وجد الناس في حياة المرح نوعا من التنفيس عما كانوا يتعرضون له من شدائد وجرمان ، وظهرت هذه الروح قوية واضحة في بعض الاقواب التي خلعها عامة الناس على بعض أمراء المماليك ، مثل الامير عز الدين ايفان المعروف « بسم الموت » (١٢٢) والأمير قطلو بغا الفخرى « المعروف

(١١٧) المقرئى : كتاب المواعظ ، ج ١ ص ٥٠ (بولاق) .

(١١٨) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(١١٩) أبو المحاسن - حوادث الدهور ج ١ ص ٨٩ .

(١٢٠) جورج يعقوب : طيف الخيال ج ٢ ص ٢٥ .

(١٢١) المقرئى : انسلوك ج ٢ ص ٥٥ .

(١٢٢) المقرئى : انسلوك ج ١ ص ٥٢٣ .

(م ٨ - المجتمع المصرى)

بالفول المقشر « والأمير داشستمر البدرى » المعروف بحمص أخضر» (١٢٣) ، والأمير سيف الدين ملكتمر الناصرى « المعروف بالدم الأسود» (١٢٤) ، وناصر الدين متولى حسبة مصر « المعروف بفأر السقوف» (١٢٥) ! وتبدو هذه الروح قوية واضحة في البلايق ، وهى أنواع من النظم عرفت فى ذلك العصر ، تمتاز بخفة الروح وتتضمن كثيرا من ألوان المداعبات والنكاهة . وهذا نلاحظ أن روح المرح لم تقتصر على فئة دون أخرى من فئات المجتمع المصرى فى عصر المماليك ، بل شملت جميع الفئات وطبقات المجتمع ، حتى المحافظين من الفقهاء وأهل العلم (١٢٦) . من ذلك ما رواه ابن بطوطة من أن قوام الدين الكرمانى - وهو من كبار علماء مصر - اعتاد أن يذهب الى مواضع الفرح والنزهات منفردا عن أصحابه بعد صلاة العصر (١٢٧) . وهكذا اكتسبت مصر فى ذلك العصر شهرة واسعة فى اللهو والمرح ، حتى أن الناصر بن صاحب اليمن (١٢٨) عندما أراد العودة الى بلاده سنة ٧٥٥ هـ بعد ما قضى بمصر أربعة أشهر « أخذ معه كثيرا من الصنائع والمسافر وأرباب الملاهى» (١٢٩) . ولا عجب إذ وصف ابن بطوطة أهل مصر بأنهم « ذو طرب وسرور ولهو» (١٣٠) ، فى حين ذكر بيلوتى الكريتى أن ماء النيل من خصائصه أن يجعل الناس دائما مرحين فرحين بعيدين عن الهموم والأحزان (١٣١) .

-
- (١٢٣) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٣٤ .
 - (١٢٤) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٤١ .
 - (١٢٥) نفس المصدر والجزء ص ٦٤٤ .
 - (١٢٦) ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٥٩٣ - ٥٩٤ .
 - (١٢٧) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٩١ .
 - (١٢٨) كان صاحب اليمن فى هذه السنة هو الملك المجاهد سيف الدين على بن داود ، انظر زامباور ص ١٨٤ .
 - (١٢٩) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٣٧ .
 - (١٣٠) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٧٠ .
 - (١٣١) Dopp : L'Egypte...; p. 9.

وقد تعددت وسائل التسلية والترويح عن النفس في مصر في العصر المالكي . فمن هذه الوسائل، خروج الناس الى الحدائق والمنتزهات والبرك مثل الازبكية وبركة الحبش وبركة الرطلى وغيرها (١٣٣) . كذلك اشتهرت جزيرة الروضة بأنها غدت منذ عهد الظاهر بيبرس « فرجا ومنتزهات » (١٣٣) حتى وصفها ابن بطوطة بأنها « مكان النزهة والتفرج » (١٣٤) . والواقع إن الناس في عصر الماليك اهتموا اهتماما بالغاً باستغلال النيل والتعم بمناظره وهوائه ، فزرعوا على شواطئه الحدائق الغناء الغنية بأشجارها (١٣٥) ، ولجأ بعضهم — لا سيما أيام الفيضان صيفا — الى استئجار القوارب والسفن ، واستصحاب المغاني وجوقات العوالم معهم (١٣٦) . وتمتعت بولاق أيضا بشهرة واسعة في ميدان اللهو في ذلك العصر ، فقصدها الناس وأقاموا فيها الأخصاص (التي تقوم مقامها في أيامنا الشاليهات والكبائن) ، وزرعوا حولها الرياحين وزينوها بالرخام والدهان ، حتى بلغ ما ينفق على الخص الواحد منها بين ألفين وثلاثة آلاف درهم (١٣٧) . وهناك اعتاد أن يزدحم المنتزهون من الرجال والنساء ، ويتبعهم عدد عظيم من الباعة ، فيختلط الناس في غير كلفة أو حجاب (١٣٨) .

-
- (١٣٢) خطط المقریزی ج ٣ ص ٢٤٧ وما بعدها .
(١٣٣) ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ١١٠ ، السيوطي : بلبل الروضة ، كوكب الروضة .
(١٣٤) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٧٠ .
(١٣٥) المقریزی : الخطط ج ٣ ص ٢١٤
Larrivaz : Op. cit., p. 51 &
(١٣٦) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٤٦ ، خطط المقریزی ج ٣ ص ٢٣٣ ، ٢٤٤ .
(١٣٧) أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٠ .
(١٣٨) ابن اياس : بدائع الزهور (صفحات لم تنشر) ص ١١٥ سنة ٨٦٦ هـ .

كذلك اهتم الناس في عصر المماليك اهتماما كبيرا بأنواع الموسيقى والغناء . ومما جعل للموسيقى والغناء أهمية كبيرة في ذلك العصر ، تشجيع السلاطين واغداقهم على المعنيين والمغنيات ، ثم انتقال الأغاني الى الناس عن طريق السماع . وقد وصف أحد علماء الأزهر في ذلك العصر بأنه اشتهر بالانتقشف والبعد عن زخرف الدنيا ، ولكن مع ميل « الى سماع المغاني والرقص واللهو » (١٣٩) . كذلك حكى عن أحد الفقهاء أنه سمع بمغنية شهيرة تغنى في مكان معين ، فترك شيخه بعد الصلاة وتسلك خفية لسفاعةها ، فلما عرف شيخه سبب غيابه قال له عند عودته « أمرها عندي خفيف » (١٤٠) ! . لذلك لا عجب اذا وجدنا أدباء عصر المماليك وشعراءه يكثر من ذكر الغناء والمغنيات في شعرهم ونثرهم (١٤١) . كذلك تردت في مصادر ذلك العصر أسماء كثيرين من الخنن والمغنيات ، يصحبها اشارات تدل على عظم مكانتهم في المجتمع ، مثل عيد العزيز الحفنى المتوفى سنة ٧١٠ هـ ، وقد وصف بأنه أعجوبة زمانه في فن الغناء (١٤٢) ، وخديجة الرحابية المتوفاة سنة ٨٨٧ هـ وكانت ذات حظوة كبيرة عند أهل الدولة (١٤٣) ، وخوبى العوادة التى التى قيل عنها أنه لم يدخل مصر

(١٣٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٣٦ .

(١٤٠) الأدفوى : الطالع السعيد ص ٣٢٦ .

(١٤١) من ذلك ما نظمه أحد الأدباء وقد استأذنت عليه مغنية في الدخول :

أدخل تدخل علينا سرورا أنت والله نزهة العشاق

لا تبلى الى الخروج سريعاً تخرجى عن مكارم الاخلاق

ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٦ ترجمة صنى الدين حجازى بن أحمد .

(١٤٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٨٤ .

(١٤٣) السخاوى : الضوء اللامع ج ١٢ ص ٣٣ ترجمة خديجة

الرحابية ، ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٠٧ .

مثلها في الغناء وضرب العود^(١٤٤) ، وناصر الدين محمد المازوني « أستاذ فن النشيد »^(١٤٥) . وقد ذكر المقریزی في حوادث ربيع الأول سنة ٧٩٠ هـ أسماء « خمسة من المشهورين لم يخلفوا بعدهم مثلهم في مغناهم »^(١٤٦) .

وفرضت الدولة على الغنين والمغنيات في ذلك العصر ضريبة عرفت باسم « ضمان المغاني » ، استمرت حتى ألغها السلطان شعبان سنة ٧٧٨ هـ^(١٤٧) . أما الآلات الموسيقية التي استخدمت في عصر المالک فكثيرة ومتنوعة منها « الطبول والزمور والكمنجة والقانون والعود والرباب والطنبورة والساجات والرق الثنارات »^(١٤٨) . وقد أدى اهتمام الناس بالموسيقى في ذلك العصر أن ألف بعضهم « التصانيف المفيدة في الموسيقى »^(١٤٩) . وممن اشتهر بالبراعة في فن الموسيقى في ذلك العصر الأمير إشتنمر المارديني المتوفى سنة ٧٩١ هـ^(١٥٠) ، والفقير أحمد بن بركوت^(١٥١) ، والأديب محمد بن علي ابن عمر المازني^(١٥٢) .

ومن وسائل التسلية التي شاعت في مصر على عصر المالک بوجه

-
- (١٤٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٩٥ ترجمة خوي العوادة .
(١٤٥) ابن اياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ٥٤ .
(١٤٦) المقریزی : كتاب السلوك ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٥٧٦ (تحقيق الباحث) .
(١٤٧) العيني : عقد الجمان سنة ٧٧٨ هـ ، ابن حجر : انباء الغمر ص ٧١ .
(١٤٨) سيرة الظاهر بيبرس ج ٩ ص ٨ .
(١٤٩) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٦١ .
(١٥٠) العيني عقد الجمان سنة ٧٩١ هـ ، وكذلك أبو المحسن : النجوم الزاهرة ج ١١ سنة ٧٩١ هـ .
(١٥١) السخاوي : الضوء اللامع ج ٢ ص ٩٩ — ١٠٠ .
(١٥٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٧٨ .

خاص خيال الظل ، الذى قيل أنه انتقل من الهند الى الصين ومن الصين الى بلاد العالم الاسلامى^(١٥٣) . وتعرف تمثيلات خيال الظل باسم البابات ومفردها بابة . أما طريقة عرض هذه التمثيلات فتتلخص فى عمل عرائس وصور من الجلد أو الورق المقوى وتوضع خلف ستارة بيضاء ومن خلفها مصباح بحيث ينعكس ظلها على الستارة ليراها النظارة من الوجهة الأخرى . والعرائس بها ثقوب ومفصلات تجعلها سهلة التحركة ، ويحركها الذى يقدم البابة بعضا فى يده حسب الحوار الذى ينطق به صاحب البابة^(١٥٤) .

وإذا كان الناس فى أوائل القرن العشرين اعتبروا خيال الظل نسلية شعبية ، فإنه فى العصور الوسطى كان تسلية عامة لجميع طبقات المجتمع . فالسلطان صلاح الدين الأيوبي شغف بحضور تمثيلات خيال الظل ومعه وزيره القاضي الفاضل^(١٥٥) . كذلك عرف عن بعض سلاطين المماليك — مثل قانصوة الغورى — خروجهم الى بر الجزيرة ، ومعهم خيال الظل وجوق المغانى لتسليتهم^(١٥٦) . وبعد أن فتح السلطان سليم العثمانى مصر جلس بجزيرة الروضة حيث أحضروا له خيال الظل « فأنشراح السلطان سليم لذلك وأنعم على المخايل بثمانين ديناراً ، وخلق عليه قفطانا مذهبا ، وقال له إذا سافرنا الى اسطنبول امض معنا حتى يتفرج ابنى على ذلك »^(١٥٧) . على أن بعض سلاطين المماليك مثل الظاهر جقمق رأى فى تمثيلات خيال الظل ما ينافى الدين والاخلاق ، فأمر بجمع « أصحاب الخيال » وأحرق جميع ما معهم من « الشخصوس »

Paul Kahle : The Arabic Shadow Play in Egypt; (١٥٣)

p p. 31 — 34.

(١٥٤) محمد فنيهى هلال : الأدب المقارن ص ١٧٠ .

Paul Kahle : p. cit; p. 34. (١٥٥)

(١٥٦) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٤٧ .

(١٥٧) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٢٥ .

مع التنبية عليهم بعدم العودة الى فعله (١٥٨) .

وتلمى الناس كذلك في ذلك العصر بعدة ألعاب اتخذت لطابع المقامرة مثل تطيير الحمام والمناطحة بالكباش والمناقرة بالديوك ، فيراهن الشخص على هذا الطير أو ذلك الكباش أو الديك ، فاذا فاز كسب الرهان (١٥٦) . ويدخل في هذا النوع من الألعاب أيضا المعالجة — أى لعبة رفع الأثقال (١٦٠) — ، والمثاقفة — من الثقاف وهو الخصام والجلاد والطعان بالرمح — ، والملاكمة والمثابكة ، اذ كانت هذه الألعاب كلها تتم بطريق المقامرة والرهان (١٦١) . هذا كله عدا ألعاب البهلوانات والحواة التى تسلى بها الناس في ذلك العصر ، والدبابة الذين يلعبون بالدببة والقرادة الذين يلعبون بالقرود (١٦٢) ، مما لا يزال بعضه باقيا في مجتمعنا الحديث .

(١٥٨) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٥٢ ، أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ١ ص ١١٧ ، ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٣ . هذا ويقترن خيال الظل في عصر المماليك باسم محمد بن دانيال الموصلى المتوفى سنة ٧١٠ هـ ، وهو الذى الف ثلاث بابات او تمثيلات هى طيف الخيال ، وعجيب وغريب ، والمتيم . وتعتبر هذه التمثيلات عن الحياة الاجتماعية في مصر على عصر سلاطين المماليك تعبيرا قويا . وقد وصف ابن حبيب (درة الاسلاك ج ١ ص ١٨٧) ما كتبه ابن دانيال بانه « ليس له في الحقيقة مثال » . وامتازت مؤلفات ابن دانيال بالهزل والمجون ، وتوجد نسخة مخطوطة من كتابه « طيف الخيال » بالخرانة التيمورية بدار الكتب المصرية (١٦ ألعاب) كما قام بنشر بعض أجزاء هذه التمثيلات اثنان من المهشرقين هما باول كله وجورج يعقوب .

(١٥٩) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٧٥٤ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٤١ .

(١٦٠) وقد ورد في المقرئى (الخطط ٢ ص ٥٥ بولاق) أن اميرا من امراء المماليك كان « مشهورا بالعلاج يعالج بمائة وعشرة أرطال » . — انظر كذلك ما كتبه الاستاذ الدكتور زيادة في السلوك ج ٢ ص ٦٩٥ — ٦٩٦ — حاشية ١ .

(١٦١) انظر المقرئى : السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٦٤٢ سنة ٧٤٤ هـ .

(١٦٢) سيرة الظاهر بيبرس ج ٩ ص ٤١ ، المقرئى : السلوك

ج ٢ ص ٦٤٢ ، ٦٨٩ ، ٦٩٥ .

أما الملامى الهادئة فأولها الشطرنج • ويفهم من المصادر المعاصرة أن لعبة الشطرنج ظلت ذات شأن كبير في عصر المماليك حتى نسب بعض الأشخاص إليها^(١٦٣) ، كما أُلّف فيها في ذلك العصر أكثر من كتاب^(١٦٤) • واعتبر الناس في تلك العصور الشطرنج لعبة أرستقراطية خاصة بالملوك والأمراء « لا الفقراء والأراذل » وقالوا في ذلك « مثل الفقير الذى يلعب الشطرنج كمثل أعمى ينظر في النجوم »^(١٦٥) • ومع هذا ، انتشرت هذه اللعبة في عصر المماليك بين مختلف الطبقات فلعبها السلاطين والأمراء والتجار والفقهاء وغيرهم^(١٦٦) • وقد ذكر الأديبى لعبة أخرى تلهى بها الفضلاء في مجالسهم^(١٦٧) ، وتفصيلها أن يجلس جماعة ويكتبون أوراقا في بعضها صورة شخص صاحب متاع وفي البعض الآخر صورة لص • فإذا حصلت الورقة التى فيها صاحب المتاع لأحدهم قال « يا جماعة ، ضاع لى كذا وكذا ورأيد فلانا يحضر لى اللص ... » • وفيما عدا هذه الألعاب ، كثيرا ما جلس الناس للحديث وسرد « نواذر مضحكة من نمط ما يحكى عن جدنا »^(١٦٨) ، أو عن « قراقوش وأحكامه »^(١٦٩) • وربما اجتمعوا لسماع سيرة عنترة أو

(١٦٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٢٥٣ ترجمة أحمد بن محمد الشطرنجى •

(١٦٤) أبو زكريا الحكيم : كتاب فى الشطرنج ، وكذلك توجد بدار الكتب المصرية رسالة فى الشطرنج كتبت فى القرن التاسع الهجرى ولم يعلم مؤلفها •

(١٦٥) أبو زكريا الحكيم : كتاب فى الشطرنج ص ١٤ •

(١٦٦) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٩٦ ، السخاوى : التبر

المسبوك ص ٢٣٠ ، زير شتين : تاريخ المماليك ص ٥٠ •

(١٦٧) الأديبى : البطالع السعيد ص ٢٧٨ •

(١٦٨) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٢٧٩ ترجمة أحمد بن

محمد بن عثمان •

(١٦٩) ابن ممانى : الفاشوش فى أحكام قراقوش •

سيرة ذات المهمة أو سيرة الظاهر أو قصة أبي زيد^(١٧٠) وغيرها من سير الأبطال والشجعان التي لا يملون سماعها ولا يسأمون تكرارها .

المآتم والأحزان :

وكما كثرت أنواع اللهو في مصر المالكية تفنن الناس كذلك في كيفية إظهار الحزن على الأموات . فإذا مات فرد أقام أهل العزاء عليه أياما ، وحزنوا سنة كاملة لا تختضب فيها النساء بالحناء ولا يلبسن الثياب الحسان ، ولا يتحلين ولا يدخلن الحمام ، حتى ولو حدث الاضطراب الى دخوله . فإذا انقضت السنة بادروا الى فعل الأشياء السابقة ، وسموا ذلك « فك الحزن » ويجتمعون للاحتفال بذلك « حتى كأنه فرح متجدد »^(١٧١) . أما المآتم فتقام بالمغاني والندابات اللاتي يضرين بالطارات والدقوف ، كما يلطمن على وجوههن^(١٧٢) ، وقد لطنن أزرعهن بالسبخام^(١٧٣) . وفي اللحظة التي يخرج نعش الميت لتشيع جنازته ، جرت العادة أن يصيح الرجال والنساء معا صيحة عظيمة عالية يعتبرونها وداعا للميت ، ويصحبها غالبا لطم الخدود^(١٧٤) ، فإذا ما تحركت الجنازة أحاط المشيعون بالنعش وهم يبكون ويصيحون ، ومنهم من يقطع ثيابه ، ويتبعهم عدد كبير من النسوة ينوحون وينعون في الأسواق والشوارع^(١٧٥) . وهناك جماعات عرفوا في ذاك العصر ، وأطلق عليهم « الفقراء الذاكرون »

-
- (١٧٠) السخاوي : تحفة الأحباب ص ١٨١ .
(١٧١) ابن الحاج : المدخل ج ٣ ص ٢٧٦ .
(١٧٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٤٦ ، المقرئ : السلوك ج ١ ص ٢٧١ .
(١٧٣) السبخام : هو السواد (الهباب) .
(١٧٤) ابن الحاج : المدخل ج ٣ ص ٢٤٦ .
(١٧٥) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ٢٤٩ ، أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٢ ص ٣٣٤ ، العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٨٢٢ هـ .

بحضرهم أهل الميت ليذكروا أمام الجنازة ، كل جماعة منهم « على صوت ونغم خاص » (١٧٦) ، ويستمرّون على ذلك حتى تصل الجنازة إلى المسجد للصلاة على الميت ، وهناك يطوف المؤمنون بالنعش في أركان المسجد رافعين أصواتهم بالتكبير (١٧٧) . ويعد الصلاة تستمر الجنازة في سيرها على النمط السابق حتى موضع « درب الوداع » خارج الأسوار ، وعندئذ يقدم المشيعون عزاءهم واحدا بعد واحد . أما النعش فيحمله الحمالون ويجرون به في سرعة بالغة نحو القبر (١٧٨) . ويقام عند القبر عزاء آخر يتوقف على مقدرة أهل الميت ، فمنهم من يأتي بجوق من النواائح المختلفة الأصوات ، كل واحدة منهن تنوح بقول يختلف عن غيرها ، وربما استمروا على هذا الوضع بضع ليال (١٧٩) ومنهم من يحضر المقرئين للتلاوة على القبر خمسة أيام « على العادة » أو أكثر (١٨٠) . وكثيرا ما احتفلوا باليوم الثالث أو السابع أو تمام الشهر أو تمام السنة للميت ، فيصنعون الأطعمة ويجمعون الأهل والمعارف عند القبر (١٨١) . فإذا كان الميت من الملوك مدت الأسمطة وأشعلت الشموع وفرقت الأطعمة على أهل الزوايا وجموع الناس المحتشدة (١٨٢) .

-
- (١٧٦) ابن الحاج : المدخل ج ٣ ص ٢٥٠ .
(١٧٧) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٤٦ ، ٢١٩ .
(١٧٨) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٥٤ - ٢٥٧ .
(١٧٩) ابن حجر : انباء الفجر ج ١ ص ٤٤٩ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٦٢٩ .
(١٨٠) العيني : عقد الجمان سنة ٦٩٣ هـ .
(١٨١) ابن الحاج : المدخل ج ٣ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .
(١٨٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٨ ص ١١٥ - ١١٦ ، ميد الله انكاتب : اللطاف الخفية ص ١٧ - ١٩ ، القريرى : السلوك ج ١ ص ٦٤٨ .

القرافة :

وفي عصر سلاطين المماليك عرفت قرافتان لأهل مصر والقاهرة ،
يدفنون فيها موتاهم ، الأولى في سفح المقطم ويقال لها القرافة
الصغرى ، والثانية في مصر ويقال لها القرافة الكبرى^(١٨٣) . ولم يقتصر
استخدام القرافة في تلك العصور على دفن الموتى وتشييد المقابر ،
بل كثيرا ما أقيمت فيها البيوت والمساجد والمدارس والزوايا
وغيرها^(١٨٤) . وقد وصفت القرافة الكبرى في عمر المماليك بأن فيها
عمائر كثيرة ، وأن عمائرها قدر ثغر الاسكندرية ، في حين وصفت
القرافة الصغرى بأنها أعمر من الكبرى وأحسن هيئة وأنها تضاهي
مدينة حمص^(١٨٥) . ووصف البلوى المغربى قرافة مصر بأنها « بلدة
كبيرة قائمة بنفسها مستقلة بأسواقها ومساجدها ... »^(١٨٦) . أما
ابن بطوطة فقد وصفها بأنها « عظيمة الشأن »^(١٨٧) كذلك أظن بيلونى
المكربيتى في وصف القرافة ونظامها والحياة فيها^(١٨٨) .

وأقبل الناس على زيارة القرافة والأقامة بها لزيارة موتاهم
والتبرك بأضرحة الأولياء الصالحين المدفونين بها^(١٨٩) . ومن الأيام
انتهى فضلت لزيارة القرافة يوم الأربعاء « لأنه يوم مبارك » ، وكذلك
ليلة الجمعة^(١٩٠) . كذلك وضع نظام وترتيب معين لزيارة القرافة .

-
- (١٨٣) السخاوى : تحفة الاحباب ص ١٠٤ ، خطط المقرئى :
ج ٢ ص ٣٠٦ .
(١٨٤) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٦٥ ، ٧٤ ، خطط
المقرئى ج ٤ ص ٣٣١ - ٣٣٢ .
(١٨٥) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٢٧ .
(١٨٦) رحلة البلوى المغربى ص ٥٩ ب - ٦٠ .
(١٨٧) رحلة ابن بطوطة ص ٧٤ .
(١٨٨) Dopp : L'Egypte... p. p. 34 - 35 .
(١٨٩) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ٧٩ ب ، المقرئى :
الخطط ج ٤ ص ٣٤٤ ، ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٢٧٧ .
(١٩٠) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٣٠ .

يقضى بأن يبدأ الزائر بمشهد السيدة نفيسة أو مشهد السيد الحسين ،
ثم ينتقل الى غيره بالترتيب^(١٩١) .

واعتبر الناس القراناً مكاناً للهو والتفريح عن النفس ، فخرجوا
اليها في الليالى المقمرة وليالى المواسم والأعياد وليالى الجمع من كل
أسبوع ، ومعهم الرياحين والزهور كالياسمين وغيره^(١٩٢) . وهناك يدعون
الأهل والأصدقاء ويقيمون الولائم ومعهم أولادهم ونسأؤهم^(١٩٣) ،
فيكثر الغناء والرقص ويحدث، الفساد باختلاط النساء بالرجال^(١٩٤) .
وهكذا أصبحت القرافات على عصر سلاطين المماليك ، « معظم مجتمعات
أهل مصر وأشهر، منتزهاتهم »^(١٩٥) . واستنكر بعض الفقهاء المعاصرين
ذلك الوضع^(١٩٦) ، فحاول السلاطين الولاة أكثر من مرة منع النساء
من الخروج الى القرافات ، ولكن ذلك لم يجد في تحويل الناس عما
ألفوه^(١٩٧) .

(١٩١) السخاوى : تحفة الأحباب ص ٩ ، ابن الزيات : الكواكب
السيارة ص ٣٠ ، ٢١ ، ١٥٩ ، خطط المقرئى : ج ٣ ص ٣٤٥ .
(١٩٢) Schefer : Le Voyage d'Outremer; p. 51.

(١٩٣) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٧٤ .

(١٩٤) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٦٧ — ٢٧٠ .

(١٩٥) خطط المقرئى ج ٢ ص ٣١٩ .

(١٩٦) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٦٧ ، ج ٢ ص ١٧ .

(١٩٧) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢١٧ .

الفصل الرابع

الحياة المنزلية

المنازل في العصر المالكي :

اهتم المالكي اهتماما خاصا بقصورهم ومنزلهم . كما يتضح من البقايا القليلة التي بقيت من تلك القصور والمنازل . ولم تقتصر تلك العناية على هندسة البيوت وتنظيمها ، وانما امتدت أيضا الى تجميلها وزخرفتها ، كما يتضح ذلك في قصر الأمير بشتاك وسقفه المذهب والفسقية الرخامية التي تتوسطه ، وما فيه من تحف وأدوات خشبية ذات زخارف مخروطية أو محفورة ومطعمة^(١) .

والواقع أن أهل مصر بوجه عام اهتموا اهتماما بالغا بتشييد المنازل وتأثيثها وتزويدها بكل وسائل الراحة . وقد بدت منازلهم في دظورها الخارجى صغيرة وبسيطة ، ولكنها في الداخل مرتبة غاية الترتيب ومقسمة الى حجرات مختلفة ومزينة على خير صورة^(٢) . وذكر عبد اللطيف البغدادي عن ابنىة المصريين أن فيها هندسة بارعة وترتيب المغاية « واذ أرادوا بناء ربح أو دار ملكية قيسارية استحضر المهندس وفوض اليه العمل »^(٣) . وقد وصف جيهان تنو Jehan Thenaud الدار التي أقام بها في مصر سنة ١٥١٢ م ، فذكر ردهاتها الواسعة وجدرانها المزخرفة بالألوان الجميلة وأبوابها ذات المقابض المصنوعة من العاج ، هذا عدا الفسقية التي توجد ببناء الدار والتي تحيط بها الأشجار الباسقة^(٤) .

(١) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٨٠ ، ص ٨٢ .

(٢) Bernard de Breydenbach : op. cit; p. p. 35 — 36. (٢)

(٣) عبد اللطيف البغدادي : اخبار مصر ص ٩٠ — ٩١ .

(٤) Carrè : op. cit; p. p. 3 — 4. (٤)

والفكرة الأساسية التي حرص عليها الناس في هندسة بيوتهم عندئذ هي عدم تمكين أى فرد بالخارج من أن يرى شيئا مما بداخل المنزل . ويتضح ذلك جليا في مدخل المنزل الملطوى وفي نظام المشربيات على النوافذ^(٥) . ولكن ليس معنى ذلك حبس أهل المنزل في جو مقبض غير صالح ، إذ لاحظ تافور أنه رغم حرارة الجو في شوارع القاهرة ، إلا أنه معتدل ولطيف داخل المنازل . وجرت العادة في ذلك العصر أن الشخص إذا أتم تشييد دار جديدة احتفل بافتتاح هذه الدار احتفالا عظيما يتناسب مع مكانته وثروته ، ويعمل مهما كبيرا يدعو إليه الأهل والأصدقاء والجيران^(٦) .

الحياة العائلية :

أما الحياة العائلية داخل البيوت فلا نكاد نجد عنها شيئا في المصادر المعاصرة يختص بطبقة المالك ، سوى أسماء متناثرة لبعض الجوارى والنساء ، الأمر الذي جعل كثيرا من الكتاب يعتمدون على قصص ألف ليلة للوقوف على مظاهر الحياة العائلية في ذلك العصر^(٧) . ولعل السبب في ندرة ما كتب عن أحوال المالك العائلية ، هو أن المالك أنفسهم لم تكن عندهم « حياة عائلية » بالمعنى المعروف رغم أنهم حاولوا تكوين أسر . ذلك نأ أسلوب المالك في الحياة

(٥) اتخذت هذه المشربيات في واجهات البيوت لتلطيف الجو وادخال النسيم العليل ، وتمكين أهل الدار من رؤية من بالخارج دون ان يكون العكس ممكنا .

ويقول الدكتور زكى محمد حسن (فنون الاسلام ص ٧٠) ان المشربية تحريف مشربة بمعنى غرفة عالية ، او بمعنى المكان الذى يشرب منه نظرا لانه كان يصنع فيها خارجات صغيرة مستديرة او مئنة تركيب خارج المشربية وتوضع عليها القل لتبريدها .

(٦) النويرى : الامام بالاعلام ج ٢ ص ٢١٦ ، خطط المقرئى : ج ٣ ص ٨٦ وما بعدها .

(٧) Lane — Poole : Cairo; p. 22 & A Hist. of Egypt. (V)

لم يقيم على أساس وحدة الأسرة بأركانها المعروفة وهى الأب والأم والأبناء ، وإنما قام على أساس الرقيق والماليك الذين أحلوهم فى نظامهم محل الأبناء . فمن نظمهم البارزة أن الإبن لا يخلف أباه فى مركزه ولا يرثه فى ثروته ، وإنما المملوك هو الذى يحل محل أستاذه ويرثه حتى فى الاستيلاء على حريمه^(٨) . وحسبنا أن الأمير منهم كان لا يأكل مع أبنائه أو حريمه وإنما يفضل أن يأكل مع مماليكه^(٩) . كذلك نص كثير من الحجج الخاصة بالماليك على أن الاستاذ أحق الناس بالتمتع ببيع الوقف الذى يقفه المملوك . وقد ورد فى وثيقة وقف السلطان الغورى الدعاء للرسول والصحابة ، ولالأشرف قايتباى — أستاذ الغورى^(١٠) . وهكذا أصبحت الحياة العائلية لطبقة المماليك لا تقوم على العلاقة بين الرجل وزوجته وأبنائه بقدر ما تقوم على العلاقة بين الأمير ومماليكه أو بين المملوك وأستاذه . والإشارات التى لدينا عن حياة المماليك العائلية لا تتعدى ناحية ابراز احترام الابن أو البنت لأبيها . مثال ذلك أن والد برقوق حضر الى مصر ، فاما وقع نظر الأب على ابنه مد له يده ، فأخذها الأمير ووضعها على رأسه^(١١) . كذلك حدث عندما حضر الأمير تنكر والد زوجة السلطان الناصر محمد الى مصر سنة ٧٣٩ هـ ، أن أسرعت اليه ابنته وقبلت يده^(١٢) .

هذا عن المماليك ، أما طبقات الشعب الأخرى من علماء وتجار وعوام وغيرهم ، فيبدو أن الطابع العام للأسرة الإسلامية لم يتغير كثيرا فى ذلك العصر ، سواء من ناحية مركز الأب ونفوذه على زوجته وأبنائه أو احترام الزوجة لزوجها والأبناء لوادهم . وكل ما هنالك

(٨) Muir : The Mamluke or Slave Dynasty; p. 225.

(٩) المقرزى : الخطط ج ١ ص ٩٤١ .

(١٠) انظر حجة وقف السلطان الغورى ، أرشيف الاوقاف ٨٨٣ .

(١١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

(١٢) نفس المصدر ج ٩ ص ١٢٩ .

هو وجود أمثلة قليلة لرجال في عصر الماليك — لا سيما من طائفة التجار — ضعفوا أمام نسائهم ، « فلا يقدر أحدهم على مخالفة زوجته أبدا »^(١٣) . وتبدو هذه الصورة واضحة في قصة معروف الاسكافي من قصص ألف ليلة ، إذ كانت زوجة معروف « حاكمة عليه وفي كل يوم تسبه وتلعنه فاشتد خوفه منها »^(١٤) .

واعتاد الرجل أن يقضى معظم نهاره في عمله خارج المنزل ، حتى إذا انتهى من عمله عند غروب الشمس ، عاد الى منزله « حيث يتصافى مع زوجته ويتم نهاره في بيته »^(١٥) . أما الزوجة فتقوم بشئون منزلها ثم ترتدى الثياب الرقيقة المذهبة المصنوعة من الحرير الفاخر ، لتظهر أمام زوجها في صورة كلها فتنة واغراء^(١٦) ، وقد أكثر بعض فقهاء عصر الماليك من نصح النساء باستكمال زينتهن داخل المنازل وذلك بقسريج الرأس وتزيين الشعر والتطيب بالطيب أمام الزوج « حتى يطيب قلبه »^(١٧) . كذلك أخذ الفقهاء المعاصرون على النساء عنايتهن بالزينة عند الخروج من المنازل ، واهمال أنفسهن داخلها أمام الأزواج^(١٨) .

وعنى الآباء والأمهات في عصر الماليك بتربية أبنائهم وتعليمهم ، فإذا ولد المولود في بيت يسر تسلمته المراضع (والدادات) حتى يشب ، وعندئذ يقوم بتأديبه وتعليمه أحد مؤدبي الأطفال^(١٩) . وتمتع

(١٣) زكى مبارك : التصوف ج ١ ص ٣٥٥ .

(١٤) ألف ليلة وليلة ج ٤ ص ٢٢٨ « قصة معروف الاسكافي » .

(١٥) سيرة الظاهر بيبرس ص ٦٢ .

(١٦) Schefer : Voyage du Magnifique... p. 211.

(١٧) السيوطى : الايضاح في عام النكاح ص ٥ — ٦ .

(١٨) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

(١٩) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٨٠ ، السخاوى : التبر المسبوك

ص ١٥٨ ، سيرة الظاهر بيبرس ج ٢٠ ص ٥٢ ، ابن حجر : الدرر الكامنة

ج ٣ ص ١٨٤ ترجمة عمر بن أبى الفتوح .

هذا المؤدب باحترام ومهابة تفوق مهابة الوالدين في نفس الطفل ، حتى اعتادت بعض الأمهات أن يلجأن إلى مؤدب الأطفال لشكوى أبنائهن إذا أخلوا بالأدب في المنزل^(٣٠) وأحيانا يقوم الوالدان بمهمة تعليم أولادهما بالمنزل ، فيحفظون القرآن ويتعلمون الخط والحساب والفنون والأدب : « ولم يحتاجا الى معلم »^(٣١) .

النوم :

واهتم الناس في تلك العصور اهتماما كبيرا باعداد أماكن النوم في منازلهم فصنعوا أسرة من جريد النخل ووضعوا عليها وسائد مريحة محشوة بالقطن^(٣٢) . وفي فصل الصيف اعتاد معظمهم النوم داخل الحجرات — أشدة الحر — ، بل فوق الأسطح وفي أحواش المنازل حيث يشيدون مصاطب خاصة لذلك الغرض ، وبذلك يتاح لهم الاستمتاع بالهواء المنعش اللطيف^(٣٣) .

هذا ، وقد نهى ابن الحاج عن بدعة تفشيت في أيامه ، وهي أن الزوجة اذا جاءت لتنام مع زوجها فانه يجب أن يعطيها أجرا معلوما — بحسب حاله — يسمى « حق الفراش » ، وقال ابن الحاج أن هذا التصرف منكر لأنه شبيه بالزنا^(٣٤) .

الطعام :

أما عن نظم الطعام ، فالذي يوجب الالتفات هو أن الناس في ذلك العصر لم يطهوا طعامهم في منازلهم ، بل اعتادت الغالبية العظمى

(٢٠) الشربيني : عز التحوف ص ٢١ .

(٢١) الف ليلة وليلة — قصة قبر الزمان ج ٤ ص ٢٢٨ .

(٢٢) Laurent d'Arvieux : op. cit, p. 222.

(٢٣) Dipp : L'Egypte... p. 108 & Schefer : Voyage... p. 213.

(٢٤) ابن الحاج : المنخل ج ٢ ص ١٦٩ .

(م ٩ — المجتمع المصرى)

منهم — مهما يبلغ ثراؤهم — شراء ما يحتاجون اليه من الأطعمة المطهية التي تفيض بها الأسواق والطرقات^(٢٥٦) . وقد عرف أهل مصر في ذلك العصر أنواعاً عديدة من الأطعمة مثل المأمونية والخيطية والسفرجلية والرمانية والفولية والكمونية وغيرها^(٢٦٧) . وتتاول الناس الطعام في منازلهم وهم جلوس على الأرض^(٢٧٢) . ولتتاول الطعام آداب تمسك بها المعاصرون ، منها التسمية في أول الأكل والحمد والشكر في آخره ، ومنها الإتكاء عند الجلوس للآكل على الفخذ الأيسر ، ويكون الأكل بثلاثة أصابع مع مراعاة تصغير اللقمة وتطويل المضغ وعدم الكلام حين الأكل^(٢٧٨) . كذلك روعى غسل الأيدي قبل الأكل وبعده ، وأحياناً يكون ذلك بماء الورد ، ثم تتشرف الأيدي « بالناديل والقوط الحرير »^(٢٧٩) . وجرت العادة في ذلك العصر أن الزوجة والأبناء لا يشاركون رب الأسرة في الأكل من وعاء واحد ، بل « للرجل طعام خاص به وزبديّة خاصة به وكوز خاص به »^(٢٨٠) . وانتقد ابن الحاج ذلك الوضع الذي شهده في مصر ، كما انتقد:

Schefer : Voyage... p. 210 & Le Voyage d'Outremer (٢٥)
p. 46 & Larrivaz : op. cit; p. 60 & Tafur : op. cit; p. 101. & Dopp :
L'Egypte... 108.

(٢٦) زبدة كشف المهالك ص ١٢٥ . وهناك كتب الفت في ذلك العصر تشبه في موضوعها وتنظيمها كتب التدبير والطهي في عصرنا ، ففيها شرح لجميع أنواع المأكولات المعروفة لدى المعاصرين ، وطرق عمل كل نوع منها ، سواء الخضروات أم اللحوم والطيور أم المخللات أم الحلوى . (انظر كتاب الوصلة الى الحبيب — مخطوط) . هذا فضلاً عن أسماء المأكولات العديدة التي وردت في كتب الحسبة (ابن الأخوة : معالم القربة ص ٩١ — ١١٥) .

Dopp : Le Cairo Vu, Tomo 26; p. 114. (٢٧)

(٢٨) النويرى السكندرى : الإلمام بالأعلام ج ٢ ص ٢١٧ .

(٢٩) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٣٢ .

(٣٠) نفس المصدر والجزء ص ٢١٦ .

ما حرص عليه كثيرون من ضرورة قيام خادم خلف الشخص الأكل لينش عنه الذباب^(٣٦) .

وامتاز عصر المماليك بكثرة الولائم المنزلية ، فكل مناسبة من مناسبات الفرح مقرونة بوليمة للأهل والأصدقاء . أما هذه المناسبات فأهمها الزواج والولادة والختان وبناء دار جديدة والاحتفال بعودة مسافر أو حاج^(٣٣) . ووضعت لهذه المآدب المنزلية آداب وتواعد ، منها أنه يجب على صاحب البيت أن يبدأ بالأكل أيناسا للضيوف ، ويعزم عليهم ، ولا يمعن في الأكل حتى إذا شبع الضيوف أو قاربوا فحينئذ يأكل بانسراح . كذلك يجب عليه أن يقدم لهم - قبل الأكل وبعده - ما يغسلون به أيديهم ، ويستحسن أن يتولى ذلك بنفسه على أن يبدأ بالغسيل أفضلهم ويكون صاحب الدار آخر من يغسل يديه^(٣٣) والملاحظ أنه عند تقديم ألوان الطعام أتبع الناس في ذلك العصر النظام نفسه الذى نتبعه اليوم ، فيقدم الطعام أولاً ، ثم الحلوى من بعده ، وأخيراً الفاكهة^(٣٤) .

الاحتفالات العائلية :

ومن الخصائص البارزة التى اتصفت بها الحياة المنزلية فى عصر سلاطين المماليك كثرة الاحتفالات والأفراح ، والتفاخر فى إحياء هذه الأفراح ، حتى بلغ الأمر ببعض الناس أن يبيع الواحد ثيابه ويقترض الأموال بالربا ليتباهى أمام الناس ويقال طعام فلان أكثر من طعام فلان^(٣٥) .

(٣١) نفس المصدر والجزء من ٢١٧ .

(٣٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٤٤٤ ترجمة عثمان بن على

ابن عمر ، النویری : اللام بالأمم ج ٢ ص ٢١٦ .

(٣٣) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٢٨ - ٢٢١ .

(٣٤) ابن حجر : انباء الغر ج ١ ص ٢٢٥ .

(٣٥) زكى مبارك : لتصوف ج ١ ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

وأول الأفراح العائلية الاحتفال بالزواج . وفي هذا النوع من الأفراح عمد كثير من المصريين الى المبالغة ، ولو أن ما فعلوه في الواقع لم يكن سوى صورة مصغرة لما اعتاد أن يفعله سلاطين المماليك وأمراؤهم في أفراحهم . وتفيض المصادر المعاصرة بأخبار أفراح المماليك ، وما تتطرق به هذه الأفراح من ثروة واسراف . من ذلك : « يرويه المقرئى عن فرح الأمير أنوك ابن السلطان الناصر محمد ابن قلاوون ، وكيف أن السلطان أمر « باحضار جميع من بالقاهرة ومصر من أرباب المهلى الى الدور السلطانية ، ووقع الشروع فى عمل الإخوان (الخوان) فأقام المهن سبعة أيام بلياليها . . . فلما كانت ليلة السابع منه جلس السلطان على باب القصر ، وتقدم الأمراء على قدر مراتبهم واحدا بعد واحد ، ومعهم الشموع ، فإذا قدم الواحد ما أحضره من الشمع قبل الأرض وتأخر . وما زال السلطان بمجلسه حتى انقضت تقادهم ، فكانت عدتها ثلاثة آلاف وثلاثين شمعة ، زنتها ثلاثة آلاف وستون قنطارا . . . حتى اذا كان آخر الليل نهض السلطان وعبر حيث مجتمع النساء ، فقامت نساء الأمراء بأسرهن ، وقبلن الأرض واحدة بعد أخرى وهى تقدم ما أحضرت من التحف الفاخرة والنقوش حتى انقضت تقادهم جميعاً . ورسم السلطان برقصهن عن آخرهن فرقصن أيضا واحدة بعد واحدة ، والمغانى تضرين بدفوفهن ، وأنواع المال من الذهب والفضة وشقق الحرير . يلقى على المغنيات ، فحصل لهن ما يجلب وصفه ، ثم زفت العروس . فكان هذا العرس من الأعراس المذكورة ، ذبح فيه من الغنم والبقر والخيل والأوز والدجاج ما يزيد على عشرين ألفاً ، وعمل فيه من السكر برسم الحلوى والمشروب ثمانية عشر ألف قنطار . . . » (٣٦) .

وقد قامت الخاطبة فى ذلك العصر بدور كبير فى اتمام مهمة

(٣٦) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٣٤٣ - ٣٤٦ - حوادث سنة

الخطوبة • وصور هذا الدور بوضوح ابن دانيال الموصلى في بيابة « طيف الخيال » ، فوصف كيف يقصد راغب الزواج الخطبة لأنها « تعرف كل حرة وعاهرة وكل مليحة بمصر والقاهرة » • ذلك أنها تتظاهر ببيع الطيب والبخور وغير ذلك من لوازم النساء ، وبذلك بتاح لها دخول البيوت والاطلاع على أسرار الحريم فتستطيع أن تأتي للعريس بالمعروض التي تتفق مع رغباته ومطالبه^(٣٧) • والغالب أن الفتاة لم يكن لها أى رأى فى اختيار شريك حياتها ، بل ظل الرأى الأول والأخير لوالدها ، وربما شاركته فى ذلك أمها^(٣٨) • فإذا انتهى دور الخطوبة جاء الدور الثانى الخاص بعقد القران • وقد جرت العادة أنه فى حالة زواج أحد أبناء أو بنات السلاطين أو الأمراء أو أعيان الدولة ، أن تكتب له خطبة صداق تكون فى الطول والقصر حسب مكانة صاحب العقد^(٣٩) • ويذكر ابن الحاج أن كثيرا من الناس فى عصره فضلوا عقد الأئكة فى المساجد ، فيجتمعون فيها ومعهم المباخر المفضضة التى يحرقون فيها البخور ، وبعد كتابة العقد ينصرفون فى حفل كبير^(٤٠) •

ثم تأتى الخطوة الثالثة بعد عقد القران ، وهى إعداد المشوار ونقله الى منزل العريس • ويتناسب الجهاز مع مركز أصحاب العرس ومدى ثرائهم ، ففى أفراخ السلاطين والأمراء يحمل الجهاز أحيانا ما يزيد عن أربعمائة حمال^(٤١) ، وربما استمرت البغال فى جملة ثلاثة أيام ، فى حين تبلغ تكاليف إعداده آلاف الدنانير^(٤٢) • وفى هذه الحالة ينقل الجهاز إلى منزل الزوجية فى موكب كبير تسير فيه الأمراء

(٣٧) ابن دانيال : طيف الخيال ص ٣٩ — ٤٩ •

(٣٨) السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٩١ •

(٣٩) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٠٠ •

(٤٠) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٢٦٤ •

(٤١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ •

(٤٢) العينى : عقد الجمعان حوادث سنة ٧٢٣ هـ •

المقدمون والمماليك في أفخر ثيابهم وبأيديهم الشموع^(٤٣) . أما إذا لم يكن أصحاب الفرح من الأمراء ، فإنه يحتفل بنقل الشوارب في حفل يشترك فيه الأقارب والمعارف . وجرت العادة أن يكون في ذلك الشوارب ثلاث دكك إحداها من فضة والثانية من نحاس أبيض والثالثة من نحاس أصفر^(٤٤) . وتكففت الدكك النحاسية بالفضة ، ويوضع فوقها أوانى مختلفة من كاسات وأطباق وسرج وطشت وأبريق ومبخرة^(٤٥) . هذا عدا الشطرنج وغيره من الكماليات التي تحمل مع الجهاز^(٤٦) .

وفي ليلة الزفاف تقام وليمة كبيرة للأهل والأصدقاء تسمى وليمة العرس ، وهما في الواقع وليمتان إحداها للنساء وتقام في بيت العروس والأخرى للرجال وتقام في بيت العريس ، وأحيانا تقام الوليمنتان في بيت واحد . وبعد الطعام - أى في المساء - يخرج العريس قاصدا بيت العروس في موكب كبير يحف به الأهل والأصدقاء^(٤٧) . وبوصول العريس إلى منزل عروسه يبدأ حفل الزفاف الذي تحييه عدة جوق من المعاني ، فيختلط فيه الغناء بضرب الدفوف وزغاريد النساء^(٤٨) . وتحرص المدعوات اللاتي يحضرن

(٤٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٧٩ ، ذيل الأعلام ج ١ ص ٢

(٤٤) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ١٦٧ . وقد ذكر المقرئى (الخطط ج ٢ ص ١٠٥) أنه إذا كانت العروس من بنات الأمراء أو الوزراء أو الأميان فإنها تجهز في شورتها بسبع دكك . والدكة عبارة عن شيء يشبه السرير يعمل من خشب مطعم بالعاج والأبنوس أو من خشب مدهون وتبلغ قيمة الدكة زيادة على مائتي دينار ذهبيا (زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٥٥٢ - ٥٥٤) .

(٤٥) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٤٦) تاريخ ابن الفرات ج ١ ص ٣٤ .

(٤٧) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٠٢ ، أبو المحاسن : حوادث

الدهور ج ١ ص ٦٦ - ٦٧ .

(٤٨) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٦٠١ .

الفرح على ارتداء الملابس الفاخرة والتحلّى بالمجوهرات الثمينة^(٤٩) وكثيراً ما تباهى المدعوون والمدعوات بالمبالغة في تقديم النقود إلى المعانى^(٥٠) ، وتقديم الهدايا من الشمع^(٥١) ، والتحف الفاخرة^(٥٢) ، والخراف والسكر والأوز وغيرها إلى أصحاب العرس^(٥٣) . ويبدو أن تلك الهدايا اعتبرت ضريبة أو دينا لا بد من دفعه ، حتى تضايق بعض أمراء المماليك في وقت من الأوقات بسبب كثرة الأفراح وقالوا « هذه مصادرة ! »^(٥٤) .

أما العروس فتصدر ذلك الحفل بعد أن تستكمل زينتها وبهاءها ، إذ يقوم بعض أهلها بتكحيلها وتمشيطها وتحفيها ، ثم إلباسها أبخر الثياب المطرزة^(٥٥) ، وتضع على رأسها شربوشا^(٥٦) . ومن العادات الغربية في القرن التاسع الهجرى أن الناس في مصر عملوا على إلباس العرائس لباس الرجال من جندي وقاض وغيرهما^(٥٧) . وفي نهاية الاحتفال يأخذ العريس عروسه من يدها وعندئذ تقبل العروس يد زوجها^(٥٨) . ويبدو أن العادة جرت في أفراح المماليك أن تقدم العروس

(٤٩) نفس المصدر والجزء ص ٤٢٦ .

(٥٠) العيني : عقد الجمان سنة ٧٣٣ هـ ، خطط المقرئى ج ٣ ص ٣١٧ .

(٥١) زير شتين : تاريخ المماليك ص ١٨٥ .

(٥٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٥٣) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٣٠٥ - ٣٠٦ .

(٥٤) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٢١٢ .

(٥٥) Dopp : Le Caire Vi ... Tome 23; pp. 139 - 140.

(٥٦) تاريخ ابن الفرات ج ١ ص ١٤٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٤٧٩ .

(٥٧) زكى مبارك : التصوف ج ١ ص ٣٤٧ .

(٥٨) سيرة الظاهر بيبرس ج ٩ ص ٢٣ .

لزوجها — في اللحظة التي تجلى عليه — سيفاً فاخرا تمسكه من طرفه
فيتناوله العريس من مقبضه (٥٩) .

أما الفلاحون فاعتادوا أن يطوفوا بالعريس في أنحاء القرية وسط
ضرب الطبول ومدح المنشدين ، وحوله « الجدعان تخبط بالنبايت »
ولا يزالون به حتى يصل إلى بيت العروس حيث يقام حفل صاخب
يشارك فيه أصحاب الرياب ، والنساء يزغردن وينشرن الملح على
العروس خوفاً عليها من الحسد (٦٠) .

كذلك وجد في القصص الشعبي المعاصر بعض اشارات الأفراح
الأعراب ، عندما ترقص الجارية وسط جموع الرجال ، ثم تطوف
عليهم وفي يدها الرق لتجمع : « عوايدها من العرب » (٦١) .

أما أهل الذمة فذكر ابن حجر أنه سمح لهم في عصر المماليك
بإقامة أفراحهم بالملاهي « والمغانى على عادتهم » (٦٢) .

ومن الاحتفالات العائلية ذات الأهمية الكبيرة في عصر المماليك
ذلك النوع الخاص « بالنفاس والولادة » . وقد جرت العادة أن يتفق
قبل الوضع مع القبيلة — التي أطلق عليها أيضاً اسم « الداية » — (٦٣)
على أجر معلوم ، حتى لا يحدث نزاع « وكلام كثير » حول تحديد
أجرها بعد الوضع . فإذا وضعت الأم مولودها أقبلت عليها النساء
يزغردن ويرفعن أصواتهن بذلك مع ضرب الدفوف والرقص واللهو
واللعب ، في حين تدوى المزامير والأبواق على أبواب المنزل : « لتعمل

Dopp : Le Caire Vu ... Tome 22; p. 140. (٥٩)

(٦٠) . هز القحوف ص ٩ — ١٠ .

(٦١) سيرة الظاهر بيبرس ج ٨ ص ٩ .

(٦٢) ابن حجر : انباء الغر .

(٦٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ١٤٤ ترجمة الملك الناصر

محمد بن تلاق .

ما في وسعها من المهرج والشهرة»^(٦٤) . وعند قطع سرّة المولود يجتمع حوله حشد كبير من صغار الأطفال وزعموا أن من لا يحضر من الصغار عند قطعها ودخل بعد ذلك تحول عيناه أو يبكي كثيرا في طفولته^(٦٥) . أما السكين التي تقطع بها سرّة المولود فتبقى عند رأسه ما دامت أمه جالسة عنده ، فإذا قامت حملتها معها . وتظل تفعل ذلك أربعين يوما حتى لا يصيبها شيء من الجان^(٦٦) . ويتضاعف الفرح إذا كان المولود ذكرا ، ففي هذه الحالة يتعين على والده أن يقيم « وليمة مولود ذكر »^(٦٧) يدعو إليها الأهل والأصدقاء ، ويفرط في عمل ألوان الطعام الفاخر ، هذا عدا مظاهر التكريم التي تضاعف الأم المولود في هذه الحالة^(٦٨) . وتستمر هذه الأفراح عادة سبعة أيام لا تتقطع طولها وفسود المهنيين والمهنيات ، وكل من جاءت للتهنئة جددوا لها اللهو واللعب والرقص . وعندما تحل الليلة السابعة ، وهي «ليلة السبوع» يضعون عند رأس المولود الختمة واللوح والدواة والقلم ورغيف من الخبز وقطعة من السكر . فإذا كان أهل المولود من ذوى السعة ، عملوا رغيفا كبيرا . و « ابلوجة من السكر » ووضعوها مع طبق من الفاكهة . « وقفرة من النقل والشمع » عند رأس المولود . وفي صبيحة السبوع يفرق كل ذلك ، ويزعمون أنه بركة لمن أخذه وأنه ينفعه من الصداع ، كما يزعمون أن الملائكة تكتب بالدواة والقلم ما يجرى على المولود في عمره إلى حين موته^(٦٩) . واعتاد الناس أن يحتفلوا بيوم السبوع احتفالا كبيرا ، فتلبس أم المولود الثياب الجديدة الجميلة ،

-
- (٦٤) ابن الحاج : المحل ج ٣ ص ٢٨٣ - ٢٨٨ .
(٦٥) نفس المصدر والجزء ص ٢٩٠ .
(٦٦) نفس المصدر والجزء ص ٢٩١ .
(٦٧) ابن حجر : انباء الغر ج ١ ص ٥٦٠ .
(٦٨) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٤٣٢ ، أبو الحسن : النجوم ص ٣١٩ ، السخاوى : التبر المسبوك ص ٧ .
(٦٩) ابن الحاج : المحل ج ٣ ص ٢٩٠ .

وتطوف بأثناء الدار في موكب كبير ، تحيط بها الشموع من كل جانب والقابلة أمامها تحمل المولود ، وأمام القابلة امرأة أخرى معها طبق به شيء من الملح المخلوط بالكمون تنشره في البيت يمينا ويسارا . هذا كله عدا إحراق نوع من البخور « مخصوص بالولادة » يحمى من الأمراض « والعين الجان » . ولا بد في ذلك اليوم من عمل ألوان معينة من الطعام كالزلابية والعصيدة ، وتفريقها على الأهل والجيران والمعارف (٧٠) .

وتمسك الناس في عصر المماليك بهذه العوائد « حتى تداين بعضهم لها » . ولم يخالف أهل العلم والمشيخة بقية طبقات الشعب في ذلك (٧١) . ويتحدث السخاوى عن نفسه عندما رزق مولوداً سنة ٨٥٥ هـ ، فأقام وليمة كبيرة دعا إليها الفقراء والصلحاء وطلبة العلم وغيرهم ممن « توسم فيهم الخير » (٧٢) .

كذلك أجمعت مختلف الطبقات في مصر المماليكية على الاحتفال بختان الطفل احتفالاً عظيماً . واستمرت المبالغة في أحياء هذا النوع من الحفلات حتى العصور الحديثة ، عندما أظن كل من كلوت بك ولين في وصف حفلات الختان على عهد محمد علي (٧٣) . وقد جرت العادة على أن يقوم بعملية الختان في عصر المماليك « المزين » (٧٤) . وعندئذ يقيم أهل الطفل حفلاً كبيراً يدعون إليه سائر الأهل والأصدقاء (٧٥) . ولا بد للمدعوين في هذه المناسبة من تقديم النقود

(٧٠) نفس المصدر والجزء ص ٢٩١ .

(٧١) نفس المصدر والجزء ص ٢٨٨ ، ٢٩٣ .

(٧٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٤٩ .

(٧٣) كلوت بك : لحظة عامنة ج ٢ ص ٥٥ - ٥٨ ،

Lane : op. cit, p. 57, 506.

(٧٤) ابن حجر : انباء الغر ج ٢ ض ٣٧٦ ، المقرئى : السلوك

ج ٤ ص ٤٦٦ .

(٧٥) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٥٨٠ ، العيني : مقد الجمان

سنة ٧٢٢ هـ .

لأهل الطفل ، فيضعون هذا النقوط في :» الطشت الذي يطاهر فيه الولد «(٧٦) . فإذا كان الختان خاصاً بأحد أولاد السلطان نادى المنادى بذلك في القاهرة حتى يحضر الأمراء والناس أولادهم ليختنوهم بعد ابن السلطان . وبلغت أحياناً عدة الصغار الذين أحضرهم أهلهم لختنوهم بعد ابن السلطان أكثر من ألف وستمائة طفل من أبناء الفقهاء والعوام ، هذا عدا أبناء المقدمين والأمراء والجنود(٧٧) . وكثيراً ما طللت الأفراح الخاصة بهذه المناسبة ، فاستمرت أحياناً بين ثلاثة أيام وسبعة(٧٨) ، يأمر السلطان خلالها بعرض الجنود ولعب القبق بإظهاراً للفرح ، كما يفرق كثيراً من المهبآت والأموال والخلع(٧٩) .

ومن الاحتفالات العائلية أيضاً ما اعتاد أن يفعله الناس عند سفر أحد أفراد الأسرة للحج أو عند عودته من الحجاز . فقبل خروج الحاج الأداء فريضة الحج تخرج بعض قريباته ومعارف الأسرة ليطفن بالطرق والأسواق على هيئة مواكب ويرفعن أصواتهن بنوع من الأناشيد يسمونها « اتحنين » ، أي تشويق الناس للحج وزيارة مقام الرسول عليه الصلاة والسلام . وفي اليوم المحدد لخروج الحاج يركب جملاً مزينا بالحلوى من ذهب وفضة وأساور وقلائد ، هذا عدا كسوة حريرية فاخرة يلبسونها للجمل(٨٠) . فإذا ما قضى الحاج فريضة الحج ، ووصل المبشر يخبر سلامة الحجاج ، خرج أهل الحاج لاستقباله عند عقبة أيلة أو بركة الحاج وصحبتهم أنواع المأكولات

(٧٦) المقرئزي : السلوك ج ٤ ص ٤٦٦ ، ابن حجر : انباء الغمر

ج ٢ ص ٣٧٦ .

(٧٧) ابن دقاق : الجوهر ص ١١٧ .

(٧٨) العيني : عقد الجمان سنة ٧٢٢ هـ ، سنة ٧٧٧ هـ .

(٧٩) المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٥١٩ - ٥٢٠ ، ص ٦١٢ ،

ص ٧٨٥ .

(٨٠) ابن الحاج : المدخل ج ٤ ص ٢١٦ .

والمعلف « على العادة »^(٨١) . حتى اذا ما عاد الحاج إلى منزله أقيمت الأفراح والولائم وضرب على أبوابه بالطبل والأبواق والمزامير ، ويسمون ذلك « تهنئة الحاج »^(٨٢) .

هذا ، ويلاحظ في جميع الأفراح السابقة أنه كان لابد من الحصول على إذن ضامنة المغانى بعد دفع المال أو الرسم المقرر لها . فكان على النساء اذا تنفسن أو عرسن ، أو خضبت امرأة يدها بالحناء الحصول على ذلك الإذن . « ومن عمل فرحا بأغان أو نفس امرأته من غير إذن الضامنة حل به بلاء لا يوصف » . وقد ظل هذا الوضع سائدا حتى سنة ٧٧٨ هـ عندما أبطله السلطان الملك الأشرف شعبان^(٨٣) .

(٨١) السخاوى : اللبر المسبوك ص ١١٤ .

(٨٢) ابن الحاج : المدخل ج ٤ ص ٢١٦ .

(٨٣) المقرئى : الخطط ج ١ ص ١٠٦ (بولاق) .

الفصل الخامس

حياة المرأة ومكانتها في المجتمع

وَضَف ابن ظهيرة — من علماء القرن العاشر الهجري — نساء مصر بأنهن أرق نساء الدنيا طبعاً وأحلاهن صورة^(١) . والواقع أن المرأة المصرية في ذلك العصر تقننت في مختلف الوسائل التي تظهر جمالها وفتنتها ، فحرصت على العناية بنفسها وجسمها ، ودأبت على أن تأخذ شعر وجهها وجسدها بالتحفيف وشعر حواجبها بالمساواة والزينة^(٢) . وقد استرعى نظر تافور بالقاهرة ذلك العدد الكبير من العبيد السود الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة ويسبسون في الشوارع صائحين . فلما استفسر عن حقيقة أمرهم قيل له أنهم يقومون بتحفيف النساء اللاتي لا يرغبن في اتمام هذه العملية في الحمامات العامة^(٣) . أما ابن الحاج فأنكر على معاصريه من الرجال أن الواحد منهم يترك امرأته للمزين يحففها ويياشر بيديه خديها وشفتيها^(٤) .

ولم تقتصر نساء مصر في عصر سلاطين المماليك على تخصيص أياديهن بالحناء ، بل اعتدن أيضاً طلاء أظافرهن بطلاء أحمر اللون استرعى نظر بعض الرحالة الأجانب^(٥) . هذا خلاف الوشم الذي اعتادت كثيرات من النساء أن يزين به أجزاءً مختلفة من أبدانهن^(٦) .

(١) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ٨٠ ب .

(٢) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ١٦٧ ، ج ٤ ص ١٠٧ .

(٣) Tafut : Travels ; p. 101.

(٤) ابن الحاج : المدخل ج ٤ ص ١٠٧ .

(٥) Schefer : Voyage du Magnifique et ... p. 211.

(٦) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ١٦٧ .

فإذا أرادت الواحدة منهن الخروج إلى الطريق العام ارتدت أفخر ثيابها وتزينت وتعطرت ولبست من الحلى كل ما تقدر عليه^(٧) . ومن هذه الحلى القلائد المصنوعة من العنبر والتي سميت « العنبرية »^(٨) والأطواق المرصعة بالجواهر الثمينة^(٩) ، وفي اليمين الأساور المحلاة بالجواهر^(١٠) ، وعلى الرأس العصائب المزخرفة بالذهب واللؤلؤ^(١١) . هذا عدا الخلاخيل التي توضع فوق السراويل حتى تظهر للعيان « وقد تضرب برجلها في الغالب فيسمع له حس »^(١٢) .

ولجأت بعض النساء في عصر سلاطين المماليك إلى استغلال جمالهن وحسنهن للايقاع بالرجال ، فتخرج الواحدة إلى الشارع وقد استكملت زينتها ، وتسير أمام الناس في صورة مطفئة للنظر ، « ولهن في مشيهن صنعة »^(١٣) . فإذا طمع فيها أحد الرجال واستهوته وطلبها ردت عليه أنه لا يمكنها أن تذهب إلى أحد ، ولكنه يستطيع أن يتبعها إلى منزلها ! وهناك في منزلها يدفع الرجل ثمن شهوته غاليا ، إذ وصل ذلك الثمن أحيانا إلى حد قتله وسلب ما معه من أموال^(١٤) .

(٧) نفس المصدر والجزء ص ١٦٨ .

(٨) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ١٢٩ ، المقرئ : الخسط ج ٢ ص ١٦٦ . ويقول المقرئ ان هذا النوع من القلائد كان له سوق بالقاهرة يباع فيه العنبر يسمى العنبريين . وأضاف انه لا يكاد يوجد بأرض مصر في ذلك العصر امرأة — وان سفلت — الا ولها قلادة من عنبر .

(٩) المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٥٣٦ .

(١٠) نفس المصدر والجزء ص ٥٢٨ .

(١١) Dozy : Dictionnaire Détaillé ... p. 239.

(١٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ١٧٦ ، ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ١٦٨ .

(١٣) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٤٥ .

(١٤) المقرئ : السلوك ج ٤ ص ٤٢٦ ، ٨٢٣ ، أبو المحاسن : مورد الطاقة ص ٤٠ .

مكانة المرأة في المجتمع :

أما عن مكانة المرأة في المجتمع ، فيبدو أن المرأة تمتعت في عصر سلاطين المماليك بقسط وافر من الاحترام ، سواء في ذلك طبقة المماليك أم سائر طبقات الشعب . فالمماليك نظروا الى نساءهم نظرة تفيض بالاجلال والتقدير . وخصصوا لهم الألقاب مثل خوند وخاتون^(١٤٤) ، كما أصفوا عليهن في مكاتباتهم مختلف عبارات الاحترام والتبجيل ، مثلما يبدو بوضوح في مكاتبات السلاطين لبناتهم وزوجاتهم وأخواتهم^(١٤٥) . ولم يضمن سلاطين المماليك على نساءهم بالمال والمتاع حتى أننا « لو أردنا وصف ملبوس كل منهن وتجميل بيوتهن لاحتجنا الى عدة مجلدات »^(١٤٦) . وحسبنا أن احدى الخوندات توفيت ، فلما حصرت ثروتها بلغت نيفا وستمائة ألف دينار^(١٤٧) . أما ابنة الناصر محمد - وهي زوجة الأمير طاز - فخلفت ثروة طائلة تحدثت عنها المصادر ، ومن جملة هذه الثروة ثقباب مرصع قيمته أربعون ألف درهم أي ألفا دينار مصرية^(١٤٨) . وقد اعتاد بعض السلاطين أن يستصحبوا حريمهم في نزاهاتهم الخلوية عند بر الجيزة أو غير ذلك من المواضع ، وعندئذ يخرج حريم السلطان على الخيول في محفات مغطاة بالحريز الملون ، ويقود خيولهن بعض كبار الأمراء ، ويتبعهن أحمال عديدة من الحابر المغطاة بالحريز ، ويحيط بهن سائر الأمراء والمماليك

(١٥) كان لقب خوند خاصا بزوجات السلاطين ، ونراه في بعض المواضع يخاطب به السلاطين انفسهم . أما لفظ خاتون فمعناه في الاصل اميرة ثم أصبح يستعمل لتكريم المرأة بصفة عامة ، مثل السيدة أو الانسة . (زبدة كشف الممالك ص ١٢١) .

(١٦) القلقشندي : صبح الامشى ج ٧ ص ١٦٦ .

(١٧) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢١ .

(١٨) نفس المصدر والصفحة .

(١٩) المقرئزي : السلوك ج ٢ ص ٨٨٨ ، أبو المحاسن : النجوم

ج ٥ ص ١٠٤ .

والخدام^(٣٠) . فإذا خرجت زوجة السلطان أو أمه للحج ، فإنه يجهزها تجهيزاً عظيماً ، فتخرج في برج كبير وعلى محفتها العصائب السلطانية والكوسات تدق معها ، ويتبعها « قطار » من الجمال المحملة بكل أصناف الكماليات ، في حين يأمر السلطان عدداً من كبيراً من الأمراء بمصاحبتها في الطريق^(٣١) . وعند عودتها الى مصر بعد قضاء شعائر الحج يخرج السلطان لاستقبالها عند بركة الحاج خارج القاهرة ويحتفل بقدمها احتفالاً عظيماً^(٣٢) . كذلك يسرع الأمراء الى تقديم الهدايا الثمينة والتقدم الفاخرة اليها^(٣٣) . واذا سمع السلطان بمرض إحدى زوجاته فإنه يعودها مراراً . أما اذا وجد حالتها تستدعي « تغيير الجو » ، فإنه يسمح لها بالنزول الى بولاق حتى تتمتع برؤية النيل « ويذهب عنها الوخم »^(٣٤) . وعندما يتم شفاؤها يحتفل بذلك احتفالاً عظيماً فيتردد عليها أعيان الدولة من الأمراء والقضاة والأكابر للتهنئة ويجمع عند بابها أرباب الزمور والطبول والملاهي ، وتعمل في النيل مرامي النفط والصواريخ . ثم تعود خوند الى بيتها بالقلعة في موكب رائع وحولها المشاعل والشموع والفوانيس ، وخلفها عدد لا يحصى من الخوندات ونساء الأمراء^(٣٥) . أما اذا توفيت إحدى زوجات السلطان أو الأمراء فعندئذ ينزل كل الأمراء للصلاة عليها « ويعمل معها عظيماً » ويكثر السلطان أو الأمير من توزيع الصدقات والأموال على روح زوجته المتوفاة^(٣٦) .

(٢٠) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٢٥٦ — ٢٥٧ ، ج ٩ ص ٧٤ — ٧٥ .

(٢١) المقرئزي : الخطط ج ٤ ص ٢٥٠ ، ابن حجر : الدرر الكلمنة ج ٢ ص ٢٢١ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٢١٤ — ٢١٥ .

(٢٢) المقرئزي : السلوك ج ٢ ص ٢٣٥ .

(٢٣) ابن اياس : صفحات لم تنشر ص ٥٠ — ٥١ (سنة ٨٦٢ هـ) .

(٢٤) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٤٩ .

(٢٥) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٩ ، ابن

اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٤٩ .

(٢٦) المقرئزي : السلوك ج ٢ ص ١٦٥ ، ١٧١ .

وعندما تحمل احدى زوجات السلطان ، فانه يركز كل آماله في أن يكون المولود ذكراً « يحيى به ذكره وينشرح له صدره » (٢٧) . فاذا تم له ما يتمناه احتفل احتفالا كبيرا بالمولود ، كما تكرم أم المولود فيعمل لها بشخانه ودائر بيت زركش ، وغير ذلك من مظاهر التكريم التي تكلفه آلاف الدنانير مع استمرار الفرح سبعة أيام (٢٨) .

ولم يقتصر ذلك الاحترام للمرأة على نساء السلاطين وأمراءهم، فهناك من الشواهد ما بثبت احترام عامة الشعب المصري في عصر سلاطين المماليك لنسائهم . وخير شاهد على ذلك تلك الألقاب العديدة التي أطلقها الناس على نسائهم وبناتهم مثل ست الخلق وثست الحكام وست الناس وست القضاة وست الكل . . . وذلك من باب « الفقر والتركية والثناء والتعظيم » (٢٩) . واذا خرجت احدى النساء الى الطريق وكان زوجها مقتدرا فانه يحضر لها حمرا يقوده مكارى ويتبعها خادما (٣٠) . ورغم قلة الاشارات الى النساء وندرتها في المصادر المعاصرة ، فاننا نجد كثيرا منها يعبر عن الثناء والتقدير . فالسحاوى بصف احدى النساء المعاصرات بأنها « ذات رياسة وقناعة واتقان » ، وبحكى أنه عند موتها شيعت « في مشهد جميل » (٣١) والشعرانى — وهو من رجال الدين المحافظين — لا يتمالك شعوره نحو زوجته فيثنى عليها ثناء فياضا (٣٢) .

(٢٧) بيبرس الدوادار : زبدة الفكر ج ٩ ص ٣٠٤ .

(٢٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ١١٩ .

(٢٩) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٣٨ .

(٣٠) سيرة الظاهر بيبرس ج ٧ ص ٢٦ ،

Schefer : Voyage du Magnifique : p. 211.

(٣١) السحاوى : الضوء اللامع ج ١٢ ص ٤ ترجمة آمنة ابنة على

ابن أبى بكر البويطى .

(٣٢) زكى مبارك : التصوف ج ٢ ص ٢٧٩ .

(م ١٠ — المجتمع المصرى)

على أنه من المبالغة أن تصور المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، وقد قدر المرأة على طول الخط وأعطها المكانة اللائقة بها في المجتمع على أساس أنها شريكة الرجل وساعده الأيمن في الحياة . فإذا رأينا بعض الاشارات والعبارات التي تدل على تقدير المعاصرين للمرأة ، فان هناك في المصادر نفسها من الاشارات ما يفهم منها أن المرأة ظلت « محل الأزدراء والاستخفاف »^(٣٣) . ومن المآخذ التي أخذها العامة على بعض القضاة في عصر سلاطين المماليك أنه « اذا تحاكم اليه رجل وامرأته نضر المرأة » ، مما جعلهم يثورون على القاضى ويضربونه بالنعال وينهبون بيته^(٣٤) .

ولم يتورع بعض سلاطين المماليك عن ضرب امرأة بين يديه رتشهيرا على حمارة في الطريق العام وفي عنقها زنجير^(٣٥) . كذلك حدث في الفتنة بين منطاش والظاهر برقوق سنة ٧٩٢ هـ أن أمر منطاش بالقبض على أخوات الملك الظاهر وأخذهن حاسرات ومعهن جواريهن يسحبن بشوارع القاهرة ، فاختلط عويلهن ببكاء من شاهدهن من الناس^(٣٦) .

الجوارى :

ومن هذا نفهم أن المرأة مهما قدرت في المجتمع المصري في عصر المماليك إلا أن ذلك التقدير لم يصل الى الدرجة التي أصبح عليها في المجتمعات الحديثة . ويرجع السبب في ذلك الى أن نظرة المعاصرين الى المرأة قامت على أساس أن الله خلق المرأة للمتعة والاستغلال ليس الا . وظهرت هذه الفكرة بوضوح في شغف الناس باقتناء الجوارى

(٣٣) العيني : عقد الجمان سنة ٧٠٨ هـ .

(٣٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٤٢ ترجمة حسين بن محمد

ابن حسام الدين .

(٣٥) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٠٧ .

(٣٦) ابو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٤٩٢ .

الحسان ودفن الأموال الطائلة في شرائهن ، حتى أن السلطان الناصر محمد تزوج بأربع في حين وصلت حظاياها وجواريه الى أكثر من ألف ومائتين^(٣٧) . وحكى الأمراء وعامة الأهالي سلاطين المماليك في الإكثار من شراء الجوارى ، كل حسب سعته . وقد عرف في ذلك العصر نوعان من الجوارى : البيض والسود ، وهناك من سلاطين المماليك — مثل الصالح اسماعيل — من فضل السود لعى البيض^(٣٨) . وتوقفت قيمة الجارية ومنزلتها عند صاحبها على ما فيها من مميزات كحسن الطلعة أو جمال الصوت أو غير ذلك من المؤهلات^(٣٩) . وكان بالقاهرة في ذلك العصر أسواق لبيع الرقيق « كما تباع الأنعام والمواشى »^(٤٠) . ولكل سوق منها دلال يجيد عرض « البضاعة » والترويج لها ، وإظهار محاسن الجارية ذات الوجه الجميل أو الصوت العذب ، أو غير ذلك من ضروب الفتنة والإغراء^(٤١) . وفرض السلاطين على هؤلاء الدلالين ضريبة تعادل نصف الدلالة أو السمسرة ، وظلت هذه الضريبة حتى أبطها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٥ هـ^(٤٢) .

وكثيرا ما تزوج السيد جاريته — الى جانب زوجته الحرة — وفي هذه الحالة اشترط الفقهاء ضرورة عتق الجارية قبل العقد عليها^(٤٣) . ويتواتر في المصادر المعاصرة أسماء كثيرات من الجوارى

(٣٧) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٢١٠ ، حواشي الدهور ج ٢ ص ٢٢٩ .

(٣٨) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٧٢٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٣٤ .

(٣٩) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ سنة ٧٩٢ هـ .
Larnvaz : op. cit, pp. 50 — 51. (٤٠)

(٤١) سهر القلماوى : الف ليلة وليلة ص ٢٣١ .

(٤٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٤٥ .

(٤٣) ابن حجر : رفع الاصر ص ١٩٦ ب .

قدر لهم أن يلعبن أدوارا هامة في قصور السلاطين والأمراء ، بل حدث أن تزوج السلاطين بعضهن فارتفعن الى منزلة خوند الكبرى في الأدر الشريفة ، كما حدث في عهدي الظاهر خشقدم والأشرف برسبای^(٤٤) . وكثيرا ما نسمع في ذلك العصر أن نخصما اشترى جارية لخدمته فتحقد الجارية على سيدتها وتتملكها الغيرة وتعهد الى قتلها حتى يخلو لها وجه سيدها^(٤٥)

وجرت العادة في ذلك العصر أنه اذا دخل السلطان أو الأمير الحمام ، صحبتته بعض الجوارى لخدمته في الحمام^(٤٦) . وفيما عدا اللذة الجنسية اقتنى السلاطين والأمراء الجوارى للغناء والطرب حتى أصبح من الأشياء المألوفة في عصر الماليك أن يكون لكل ملك أو أمير جوقة مغان كاملة من الجوارى^(٤٧) . ويروي المقرئ في حوادث سنة ٧٤٨ هـ أن حدث في تلك السنة أن « عرضت جميع الجوارى اللاتي بالقلعة ، ورسم بتزوج من أعنق منهن ، وفرق باقيهن »^(٤٨) .

ولكن على الرغم مما ذكرته المصادر المعاصرة عن المكانة السامية التي تمتعت بها بعض الجوارى عند سادتهن^(٤٩) ، إلا أن هناك اشارات عديدة في هذه المصادر الى ما تعرضت له الجوارى أحيانا من الأذى والامتهان ، نتيجة لوضعهن الاجتماعي واعتبارهن سلعة لصاحبها مطلق التصرف فيها . وحسبنا ما جاء في قصة مريم الزنارية —

(٤٤) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٧٣٨ ، ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ٢٦٩ ب ، المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٥٩٢ .

(٤٥) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٣٤ ، المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٨٧٢ .

(٤٦) سيرة الظاهر بيبرس ج ٢١ ص ٣١ .

(٤٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٧٩٢ .

(٤٨) المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٧٤٦ .

(٤٩) العيني : عقد الجمان سنة ٧٢١ هـ ، أبو المحاسن : النجوم

ج ٥ ص ٢٤ .

من قصص ألف ليلة — عندما عادت مريم الى أمها فسألتها عن حالها وهل هي بكر أم لا ، فردت الفتاة على أمها « يا أمى ! بعد أن يباع الانسلن في بلاد المسلمين من تاجر الى تاجر يصير محكوما عليه ، فكيف أبقى بنتا بكرا ؟ ان التاجر الذى اشترانى هددنى بالضرب وأكرهنى وأزال بكارتى ثم باعنى لآخر . . . » (٥٠) . هذا الى أن بعض السادة أكثروا من إيذاء جواريتهم ، حتى حكى عن بعضهم أنه كان اذا ضرب احدى جواريه ، فان ضربه لها يتجاوز الخمسمائة عصاة (٥١) .

ويلاحظ أن الجوارى عشن فى قصور السلاطين والأمراء جزءا أساسيا من الحريم ، فطبق عليهم من قواعد العزلة والحجاب ما يطبق بالضبط على حريم السلطان أو الأمير . والفئة الوحيدة التى أبيع للأفرادها غشيان الحريم هى فئة الطواشية والخميان ، بحكم ما لهم من وضع اجتماعى خاص (٥٢) .

المرأة والحياة العامة :

أما عن نصيب المرأة فى الحياة العامة بمصر على عصر سلاطين المماليك ، فهو بلا شك نصيب كبير يسترعى الانتباه . ذلك أنه رغم القيود الاجتماعية التى فرضتها التقاليد على المرأة فى ذلك العصر ، فانها أسهمت بنصيب وافر فى الحياة العامة . وحسبنا أن السخاوى أفرد جزءا كاملا من كتابه « الضوء اللامع » ذكر فيه ما يزيد عن الألف ترجمة ، كلها لنساء توفين فى القرن التاسع الهجرى ولعظمن نصيب كبير فى الحياة العامة بمصر فى ذلك القرن (٥٣) .

-
- (٥٠) ألف ليلة وليلة — قصة مريم الزنارية ج ٤ ص ١٠٨ .
(٥١) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٥٠٥ .
(٥٢) قال السيوطى — وهو معاصر — عن الخصيان أن نظرة الخصى الى النساء « كنظرة الفحل الى المحارم » ، كما قال أن الخصى ينتقضون الوضوء باللمس شأنهم فى ذلك شأن النساء (السيوطى : أحكام العقيان فى أحكام الخصيان ص ١ ، ٢ ، ٣) .
(٥٣) السخاوى : الضوء اللامع ج ١٢ .

ونسلم عن بعض السلاطين والحكام — كالسلطان إينال — أنهم استسلموا لزوجاتهم ، حتى أصبحت الواحدة منهن على جانب كبير « من نفوذ الكلمة ووفور الحرمة في الدولة وطواعية السلطان لأوامرها » (٥٤) . وفي هذه الحالة يصبح السلطان أو الأمير « لا اختيار له معها » (٥٥) . كذلك وصف أبو المحسن خوند زينب — زوجة السلطان إينال — بأنها « صار لها نصيب وافر مع السلطان في كل هدية ورشوة » (٥٦) . كما وصفها ابن اياس بأنها « صارت تدبر أمور المملكة من ولاية وعزل » (٥٧) . ومثل هذه الأوصاف نجد لها أشباها كثيرة لبعض نساء الماليك : كأم السلطان شعبان (٥٨) وزوجة السلطان برسباي وغيرهن (٥٩) .

وهناك أدلة واقعية كثيرة تثبت تدخل نساء السلاطين والأمراء في شئون الحكم ومشاركتهم في توجيه سياسة الدولة . وأول هذه الأمثلة شجر الدر التي وصفها المؤرخون بأنها كانت « صعبة الخلق قوية البأس » (٦٠) ، والتي استطاعت أن تنتقد البلاد وتدير شئونها في فترة عصيبة من أخرج فترات التاريخ المصرى ، فضلا عن أنها تولت منصب السلطنة وقضت فيه ثمانين يوما برهنت فيها على كياسة عظيمة وذكاء وافر (٦١) . كذلك حدث سنة ٦٧٦ هـ عندما شب الخلاف بين الملك السعيد وأمرائه ، أن بعث الملك السعيد أمه لمفاوضة الأمراء

-
- (٥٤) أبو المحسن : حوادث الدهور ج ٢ ص ٢٢٩ .
(٥٥) السخاوى : الضوء اللامع ج ١٢ ص ٥٤ — ٥٥ ترجمة زينب بنته العلاء .
(٥٦) أبو المحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٦٥ .
(٥٧) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٨٩ .
(٥٨) ابن قاضى شعبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ج ٤ ص ٢١٤ .
(٥٩) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٤٧٩ .
(٦٠) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٩١ .
(٦١) انظر كتاب « مصر في عصر دولة الماليك البحرية » للمؤلف ص ١٤ — ٢٢ .

في الصلح ، فأظهروا لها كل احترام واشترطوا عليها شروطا كثيرة ، التزمت لهم بها وعادت الى ولدها لتخبره بنتيجة وساطتها^(٦٢) . وتكررت هذه القصة في دولة سلاطين المماليك أكثر من مرة عندما تدخلت نساء السلاطين للإصلاح بينهم وبين أمرائهم^(٦٣) . ويروى المقرئزي كيف تطرف بعض الولاة سنة ٧٣٧ هـ في مصادرة التجار وانزال المظالم بهم ، فقام كثير من كبار الأمراء ليشفعوا للتجار ولكن السلطان لم يسمع لأحدهم قولا ، حتى اذا قامت ست حدق زوج السلطان الناصر محمد في رفع الظلم عن التجار وعندئذ استمع السلطان لرجائها ونفذ رغبتها فورا^(٦٤) . وكثيرا ما تقرأ في الكتب المعاصرة أن زوجة أحد السلاطين أو جاريتها تسببت في إلغاء مكس من المكوس ، كما قال ابن حجر، عن طغاي زوج الناصر محمد « وبسببها أبطل الناصر عن مكة المكس الذي كان يؤخذ على القمح »^(٦٥) . وعندما أدرك المعاصرون سلطة النساء ونفوذهم صاروا يوسطون اقتضاء حوائجهم . فلإذا تعذر على تاجر قضاء مطلب عند أهل الدولة ، بحث عن الطريق الذي يوصل به شكواه الى حريم السلطان ، وعندئذ تقضى حاجته فورا^(٦٦) . وقد حكى السخاوي عن العلم البلقيني أنه توصل الى منصبه عن طريق زوجته « لمزيد اختصاصها بخوند العظمى »^(٦٧) .

ولم يقتصر نصيب المرأة في الحياة العامة على التدخل في بعض شئون الدولة ، وانما شاركت أيضا مشاركة فعالة في الحياتين العلمية

-
- (٦٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .
(٦٣) زيتر شتين : تاريخ المماليك ٣٠ .
(٦٤) المقرئزي : السلوك ج ٢ ص ٤١٢ .
(٦٥) ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ١٠١ ، الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٢١ ترجمة طغاي أم أتوك ، ابن قاضي شهبة : الاعلام ج ٥ ص ٢٥ .
(٦٦) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ١١٦ .
(٦٧) السخاوي : الضوء اللامع ج ١٢ ص ٢٥ ترجمة خديجة ابنة امير هاج .

والدينية • ويسجل التاريخ أسماء كثيرات ممن اشتهغن في عصر سلاطين المماليك بالنحو وحفظن فيه الشيء الكثير ، كما نظمن الشعر (٦١٨) • أما من اشتهغن بالفقه والحديث فعددهن لا يحصى • ودأبت الكثيرات منهن على التنقل بين الشام ومصر — شأن فقهاء ذلك العصر — للسمع من كبار المحدثين والعلماء (٦٩) • كذلك اشتهر بعضهن في الحديث بصحيح البخارى في قلعة الجبل ، الى جانب الفقهاء (٧٠) • وكثير من كبار فقهاء عصر المماليك سمعوا من بعض المسندات الشهيرات اللائى أجزن لهم (٧١) • ولم يأنف هؤلاء الفقهاء — مع عظم مكانتهم — من الاعتراف بذلك ، بل على العكس افتخروا بأنهم سمعوا عن فلانة وفلانة من المحدثات وأن بعضهن أجزن لهم • فابن حجر يذكر أنه حصل على إجازتين الأولى من شمس بنت ناصر الدين محمد ، والثانية من خديجة بنت العماد الصالحية (٧٢) • والسخاوى يصف كيف تراحم طلبة العلم في عصره على احدى المحدثات ، ويفخر بأنه ممن حملوا عنها كما أخذ عن غيرها (٧٣) • كذلك يذكر السخاوى أسماء كثيرات ممن أجزن له مثل أمينة ابنة الشمس المتوفاه سنة ٨٦٧ هـ ، وأمة الخالق ابنة الزين عبد اللطيف المتوفاه سنة ٨٨٣ هـ ، ورجب ابنة الشهاب أحمد المتوفاه سنة ٨٦٩ هـ وأم هانئ ابنة التقي محمد المتوفاه سنة ٨٨٥ هـ (٧٤) •

-
- (٦٨) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٩٥ ، السخاوى : الضوء اللامع ج ١٢ ص ٩ •
- (٦٩) العيني : عقد انجمان سنة ٧١٦ هـ ، ذيل الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ج ٢ ص ٢٠٧ •
- (٧١) السخاوى : الضوء اللامع ج ٢ ص ١١٩ ترجمة احمد بن محمد بن عبد الرحمن القاهرى ، ابن قاضى شعبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ج ٢ ص ٩٢ •
- (٧٢) ابن حجر : انباء القهر ج ١ ص ٥٥٥ •
- (٧٠) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٦٩ •
- (٧٣) السخاوى : الضوء اللامع ج ١٢ ص ١٠ — ١١ ترجمة آنس بنت عبد الكريم ، ص ١٣١ ترجمة هاجر ابنة المحدث الشرف أبى الفضل •
- (٧٤) السخاوى : الضوء اللامع ج ١٢ ص ٤ ، ٩ ، ١٣٤ ، ١٥٩ •

وفي عصر سلاطين 'المماليك' ظهر بوضوح اقبال عامة النساء على مجالس العلم والدين، فحرصت كثيرات منهن على الذهاب الى المجالس حيث يجلسن في مكان منفرد عن الرجال لسماح الدروس الدينية^(٧٥) . وقد خص بعض الفقهاء والوعاظ النساء دون الرجال بعلمهم^(٧٦) ، وحثتهم في ذلك أن النساء لا يعلمن أحد من أزواجهن شيئاً ، ولذلك يجب اعطائهن عناية خاصة حتى يعرفن أحكام الدين وما لهن من حقوق وما عليهن من واجبات الزوجية والجبيرة^(٧٧) . والى جانب هؤلاء الوعاظ من الرجال ظهر عدد كبير من الوعظاء، اللائي تخصص في وعظ النساء وتعليمهن وتحفيظهن القرآن^(٧٨) .

كذلك سلكت بعض النساء في عصر المماليك طريق التصوف ، فلبسن الخرق كما يلبسها التصوفة من الرجال وأطلق عليهن الشيخات^(٧٩) ومن زوجات السلاطين — مثل خوند شكرباي زوجة الظاهر خنقدم — من وصفت بأنها « تميل الى طريقة الفقراء ولبست الخرقاة الأحمدية »^(٨٠) . ولازمت هؤلاء المتصوفات الزوايا والأربطة التي خصصت لهن تحت رئاسة شيختهن^(٨١) كذلك حرصت الشيخات على أن يلبسن الصوف لمن تتوب على يدها وتدخل في طريقتهن ، مثلما يفعل

-
- (٧٥) ابن الحاج : المدخل ج ٣ ص ٢١٩ .
(٧٦) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ٨٤٥ ، السخاوى : الضوء اللامع ج ٢ ص ١١١ ترجمة ابو العباس أحمد الزاهد .
(٧٧) طبقات الشعرائى ج ٢ ص ١١١ .
(٧٨) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٣٦٠ ترجمة أسماء بنت الفخر ابراهيم ، ج ٢ ص ٢١٣ ترجمة حنيفة بنت المحدث ، و ترجمة عائشة بنت ابراهيم ، ج ٣ ص ٢٢٦ ترجمة فاطمة بنت عباس انواعظة .
(٧٩) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ٨٤١ .
(٨٠) ابن اياس : صفحات لم تنشر ص ١٥٩ ، ١١٣ .
(٨١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٢٦٩ ، الخطط ج ٤ ص ٢٩٢ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٦١ ، السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٦٤ .

مشايخ الصوفية من الرجال • وقد عاب ابن الحاج على المتصوفات في عصره رفع أصواتهن بالذكر ، وقال أن العجيب في هؤلاء الشيوخات أنهن لا يميضن الى موضع لعمل الذكر فيه الا بعد دفع الرسم المقرر «لضامنة المغانى» (٨٢) •

أما عن نشاط النساء في شوارع المدينة وأسواقها ومنتزهاتها فكان عظيما على عصر سلاطين المماليك • فمجالس الخلاعة بالقاهرة زحرت بالنساء الى جانب الرجال (٨٣) • ولاحظ سانوتو Sanuto الذى زار مصر في عصر المماليك أن النساء يتمتعن بقسط وافر من الحرية ، حتى أن بعضهن يتخين عن منازلهن في أوقات كثيرة من النهار ، ومع ذلك قلما يتعرضن للوم أزواجهن (٨٤) • كذلك ذكر ابن الحاج أن النساء في عصره يباشرن معظم أمور الشراء من الأسواق «بل الغالب أن المرأة تشتري لزوجها ما يحتاج اليه في لباسه لنفسه» (٨٥) • فاذا لم يكن لهن حاجة من السوق فانهن يذهبن الى الحمامات العامة حيث يأنسن ببعض ، أو يذهبن الى الأعراس التى لا انضباط فيها على القوانين الشرعية (٨٦) • وكثيرا ما خرجت النساء الى القرافات والبرك وشاطئء النيل وغيرها من أماكن اللهو والفرجة ، حيث ينكشف ستر الحياء ، ويختلط النساء بالرجال ، الأمر الذى أثار الفقهاء ورجال الدين فنادوا بمنع النساء من الخروج على ذلك الوجه (٨٧) • ولذلك حاول بعض السلاطين منع النساء من الخروج الى لطرفقات أو الذهاب الى المقابر

(٨٢) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ١٤١ — ١٤٢ •

(٨٣) الجويرى : المختار فى كشف الأسرار ص ٣٥ •

(٨٤) Schefer : Le Coyage d'Ontremer; p. 33. (٨٤)

(٨٥) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٥٥ •

(٨٦) زكى مبارك : التصوف ج ١ ص ٣٤٢ •

(٨٧) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ١٧ — ٢٣ •

ومواضع الغزوة ، ولكن ذلك المنع لم يستمر الا زمنا محدودا يعود بعده الحال الى ما كان عليه من قبل^(٨٨) .

هذا عن نساء المدن ونصيبيهن في الحياة العامة ، أما الفلاحة في الريف فكانت في عصر المماليك - كما هي اليوم - تنهض بنصيب في الحياة لا يقل جهدا ومشقة عن نصيب زوجها . فعليها يقف عبء جلب مياه الشرب من النهر أو الترعة ، وغسل الملابس فيها ، وعمل «الجواليس» الجلجلة ليليسوا بها بيوتهم وأفرانهم » . هذا زيادة على ارضاع أطفالها واعداد الطعام لزوجها ، ووقيد الفرن اخبز الخبز « وتدميس الفول وطبخ البيسار وتقمير البتاو »^(٨٩) .

(٨٨) المقرئى : السلوك ج ٤ ق ٣ ، ص ١٢٠٦ ، سنة ٨٤٤ هـ .
(تحقيق المؤلف) ، أبو المحاسن : المنجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٣٠ .
(٨٩) الشريينى : هز التحوف ص ٥٤ .

الفصل السادس

الحياة العلمية والدينية

نشاط الحياة العلمية

أصبحت مصر على صر سلاطين المماليك محسورا لنشاط علمي كبير، فقصدتها العلماء وطلاب العلم من مختلف الأقطار شرقها وغربها وخير دليل على هذا النشاط ما خلفه علماء ذلك العصر من تراث ضخم في مختلف العلوم والفنون . ومما جعل مصر محورا للنشاط العلمي ما أصاب المسلمين في القرن السابع الهجري من كوارث على أيدي المغول في العراق والشام وعلى أيدي المسيحيين في الأندلس ، اذ تحول كثير من علماء تلك الأقطار الى مصر واختاروها محلا لإقامتهم ونشاطهم . ويشبه ذلك من بعض الوجوه ما حدث في غرب أوروبا بسبب سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م ، لأن سقوط بغداد في أيدي المغول سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م جعل علماءها يهاجرون الى مصر وغيرها من البلاد الواقعة بين بغداد والقاهرة . ثم ان احياء الخلافة العباسية بمصر عنى أيدي المماليك سنة ٦٥٩ هـ هيا القاهرة الآن تراث بغداد وتصبح مركز النشاط العلمي والديني في العالم الإسلامي^(١) .

ولم يكن سلاطين المماليك وأمراؤهم بعيدين كل البعد عن ذلك النشاط العلمي الذي ساد مصر في عصرهم . وقد وصف أبو المحاسن السلطان الظاهر بيبرس بأنه « كان يميل الى التاريخ وأهله ميلا زائدا

(١) ذكر ابن حجر أن بعض علماء الشام وغيرها من البلاد الإسلامية ، قتلوا عن بلادهم « هذا بلد ضيق عن علمي » وهجروها الى مصر .
(ابن حجر : رفع الاصر . عن قضاة مصر ص ١٦٨ ب) .

ويقول سماع التاريخ أعظم من التجارب^(٣) . كذلك وجد من سلاطين المماليك - كالسلطان الغورى مثلا - من حرص على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة مرة أو مرتين أو أكثر كل أسبوع^(٤) . وقد بحثت في تلك المجالس مختلف المسائل والمشاكل العلمية والدينية وتناقش فيها الحاضرون من كبار العلماء والفقهاء . وكثيرا ما كان السلطان نفسه هو الموجه للمناقشة ، فتبدأ كل مسألة بعبارة « قال حضرة مولانا السلطان . . » ثم يأتي الرد على سؤاله من جانب العلماء ويتضح من دراسة هذه الأمثلة أنها لم تقتصر على ناحية واحدة من نواحي المعرفة ، بل تناولت النواحي الدينية والتاريخية والاجتماعية وغيرها^(٥) . كذلك نسمع عن بعض أمراء المماليك وأبنائهم في مصر أنهم اشتغلوا بالتاريخ والفقہ والحديث واللغة العربية ، بل تصدى بعضهم لاقراء الطلبة والتدريس لهم^(٦) . ويكفى أن أذكر القارىء بأن اثنين من المؤرخين الذين اعتمدت على مؤلفاتهم في وضع هذا الكتاب يرجعان الى أصل ممالكي ، هما أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى وبيبرس الدوادار .

المدارس :

وأعظم دليل على النشاط العلمى في عصر المماليك كثرة المدارس التى أنشأها السلاطين من عهد السلطان بيبرس فصاعدا حتى عهد السلطان الغورى . ولا مبالغة في قول القلقشندى أن هؤلاء السلاطين بنوا من المدارس « ما مالا الأخطاط وشحنها »^(٦) . كذلك ذكر ابن بطوطة عن مدارس مصر في القرن الثامن أنه « لا يحيط أحد بحصرها

-
- (٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٨٢ .
 - (٣) عبد الوهاب عزام : مجالس الغورى ص ٤٩ .
 - (٤) الكوكب الدرى في مسائل الغورى .
 - (٥) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٢١ ، ٤١٥ .
 - (٦) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

لكثرتها» (٧) ، وعدد منها الكثير في مختلف المدن المصرية بالصعيد والوجه البحرى (٨) .

والواقع أنه لا يمكن القول بوجود سياسة تعليمية للدولة أو السلاطين في عصر المماليك ، وكل ما هنالك هو أن سلاطين المماليك وأمراءهم أجمعوا في بناء المدارس والمكاتب والمساجد (التي قامت أحيانا بوظيفة المدارس) مدفوعين الى ذلك بعدة عوامل منها التقوى والزلفى ، واستخدامها في محاربة المذهب الشيعى ، ومنها اتخاذ المدرسة أداة تضمن بقاء الحكم في أيديهم ودعم مركزهم في أعين الشعب (٩) .

وجرت العادة عند الفراغ من بناء مدرسة أن يحتفل بافتتاحها ، فينزل السلطان اليها في جمع من أمرائه ، ويجتمع الفقهاء والقضاة والأعيان في صحن المدرسة حيث يمد سماط زاهر بمختلف ألوان الأطعمة من لحوم الخيل والخراف والأوز والدجاج فضلا عن الحلوى والفواكه ، كما تملأ فسقية المدرسة بشراب السكر والليمون فيأكل جميع المدعوون ، وتنتهب العامة بقية السماط . ثم يخلع السلطان على كل من أسهم في بناء المدرسة من المعلمين والبنايين والمهندسين (١٠) ، كما يعين للمدرسة موظفيها من المدرسين والفقهاء والمؤذنين والقراء والفراشين وغيرهم (١١) .

وقد وصف المقرئى الاحتفال بافتتاح المدرسة الظاهرية التى

(٧) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٧٠ .

(٨) نفس المصدر والجزء ص ٩٦ - ١٠٠ .

(٩) Ibrahim Salama : L'Enseignement

Egypte, pp. 60 — 64.

(١٠) ابو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٢٨١ ، المقرئى : السلوك

ج ٣ ص ٤٦٤ .

(١١) ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٧٧٢ ، ابن حبيب : درة

الأسلاك ج ٣ ص ١٥٩ .

بدأ السلطان الظاهر بيبرس عمارتها سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) واستغرق بناؤها سنتين ، فذكر كيف اجتمع أهل العلم فيها « وحضر القراء وجلس أهل كل مذهب في ايوانهم ، وفوض تدريس الحنفية للمصدر محمد الدين عبد الرحمن وتدریس الشافعية للشيخ تقي الدين محمد ابن الحسن ، والتصدير لاقراء القرآن للمفقيه كمال الدين المحلى ، والتصدير لاقادة الحديث النبوى للشيخ شرف الدين عبد المؤمن وذكروا الدروس ومدت الأسمطة ، وأتشد جمال الدين » (١٢) .

كذلك يفهم من الوصف الذى ذكره النویری للمدرسة الناصرية التى شيدها السلطان الناصر محمد سنة ٧٠٣ هـ أن المدرسة كان بها أربعة أواوين ، كل منها خاص بأحد مدرسى المذاهب الأربعة ، فالمدرس المالكي اخص بالايوان القبلى والشافعى بالايوان البحرى والحنفى بالايوان الشرقى والحنبلی بالايوان الغربى (١٣) .

وكانت وظيفة التدريس بالمدرسة جليلة القدر ، يخلق السلطان على صاحبها (١٤) ويكتب له توقيعا من ديوان الانشاء يختلف باختلاف المادة التى يدرسها المدرس ان كانت تفسيراً أو حديثاً . وفى هذا التوقيع يقدم السلطان النصيح للمدرس بأن يظهر « مكتون علمه » لطلاب ، ويقبل على الدرس وهو طلق الوجه منشرح الصدر ليستميل اليه طلبته ، « ويرببهم كما يربى الوالد ولده » (١٥) . كذلك طلب من المدرس « أن ينظر فى طلبته ويحثهم كل وقت على الاشتغال » (١٦) . وجرت العادة على تعيين معيد أو أكثر لكل مدرس ، ليعيد للطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ليفهموه ويحسنوه كما يشرح لهم ما يحتاج الى

(١٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٠٤ .

(١٣) النویری : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٢٤١ ب وما بعدها .

(١٤) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٠٤ .

(١٥) القلقشندى : صبح الاعشى ج ١١ ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(١٦) النویری : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٢٤١ ب وما بعدها .

الشرح^(١٧) . وقد نصت حجة وقف المدرسة الناصرية على أن يعين ناظر الوقف لكل مدرس من مدرسى المدرسة « من المعيدين والطلبة ما يراه من العدد ، وينتصب كل معيد ممن عين في جهته الأهل مذهبه لاستعراض طلبته ، ويشرح لمن احتاج الشرح درسه ويصحح له مستقبله ويرغب الطلبة في الاشتغال ، ولا يمنع فقيها أو مستفيدا ما يطلب من زيادة تخرار وتفهم معنى ، ولا يقدم أحدا من الطلبة في غير نوبته الا لمصلحة ظاهرة » . أما الطلبة فقد تمتعوا بحرية اختيار المواد التي يدرسونها بحيث « لا يمنع فقيه أو مستفيد من الطلبة بما يختاره من أنواع العلوم الشرعية^(١٨) » . وكثيرا ما اعتمد هذا الاختيار على مكانة المدرس وشهرته العلمية ، فابن حجر مثلا - وهو من كبار فقهاء القرن التاسع الهجرى - اعتاد أن يجتمع حوله بضعة آلاف من المستمعين والستملين^(١٩) . ويظل الطالب يحضر دروس أحد المدرسين أو الشيوخ حتى يأخذ منه كفايته فينتقل الى آخر ، وهكذا حتى قال السيوطى عن نفسه « أخذت العلم عن ستمائة شخص »^(٢٠) . كما أخذ السخاوى العلم عن أكثر من أربعمائة نفس^(٢١) . وتطلبت هذه الطريقة من طالب العلم أن يجول في مختلف البلاد والأقطار ليسمع من مشاهير العلماء فيها . لذلك كان من الأمور المألوفة في ذلك العصر أن يطوف طالب العلم بمختلف مدن العالم الاسلامى ليتلمذ على هذا الفقيه أو ذاك المحدث^(٢٢) .

وقد ألحقت بكل مدرسة خزانة كتب يرجع اليها المدرسون

-
- (١٧) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٠٠ حاشية ٣ ، الذهبى : تاريخ الاسلام ج ٣٣ ص ١٦٤ .
(١٨) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ١٥ .
(١٩) Ibrahim Salama : op. cit. p. 81 .
(٢٠) الشعرانى : ذيل لواقع الأنوار ص ٣ ب .
(٢١) العيدرورى : النور السافر ص ١٦ - ١٧ .
(٢٢) الدمشقى : ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٤ .
(م ١١ - المجتمع المصرى)

الطلاب في البحث والاستقصاء^(٢٣) . وقام بالاشراف على خزانة الكتب بالمدرسة « خازن الكتب » الذي عهد اليه بترتيب الكتب وتنظيمها وحفظها وحكها وترميمها بين حين وآخر ، فضلا عن ارشاد القراء الى ما يلزمهم من مراجع . لذلك كان يختار لخزانة الكتب في المدرسة فقيها أو عالما يراعى فيه سعة العلم والأمانة . وضمت خزائن الكتب بالمدارس أنواعا عديدة من المؤلفات في مختلف العلوم والفنون « من تفسير وحديث وفقه ولغة ومعان وبيان وبديع وأصول فقه وأصول دين ومنطق وغير ذلك من نحو وصرف وغيرها »^(٢٤) . وأطلقت حجة وقف المدرسة الناصرية اسم « شاهد خزانة الكتب » على الأمين أو الخازن ، وجددت عمله بأن « يحفظ ما فيها من الكتب ويضبط ما يؤخذ منها للاستعمال بها ، بحيث لا تخرج الكتب من المدرسة »^(٢٥) . أما حجة وقف الغورى فقد نصت على أن يقوم الخازن بفتح الخزانة (المكتبة) يومين في الأسبوع لطلبة العلم ، « ومن طلب منه كتابا في علم من العلوم أو فن من الفنون يدفع له لينتفع به في المدرسة ، ولا يمكنه من الخروج به من المدرسة ولو دفع اليه شيئا يساوى أضعاف قيمته » على أنه يستفاد من بعض الوثائق الأخرى التي ترجع الى عصر الماليك أنه سمح باعارة الكتب خارج المدرسة لطلبتها أو لمن يوثق به « بعد أخذ خطة منه ، ولم يكن يسمح الا باعارة كتاب واحد فاذا أعاده مسح اسمه ، وألا تتأخر الكتب عند المستعير حتى لا يحصل النسيان ، بل يتعهدا الخازن بالسؤال »^(٢٦) .

فاذا أتم الطالب دراسته وتأهل للفتيا والتدريس أجاز له شيخه

(٢٣) القلقشندى : صبح الاعشى ج ١ ص ٤٦٧ .

(٢٤) حجة وقف الغورى (ارشيف الاوقاف) .

(٢٥) الزويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٣٤١ ب وما بعدها .

(٢٦) عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية واثريه ج ١

تحقيق ٦٢٨ .

ذلك ، وكتب له إجازة يذكر فيها اسم الطالب وشيخه ومذهبه وتاريخ الإجازة وغير ذلك^(٢٧) . وهناك أنواع أخرى من الإجازات عرفها المعاصرون ، منها الإجازة « بعراضة الكتب » ، فيحفظ الطالب كتابا في الفقه أو النحو مثلا ثم يعرضه على أحد مشايخ عصره ، فيفتح الشيخ الكتاب ويستقرأ الطالب في عدة أماكن متفرقة ، فإذا مضى الطالب فيها من غير توقف أو تلثم كتب له شهادة بذلك « عرض على فلان . . . »^(٢٨) . وتتوقف قيمة الإجازة على سمعة الشيخ الذي صدرت عنه ومكانته العلمية . وهناك من أساتذة وشيوخ ذلك العصر من وصف بأنه « عسر على الطلبة » بمعنى التشديد عليهم وعدم الإجازة لهم في سهولة^(٢٩) .

ولم تخل الحياة العلمية في مدارس العصر المالكي من ضروب الترويح عن النفس ، فأقيمت بالمدارس بين حين وآخر حفلات لمختلف المناسبات العلمية كختم البخاري^(٣٠) أو الفراغ من تصنيفه كتاب^(٣١) وفي مثل هذه الحفلات المدرسية يقوم الداعي باحضار « الحلوى والمخبوز والتفاح والفاكهة والبخور » حتى تصل نفقات الحفلة أحيانا الى خمسمائة دينار . ويجلس أهل المدرسة ومعهم الأعيان والقضاة وغيرهم حيث يمضون بعض الوقت في أحاديث ومناقشات علمية مفيدة وربما صرفت المدرسة على الحفلة من أوقافها .

والواقع أن الأوقاف والأحباس هي التي ثبتت أركان المدرسة ودعمت نظامها ومكنتها من القيام برسالتها في عصر الماليك . وقد

(٢٧) القلقشندي : صبح الامشى ج ١٤ ص ٣٢٢ - ٣٢٦ .

(٢٨) نفس المصدر والجزء ص ٣٢٧ .

(٢٩) الذهبي : تاريخ الاسلام ج ٣٣ ص ١٤١ .

(٣٠) السخاوي : التبر المسبوك ص ٢١٦ .

(٣١) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٨٥٥ - ٨٦٠ ، السخاوي :

النذيل على رفع الاصر ص ٨٣ - ٨٤ .

بلغت الأراضى المحبوسة على المدارس والمساجد والزوايا في عهد الناصر محمد بن قلاوون مائة وثلاثين ألف فدان^(٣٣) . ولم تقتصر الأوقاف على الأراضى بل شملت كثيرا من البيوت والأسواق والمعاصر وغيرها^(٣٣) . وهكذا جرت العادة في ذلك العصر بأن ينشئ السلطان أو الأمير المدرسة أو المكتب ويقف على ذلك الأوقاف الواسعة من أراضى ودور وغيرها لينفق من ريعها على مرافق المدرسة أو المكتب وعلى موظفيها من المدرسين والشيوخ ، فضلا عن طلبه المدرسة من ذوى المذاهب أو تلاميذ المكتب من الايتام ، حتى ينصرف اجمع الى رسالتهم في جو من الاطمئنان وراحة الفكر^٥ . بل كثيرا ما تصادف بعض الواقفين في الوثائق المعاصرة ، وقد وقف الممتلكات على منشآت غيره التعليمية وذلك طلبا للمغفرة وحسن الثواب^(٣٤) . فاذا عين شيخ في التدريس باحدى المدارس فانه يأخذ ما هو مقرر له في شروط الوقف من مرتب شهري يصل في المتوسط الى أربعين دينارا ، عدا مقادير الخبز واللحم التى تصرف له يوميا . أما بالنسبة للطلبة فلم يكن التعليم في ذلك العصر مجانيا فحسب ، بل كفل لهم أيضا المسكن والكساء فضلا عما تقرر لهم من مقررات نقدية وعينية تصرف « في كل شهر من شهور الأهلة » وفق شروط الواقف^(٣٥) . ويبدو أن هذه المقررات لم تكن واحدة لجميع طلبة المدرسة ، وانها اختلفت وفق ما يراه ناظر الوقف « من التسوية والتفضيل »^(٣٦) . وقد أدى ذلك الى التحاسد بين الطلبة بسبب نقص مقرر أحدهم عن زميله فيقول

(٣٢) المقربرى : السلوك ج ٤ ص ٨٤ - ٨٥ .

Iblahim Salama : op. cit. p. 67. (٣٣)

(٣٤) عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية واثرية مجلد ٢ ص ١٤٥ .

(٣٥) النويرى : نهاية الارب ج ٣٠ ص ٣٤١ بوما بعدها .

(٣٦) المصدر السابق .

« كيف يأخذ فلان كذا وكذا بينما أنا أكثر منه بحثا وقد حفظت الكتاب الفلاني... » (٣٧) .

والواقع أن الحياة العلمية في عصر الماليك لم تخل من غيوب ، أظهرها التباغض والتحاسد بين العلماء « والمواطأة لبعضنا بعضا » (٣٨) . ذلك أن بعضهم كره أن يعرف تلميذه غير شيخه الذي يعمل معه ، فيوهم كل شيخ تلاميذه أنه وحيد عصره وفريد زمانه في العلم ، وأن من سواه جهلاء لم يأتوا من العلم إلا قليلا (٣٩) . وتطلب ذلك الوضع من طالب العلم أن يطيع أستاذه طاعة عمياء ، فيأخذ كل ما يرويه الإستاذ على أنه قضية مسلم بها ، حتى قيل « من لم يز خطأ شيخه صوابا لم ينتفع به » (٤٠) . ثم إن بعض الشيوخ في ذلك العصر تشوقوا إلى المناصب وبذلوا الأموال في الوصول إليها ، حتى قال السخاوي أن أحد المدرسين توصل إلى منصبه ببذل مائة دينار (٤١) . وقد أحس المعاصرون بهذه المفاصد فنقدوها وطلبوا باصلاحها في شعرهم ونثرهم (٤٢) .

(٣٧) ابن الحاج : المحل ج ٢ ص ١٢٨

(٣٨) المصدر السابق ج ١ ص ١١٩

(٣٩) زكى مبارك : التصوف ج ١ ص ٣٦٩

(٤٠) ابن الحاج : المحل ج ١ ص ٩٨

(٤١) السخاوي : التبر المسبوك ص ١٦١ ، ابن الحاج : المحل

ج ٢ ص ١٥٧ .

(٤٢) من ذلك ما قاله الاندلوى (ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١

ص ٥٣٦) :

ان الدروس بمصرنا في عصرنا

طبعت على لفظ ونسب عيـاط

ومباحث لا تنتهى لنهاية

جدلا ونقل ظاهر الافلاط

ومدرس يبدى مباحث كلها

نشأت عن التخليط والاخلط

وثمة ملاحظة أخيرة على المدارس في ذلك العصر ، هي أن المدرسة لم تكن في كثير من الحالات بناءً مستقلاً قائماً بذاته ، وإنما كانت جزءاً ملحوقاً بالقبعة التي بناها السلطان أو الأمير ليدفن فيها بعد وفاته . من ذلك أن الملك السعيد بركة بن الظاهر بيبرس أمر سنة ٦٧٦ هـ « ببناء مدرسة لدفن أبيه فيها حسب وصيته »^(٤٣) كذلك أنشأت ابنة السلطان الناصر محمد المدرسة الحجازية « وأقامت بجوارها قبة من داخلها لتدفن فيها »^(٤٤) . ومن الواضح أن هذا التقدير مصدره طلب الرحمة لصاحب المدرسة بوصفها مكاناً تدرس فيه العلوم الدينية المتنوعة . هذا إلى أن المدرسة كان بها دائماً مسجداً له عدد من المؤذنين « عارفين بالأوقات يعلنون بالأذان الشرعي في المئذنة التي تنشأ على الباب ، ليلاً ونهاراً ، وإقامة الصلوات والتسبيح والتذكار في الأسفار ، على ما يراه الناظر متناوبين أو مجتمعين ، وعلى ما يراه من ترتيبهم في القبة والمدرسة .. »^(٤٥) .

كذلك كان للمدرسة ساقية تقوم بأجراء الماء « من البئر إلى الصحن أمام إيوان القبعة وإلى الفسقية التي بوسط المدرسة وإلى الميضة التي بالمدرسة » . وحددت شروط الوقف الخاص بالمدرسة كيفية الانفاق على هذه المرافق وغيرها مما « تحتاج إليه المدرسة

ونحدث قد صار فاية علمه
أجزاء يرويها من الديميطاطى
والفاضل التحرير فيهم دابة
قول أرسطاطاليس أو بقسطراط
وعلموم دين الله نادت جهرة
هذا زمان فيه على بسطاطى

(٤٣) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٢٦٣ .

(٤٤) محمود أحمد : العمارة العربية ص ٩ .

(٤٥) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٣٤١ ب وما بعدها .

المذكورة من الحصر والقناديل والبصاقات الزجاج والأطباق النحاس
والسلاسل والأباريق والجرار...» (٤٦)

المكاتب :

وإذا كانت المدارس في ذلك العصر تمثل المعاهد العليا أو
الجامعات في عصرنا ، فإن المكتب نهض عندئذ بالمرحلة الأولى من
مراحل التعليم . ويفهم من المصادر المعاصرة أن الغرض الاساسى من
إنشاء المكتب في عصر المماليك كان تعليم أيتام المسلمين ، ولذلك
سارع الخيرون إلى إنشاء المكاتب وحبس الأوقاف عليها للعناية بأمر
الأيتام وتعليمهم وتوزيع الأذء والكساء عليهم (٤٧) . ويقال إن
السلطان الظاهر بيبرس أقام مكتبا لتعليم الأيتام ورتب لكل طفل
بالمكتب جراية في كل يوم وجامكية في كل شهر وكسوة في الشتاء
وأخرى في الصيف (٤٨) . وقد خصص لكل مكتب مؤدب يساعده
عريف ، ويقوم المؤدب وعريفه بتعليم الصغار الكتابة وتحفيظهم
القرآن (٤٩) . وأطلق أحيانا على المؤدب اسم الفقيه ، واشترط فيه
عدة شروط خلقية واجتماعية وعلمية ، كأن يكون متزوجا صحيح
العقيدة متدينا عاقلا « من حملة كتاب الله العزيز ، عالم بالقراءات
السبع وروايتها وأحكامها ، صالح لتعليم القرآن والحديث والخط
والآداب والاستخراج ؛ وأن يكون ممن اشتهر بالحديث والعلوم
الشرعية ، وأن يعلم الأطفال ما يطبقون تعلمه ، وأن يعاملهم بالاحسان
والتلطف والاستعطاف فيما يرغبهم في القراءة ويطيب لهم الاشتغال
بالعلم . . . ومن أتى منهم بما لا يليق أدبه ويفعل ما أباحه الشرع

(٤٦) المصدر السابق .

(٤٧) المقرئى : الخط ج ٢ ص ١٠٠ - ١٠١ ، بولاق .

(٤٨) ابو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٢١ ، النويرى : نهاية

الارب ج ٢٩ ص ٣٠ (مخطوط) .

(٤٩) Ibrahim Salama : op. cit: pp. 104 — 109. (٤٩)

ولا يضرب الضرب المبرح .. ﴿٥٠﴾ . أما العريف فاشتترطت فيه الشروط الخلقية والدينية نفسها المطلوب توافرها في المؤدب ، وطلب اليه معاونة الأطفال المتخلفين عن غيرهم كما كان يراجع ألواح الاطفال في غيبة المؤدب ﴿٥١﴾ .

أما عن طريق التربية والتعليم في المكاتب . فقد اشترط على المؤدب « أن يتفرق بالصغير ، وأن يعلمه السور القصار من القرآن بعد حذاقته بمعرفة الحروف وضبطها بالشكل ، ويدرجه بذلك حتى يألفه طبيعا ، ثم يعرفه عقائد السنن ثم أصول الحساب ، وما يستحسن من المراسلات . وفي وقت بطلاة العادة يأمرهم بتجويد الخط على المثال ، ويكلفهم عرض ما أملاه عليهم حفظا غائبا لا نظرا . ومن كان عمره سبع سنين أمره بالصلاة . . ويأمرهم ببر الوالدين والانقياد لأمرهما بالسمع والطاعة ، والسلام عليهم وتقبيل أيديهما عند الدخول اليهما . ويضربهم على إساءة الأدب والفحش من الكلام ، وغير ذلك من الأفعال الخارجة عن قانون الشرع مثل اللعب بالكعب والبيض والنرد وجميع أنواع القمار . ولا يضرب صبيا بعصى غليظة تكسر العظم ولا رقيقة لا تؤلم الجسم ، بل تكون وسطا . ويتخذ مجلدا عريض السير ، ويعتمد بضربه على الالايا والأفخاذ وأسافل الرجلين ، لأن هذه المواضع لا يخشى منها مرض ولا غائلة ويتبغى للمؤدب أن لا يستخدم أحد الصبيان في حوائجه وأشغاله التي فيها عار على آبائهم ، كتقل التراب والزبل وحمل الحجارة وغير ذلك .. ﴿٥٢﴾ .

فاذا أتم الولد حفظ القرآن احتفل به احتفالا كبيرا يسمى « الإصرافة » ، فترتين أرض المكتب وحيطانه وسقفه بالحير ، ويقوم

(٥٠) حجة جمال الدين الاستادار (١٠٦ أرشيف المحكمة الشرعية) .

(٥١) عبد اللطيف ابراهيم على ، دراسات تاريخية واثرة ج ٢

ص ١٤٦ .

(٥٢) ابن الاخوة : معالم القرية ص ١٧٠ — ١٧١ .

أهل الصبى صاحب الإصرافة بزينته « كما يزينون النساء » ، فيحلبونه قلائد الذهب والعنبر ، ثم يركبونه على فرس أو بغلة مزينة ويحملون أمامه أطباقا فيها ثياب من حرير وعمائم • ويسير بين يديه بقية صبيان المكتب ، ينشدون طوال الطريق الى أن يوصلوه الى بيته • وعندئذ يدخل الشيخ ويعطى اللوح الأم صاحب الإصرافة ، فتعطيه ما تقدر عليه من مال (٥٣) •

أما من يظل بالمكتب حتى البلوغ دون أن يحفظ القرآن فكان يضرب ليحل محله أحد صغار الأيتام • وكان الطبيب يزور المكتب في كل شهر « عند تنزيل الأيتام ، ويكشف من يظن به البلوغ منهم ، فمن وجده بلوغا أخبر بحاله فيقرر الناظر غيره مكانه » (٥٤) ولم يستثن من ذلك الا حالات قليلة ، كأن يظهر أحدهم نبوغا وميلا للدرس مما يبشر بفلاحه ، فعندئذ كان يستمر بالمكتب ويسمح له بالاستغفال بالعلم (٥٥) •

هذا ، ويبدو أن هذه المكاتب الخاصة بتعليم الأطفال اختصت الصبيان دون البنات ، فلم يصادفنى في وثائق عصر المماليك أو مراجعة ما يشير الى وجود مكاتب لتعليم البنات ، بل على العكس جاء في كتابات المعاصرين أن « لا يعلم الخط امرأة ولا جارية ، فقد ورد النهى بذلك ••• وقيل إن المرأة التي تتعلم الخط كمثل الحية تسقى سماء » (٥٦) •

(٥٣) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٣٣١ — ٣٣٣ •

(٥٤) حجة وقف الغورى ، ٨٨٣ لوقف •

(٥٥) عبد اللطيف ابراهيم على ، دراسات تاريخية وأثرية ج ١

ص ٥٤ تحقيق ٦٥٦ •

(٥٦) ابن الاخوة : معالم القرية ص ١٧١ — ١٧٢ •

النشاط الدينى والتشيع

أما عن الحياة الدينية ، فمن المعروف عند علماء الاجتماع أن
الدين دائما يكون ركنا أساسيا فى بناء المجتمع ودعمه ، حتى قال
بعضهم أن الدين فى المجتمع شبيه بالأسمنت الذى يربط أجزاء
البناء^(٥٧) . وقد شهدت مصر فى عصر سلاطين المماليك نشاطا دينيا
منقطع النظير خدمة للسنة . غير أنه برغم الجهود التى بذلها سلاطين
الأيوبيين فى مصر للقضاء على الشيعة والتشيع ، فإن الكثير من آثار
المذهب الشيعى ظلت باقية واضحة فى عصر المماليك . مثال ذلك ما قيل
من أن بلدة أصفون — القريبة من الأقصر — وجد بها فى القرن
الثامن الهجرى « طائفة من الاسماعيلية والرائضة والامامية وطائفة
من الدرزية والحاكمية »^(٥٨) . ويقول ابن حجر عن أحد أدباء مصر
فى عصره أنه فاضل وأديب « ولكنه يميل الى الرنض »^(٥٩) . وحكى
بعض أهالى الصعيد أيام أبى المحاسن « أن غالب مزارعى بلدنا
أشرافا علوية »^(٦٠) . وهؤلاء الأشراف الذين ظلوا موضع رعاية
سلاطين المماليك لأنهم من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم^(٦١) ،
كما ميزوهم بعلامة خضراء فى عمامتهم تشريفا لهم^(٦٢) ، « كان
معظمهم شيعة زيدية ويتجاهرون بذلك »^(٦٣) ، ووصف ابن حجر

Gillin : op. cit. 282.

(٥٧)

(٥٨) شمس الدين الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر
ص ٢٣٣ .

(٥٩) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ١٥٥ ترجمة عبد الملك بن
الأعز الاسنالى .

(٦٠) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٣٩ .

(٦١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ١١ ص ١٦٢ ، زيترشتين : تاريخ
المماليك ص ٢١٧ .

(٦٢) العينى : عقد المجان سنة ٧٣٣ هـ ، أبو المحاسن : النجوم
ج ٥ ص ٢١٦ (كاليفورنيا) .

(٦٣) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٢٨٦ (كاليفورنيا) .

بعض معاصريه من أهل الاسكندرية بأنه « شديد في مذهب التشيع من غير سب ولا رفض »^(٦٧) . وحدث أكثر من مرة في عصر سلاطين المماليك أن ثار بالقاهرة جماعة من « السودان والركبدارية والعلمان » نيشقون المدينة صائحين « يا آل علي ! »^(٦٨) .

ولعل ظهور تيار التشيع بعض الأحيان بهذا الشكل هو الذي حدا بالسلطان بيبرس أن يأمر سنة ٦٦٥ هـ باتباع المذاهب السنية الأربعة « وتحريم ما عداها » ، وأن يأمر آل يولى قاضى ولا تقبل شهادة أحد ولا يرشح لاحدى وظائف، الخطابة أو الامامة أو التدريس « ما لم يكن مقلداً لأحد هذه المذاهب ! »^(٦٦) . وتظهر الروح العدائية من جانب سلاطين المماليك وفقهائهم ضد طوائف الشيعة في الفتوى التى أصدرها ابن تيمية - من علماء القرن الثامن الهجرى - والتي وصف فيها بعض طوائف الشيعة بأنهم أكفر من اليهود والنصارى وأفتى بالقضاء عليهم ومحاربتهم^(٦٧) . وتفويض وثائق وحجج ذلك العصر بأخبار الحرب السافرة بين السنة والشيعة فى مصر ، الأمر الذى استمر الى ما بعد الفتح العثمانى لمصر ، عندما نصت احدى الحجج الشرعية على « ألا يسكن الرباط بمكة أو المدينة إلا أهل السنة والفقراء دون الروافض والشيعة ، فلا يعطى أحد منهم حجرة وإن كانت خالية وتبقى خاوية ! »^(٦٨) .

(٦٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ١٣٠ ترجمة على بن المظفر الاسكندراني .

(٦٥) العيني : عقد الجمان سنة ٦٥٩ هـ ، المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٤٠ .

(٦٦) المقرئى : الخطط ج ٤ ص ١٦١ .

Guyard : Le Fetwa d'Ibn Taimiyyah sur les Nostiris (٦٧)

pp. 159 — 179.

(٦٨) عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية واثريّة ، المجلد الأول ص ٢٩ .

ومن هذا كله يبدو أن إحياء الخلافة العباسية بمصر لم يكن سببه حرص سلاطين المماليك على تكوين سلطة روحية يسندون اليها سلطنتهم فحسب ، بل مناهضة التشيع في مصر كذلك . وعبر السيوطنى عن ذلك بأن مصر منذ أصبحت دار الخلافة العباسية « علت فيها السنة وعفت منها البدعة »^(٦٩) . ومن الأدلة على ذلك أيضا قول الادفوى — عند استعراضه لبلاد الصعيد في عصره — إن التشيع كان في إسنا « فاشيا والرفض ماشيا فجف حتى خف » ، وقوله عن بلدة اصفون أنها كانت معروفة « بالثشبع البشع ، لكنه خف بها وقل »^(٧٠) .

على أن ذلك كله لا يدل على شيء سوى تضاؤل الجماعات التسيعية مع استمرار بقائها ، بدليل أن الناس كانوا اذا أرادوا أن يكدوا لشخص في عصر المماليك « دسوا عليه من رماه بالتشيع » فتصادر أملاكه وتتهال عليه العقوبات والاهانات « حتى يظهر التوبة من الرفض »^(٧١) . كذلك ظلت المشاحنات مستمرة بين أهل السنة والشيعية طوال عصر المماليك . وتمثل ذلك بوضوح فيما نظمه بعض شعراء ذلك العصر^(٧٢) .

!الخلافة العباسية في القاهرة :

أما الخليفة العباسى فظل منذ إحياء الخلافة العباسية بمصر سنة ٦٥٩ هـ وخلافته « ليس فيها أمر ولا نهى وحسبه أن يقال له أمير

(٦٩) السيوطنى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .

(٧٠) الادفوى : الطالع السعيد ص ١٧ .

(٧١) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٤٦ ترجمة جلال الدين

حسن بن منصور .

(٧٢) محمد كامل حسين : التشيع في الشعر المصرى في عصر الايوبيين

والمماليك ص ٧٣ — ٧٤ .

المؤمنين» (٧٣) • وذلك أن الذي استقر عليه حال الخلفاء العباسيين ، بالاديار المصرية أن يفوض الخليفة الأمور العامة الى السلطان ، ويكتب له عنه عهدا بالسلطنة ، ويدعى له قبل السلطان على المنابر ، وفيما عدا ذلك يستبد السلطان بكافة شئون الدولة ، في حين يقنع الخلفاء بالتردد على أبواب السلاطين والأمراء انتهت بهم بالشهور والأعياد (٧٤) • وكثيرا ما لجأ بعض سلاطين المماليك الى تحديد إقامة الخليفة ، فيظل في بيته بعيدا عن الاختلاط بالناس ، كما فعل الظاهر بيبرس مع الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي سنة ٦٦٣ هـ ، وكما فعل الناصر محمد مع الخليفة المستكفي بالله سنة ٧٣٦ هـ (٧٥) •

الْقَضَاةُ :

أما القضاة فتمتعوا بهنزة رفيعة لم يتمتع بها الخلفاء في عصر سلاطين المماليك • وقد روعيت في اختيار القاضى شروط معينة هي « البلوغ والعقل والحرية والذكورة والاسلام والعدالة والسمع والبصر والعلم » • فاذا عين السلطان أحدهم في منصبه خلع عليه ، ثم ينزل القاضى من القلعة في موكب حافل وبرفته أمراء الدولة ، وسائر القضاة ونوابهم ، ويسير الموكب من القلعة الى بيت القاضى وسط الشموع والقناديل وغيرها من مظاهر التكريم (٧٦) • ومع أن قضاة القضاة أصبحوا أربعة منذ عهد السلطان بيبرس (٧٧) ، إلا أن

-
- (٧٣) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ٣٩٤ •
(٧٤) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٢٧٥ •
(٧٥) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢١٩ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ١١٥ ، ابن حجر : تحفة اخوان الصفا ص ١٣١ ، ١٢٦ ب •
(٧٦) ابن حجر : رفع الاصر ص ٩ — ١٠ ، تاريخ ابن الفرات سنة ٧٩١ هـ ، سنة ٧٩٣ هـ •
(٧٧) القلقشندى : صبح الاعشى ج ١ ص ٤١٩ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٢١ •

فأضى القضاة الشافعى ظل محتفظا بمكانة ممتازة طوال عصر سلاطين المماليك . وقد رتب غرس الدين خليل القضاة فى ذلك العصر حسب منزلتهم فوضع الشافعى فى المقدمة ويليه الحنفى ثم المالكى فالحنبلية^(٧٨) . كذلك انفرد قاضى القضاة الشافعى مدة من الزمن يلبس الطرحة فى المواقب^(٧٩) ، ولا يخطب أو يصلى بالسلطان إلا القاضى الشافعى^(٨٠) كما اختص أيضا بالتولية فى بلاد الريف دون غيره من القضاة^(٨١) .

ومن الأحكام التى أصدرها ابن خلدون أن القائمين بأمر الدين — كالقضاة — لا تعظم ثروتهم فى الغالب ، لأن أعمالهم لا ترتبط بالأعمال الضرورية فى العمران^(٨٢) . غير أن هذا الحكم لم ينطبق على قضاة مصر فى عصر سلاطين المماليك ، اذ لبسوا الملابس الفاخرة وركبوا الخيل الهائلة المسومة ، وصار فى اسطبل الواحد منهم نحو العشرين من الخيل والغزلان والنعام « وتشبهوا بأهل الدولة »^(٨٣) . فاذا ركب القاضى حمارا ضرب به المثل فى التواضع الجم^(٨٤) . واستتبع ذلك زيادة نفوذ بعض القضاة عند الخاصة والعامة ، كالقاضى عمر بن رسلان البلقيني المتوفى سنة ٨٠٥ هـ ، الذى أتته الفتاوى من بعيد كما اعتد برأيه السلاطين حتى صاروا لا يعقدون المجالس الا به^(٨٥) .

على أنه يبدو — رغم ذلك — أن القضاة فى عصر سلاطين المماليك

(٧٨) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ٩٢ .

(٧٩) ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ١٢٧ .

(٨٠) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٢٦٥ .

(٨١) الطلقشندى : صبح الاعشى ج ١ ص ٤١٩ ، ج ١١ ص ١٧٤ .

(٨٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٤٠٠ .

(٨٣) ابن حجر : رفع الاصر ص ٧٣٣ ، ب .

(٨٤) الذهبى : تاريخ الاسلام ج ٣٠ ص ١٨ .

(٨٥) ابن نهدي : لحظ اللاحظ ص ٢٦ — ٢٠٨ .

كثيرا ما تعرضوا لضغط من سلاطين الممالك ، نتيجة لتدخل السلاطين في شئون القضاة عن طريق الشفاعة لهذا أو ذاك ، مما دفع بعض الصالحين من الفقهاء ورجال الدين الى التهرب من منصب القضاة اذا عرض عليهم ، بل الاختفاء في مكان مجهول حتى لا يضطرون الى قبول ذلك المنصب ، كما فعل الشيخ شمس الدين القيايى سنة ٨٤٩ هـ (٨٦) . واشترط بعض القضاة على السلاطين عدة شروط ، منها ألا يعارضه أمير فيما يحكم به ، ولا يرسل اليه السلطان شفاعة في قضية من القضايا ولا يسأله في عدالة أحد . . . فاذا قبل السلطان هذه الشروط رضى الفقيه بتولى منصب القضاء وخلق عليه ، كما حدث مع الشيخ ناصر الدين سنة ٧٨٩ هـ (٨٧) .

واحتفظ كل قاضى بعدة مساعدين يساعدونه في القيام بأعباء وظيفته . وقد روعى عند اختيار هؤلاء المساعدين توافر صفات :صلاح والأمانة والعلم فيهم (٨٨) . ومن هؤلاء المساعدين الترجمة الذين يقومون بدور الوسيط في التفاهم بين المتقاضين بعضهم وبعض أو بينهم وبين القاضى اذا كانوا لا يعرفون العربية أو لا يحسنونها . واشترط في المترجمان الأمانة والعلم وأن يكون مسلما ديننا لا يحرف الكلم عن مواضعه بل ينقله بتحفظ ودقة (٨٩) . كذلك احتفظ كل قاضى بعدد من النواب يجلسون بخوانيت الشهود وبالشوارع للتكسب من الحكم بين الناس ومقاسمة الشهود فيما ينكسبونه من تحملهم الشهادات (٩٠) . أما هؤلاء الشهود فكانوا يتعرفون أحوال الناس

(٨٦) السخاوى : التبر المسبوك ص ١١٥ .

(٨٧) تاريخ ابن الفرات ج ١ ص ١٤ ، ١٥ ، سنة ٧٨٩ هـ .

(٨٨) السبكي : معيد النعم ص ٢٥ ، ٨٦ .

(٨٩) عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية وأثرية مجلد

ص ٢٥ .

(٩٠) المقرئى : السلوك سنة ٧٨١ هـ ج ٣ ص ٢٥٨ - ٢٥٩

(تحقيق المؤلف) ، ابن خلدون : لحظ اللاحاظ ص ٢٦٨ .

ويشهدون في القضايا ، ولهم حوائيت معلومة فاذا احتاج المتقاضون الى شاهد أحضروه المقيام بالشهادة مقابل أجر معين^(٩١) . ويلاحظ أنه كان لكل قاض شهود معينون ، كما كان القاضى والمتقاضى على مذهب واحد ، وفي القضايا التى تحتاج الى خبرة فنية — كتلك الخاصة بالمباني وغيرها — كان القاضى يأخذ برأى الفنيين والخبراء المختصين ، فيكلف أحد المهندسين بالمعينة والادلاء برأيه^(٩٢) .

ويبدو أن بعض القضاة في عصر المماليك أكثروا من نوابهم بالقاهرة ومصر ، مما دفع السلاطين في بعض الأحيان — كما حدث سنة ٧٩٤ هـ وسنة ٨٢٩ هـ — الى أن يحددوا لكل واحد من القضاة عددا معيناً من النواب لا يجوز له أن يتخطاه^(٩٣) . وجاء هذا الاجراء من جانب سلاطين المماليك نتيجة لكثرة شكاوى الناس من هؤلاء النواب والشهود ، نظرا لما تضمنته تصرفاتهم من الأمور الشنيعة « حتى أصبح أكثرهم في زماننا حالهم معلوم فلا حاجة الى شرحه »^(٩٤) .

ولم يقتصر المعاصرون على توجيه النقد الى الشهود ونواب القضاة فنسب ، بل تعدوهم الى القضاة أنفسهم . فأبو المحاسن ينتقد قضاة عصره ، ويعيب عليهم اهمالهم في شئون الأوقاف ، والمدارس التى يلون نظارتها ، ويقول ان ذلك الاهمال « قد شاع في الأقطار عن قضاة زماننا ! »^(٩٥) . ويبدو أن هذا التراخى جاء نتيجة طبيعية للجاه الذى أصبح فيه القضاة ، وحياة الدعة والترف التى انتقلوا اليها بعد أن غلبت شئون الدنيا على الدين ، فساد التنافس والتحاسد بينهم ، حتى

(٩١) السبكي : معيد النعم ص ٦٣ — ٦٤ .

(٩٢) عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية واثريه مجلد ١

ص ٢٦ .

(٩٣) تاريخ ابن الفرات : سنة ٧٩٤ .

(٩٤) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ١٥٩ — ١٦١ .

(٩٥) ابو المحاسن : حوادث الدهور سنة ٨٤٩ هـ .

أن المجالس السلطانية نفسها لم تخل من منازعات بين القضاة تصل الى درجة « السباب والفحش في القول » (٩٦) .

الجوامع والمساجد :

وقد استلزم النشاط الدينى فى مصر فى عصر سلاطين المماليك الإكثار من تشييد المساجد أو « ما لا يكاد يحصى منها » (٩٧) . وقدر المقرئى عدد المساجد التى تقام بها الجمعة بمصر والقاهرة بمائة وثلاثين مسجداً (٩٨) ، على حين قدرها خليل بن شاهين الظاهرى بأكثر من ألف مسجداً (٩٩) . وفى عهد السلطان الناصر محمد شيّد السلطان وأمراؤه ثمانية وعشرين مسجداً (١٠٠) . وهكذا أثارت كثرة المساجد فى مصر المماليكية دهشة الرحالة الأوربيين ، فقال برنارد بريندباخ أن روما لا يوجد بها مثل ذلك العدد من الكنائس (١٠١) . فاذا تم بناء جامع أو مسجد رتب له إمام وخطيب وخدم واحتفل بافتتاحه احتفالا كبيرا (١٠٢) .

على أن استعمال المسجد فى عصر المماليك لم يقتصر على الغرض الأساسى الذى شيّد من أجله وهو العبادة ، وإنما استخدم فى أغراض أخرى كثيرة منها التدريس . وقد عدد ابن الحاج مواضع التدريس تجاءت ثلاثة : البيت والمدرسة والمسجد . وقال أن المسجد أفضلها جميعا لأن الفائدة من التدريس أن تظهر به سنة أو تخمد به بدعة

(٩٦) ابن حجر : انباء الغرر ج ٢ ص ٢٢١ ، ٣٦٠ .

(٩٧) الطلقشندى : صبح الامشى ج ٣ ص ٣٦٦ .

(٩٨) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٤٥ ، بولاق .

(٩٩) خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ٣١ .

(١٠٠) زيفرشتين : تاريخ المماليك ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

(١٠١) Larrivaz : op. cit; p. 55. (١٠١)

(١٠٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٧ ، المقرئى : السلوك ج ٢

(١٠٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٧ ، المقرئى : السلوك

ج ٢ ص ١١٤ — ١١٥ .

(م ١٢ — المجتمع المصرى)

أو يتعلم به حكم من أحكام الدين ، والمسجد خير مكان تتوافر فيه هذه الفوائد لأنه موضع مجتمع من الناس^(١٠٣) . على أن التدريس بالمساجد لم يقتصر على العلوم الدينية ، بل تخطاها الى غيرها من العلوم كالطب^(١٠٤) . كذلك أقيمت المحاكم في المساجد بعض الأحيان في ذلك العصر . فيجلس القاضى بالمسجد ويأتى اليه الناس من نساء ورجال ليحكموا اليه ، فتكثر الخصومات وترتفع الأصوات والصيحات^(١٠٥) . واختار بعض الناس المساجد مكانا لاقاماتهم ، فليجأون اليها وينامون فيها ، ويخططون بها قلوب المراكب ، ويجلسون بها لقص رؤوسهم ويتناولون فيها الطعام . . . الى غير ذلك من الأفعال التى استتكرها بعض الفقهاء المعاصرين^(١٠٦) .

أما الجامع الأزهر فقد استعاد أهميته ومجده في عصر سلاطين المماليك . والمعروف أن الجامع الأزهر ظل معطلا من صلاة الجمعة منذ عهد صلاح الدين الأيوبي ، حتى إذا ما ولى منصب السلطنة السلطان الظاهر بيبرس ، فعمل على إصلاحه وترميمه وعين له الفقهاء والمحدثين والقراء وأقيمت به صلاة الجمعة الأولى مرة في ١٨ ربيع الأول سنة ٦٦٥ هـ^(١٠٧) .

وقد بلغ عدد الفقراء الذين أقاموا به أوائل القرن التاسع الهجرى سبعمائة وخمسين رجلا ما بين عجم وزياالة ومغاربة ، فضلا عن أهل ريف مصر . وكان لكل طائفة من هؤلاء رواق يعرف بهم ويشغلون فيه بالعبادة والعلوم الدينية . وظل الأثرياء يقصدون الجامع الأزهر بأنواع البر من الأموال والأطعمة والحلاوات -

-
- (١٠٣) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٨٥ .
(١٠٤) ابن حجر : الدرر الكملة ج ٣ ص ٤٧٥ .
(١٠٥) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٢٢٧ ، ص ٢٦٤ .
(١٠٦) نفس المصدر والجزء ص ٢٢٥ - ٢٣٥ ، ابن حجر : انباء الغر ج ٢ ص ٢٦٠ .
(١٠٧) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٥٦ .

ولا سيما في المواسم — وذلك إعانة للمجاورين^(١٠٨) . كذلك عكف كثير من الناس في عصر المماليك على المبيت بالجامع الأزهر طلبا للبركة ، ولا سيما في ليالى الصيف وليالى شهر رمضان^(١٠٩) . واستمر ذلك حتى سنة ٨١٨ هـ عندما وضع الجامع الأزهر تحت نظر الأمير سودون ، فأمر بإخراج من كان فيه من المجاورين ومنع الناس من المبيت به^(١١٠) .

والأمثلة كثيرة على ازدهار الجامع الأزهر طوال عصر سلاطين المماليك . من ذلك أن الذى تولى شئونه عادة كان أحد الأمراء أو أحد كبار القضاة^(١١١) . وعند حدوث مجاعة أو انتشار وباء في البلاد ، جرت العادة بأن يجتمع في الجامع الأزهر القضاة والقراء والفقهاء حيث يضرعون إلى الله أن يكشف عنهم الغمة^(١١٢) . فإذا كان السلطان في ميدان الحرب وجاء إلى مصر بلاغ يبشر بانتصاره ، جمع الناس بالجامع الأزهر حيث يقوم أحد كبار القضاة بقراءة ذلك البلاغ عليهم^(١١٣) .

التصوف :

وثمة ظاهرة واضحة اتصفت بها الحياة الدينية في مصر على عصر سلاطين المماليك ، هى انتشار التصوف واتساع نطاقه . ومن المبادئ التاريخية والاجتماعية المسلم بها أن أية حركة روحية تقوى وتشتد نتيجة لتأنيب ضمير الفرد على أخطائه ، الأمر الذى يأتى مصحوبا برغبة خالصة في التوبة والتوجه إلى الله والزهد في

-
- ١٠٨) المقرئى : الخطط ج ٤ ص ٥٢ — ٥٤ .
 - ١٠٩) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ١٦٥ وما بعدها .
 - ١١٠) المقرئى : الخطط ج ٤ ص ٥٤ — ٥٥ .
 - ١١١) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ١٦٥ .
 - ١١٢) تاريخ ابن الفرات ج ١ سنة ٧٩٠ هـ .
 - ١١٣) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٢٤٨ .

الدينيا (١١٤) . ولا شك في أن العالم الاسلامى بوجه عام أحاطت به في القرن السابع الهجرى أحوال قاسية ، منها هجوم القطار من ناحية الشرق والمسيحيين الغربيين من ناحية الاندلس ، على حين ظل الصليبيون قابعين في منطقة الشرق الأدنى يمثلون خطرا مباشرا على البلاد الاسلامية . هذا إلى أن أصناف الحكومات في البلاد الإسلامية وقتذاك لم تخفف من هذه الأحوال القاسية . فالماليك في مصر والشام مثلا ظلوا منفصلين عن أهل البلاد ، ناعمين بالثروة وحياة الترف دون بقية السكان . وكان أن وفد على مصر في القرن السابع الهجرى كثير من مشايخ الصوفية مثل أبى الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى وأبى القاسم القبارى والسيد أحمد البدوى (١١٥) . فوجدوا عامة المصريين في ضيق وكمد بسبب سطوة الماليك وضغطهم على الشعب ، وكثرة الفتن وأختلال الأمن ، هذا عدا كثرة المجاعات والأوبئة مما دفع كثيرين إلى الدخول تحت لواء مشايخ الصوفية . وليس معنى ذلك أن المصريين لم يكن لهم عهد بالتصوف قبل عصر سلاطين الماليك ، فهناك اصطلاحات وألفاظ عديدة استعملها الصوفية في عصر الماليك وقرر الباحثون أنها استعملت من قبل في العصر الفاطمى ، مما يتفق مع ما قرره ابن خلدون من أن الصوفية نقلوا نظامهم عن التشيع (١١٦) . وإذا ثبت أن الفاطميين استغلوا ناحية التصوف لنشر مذهبهم ، فمن الثابت أيضا أن صلاح الدين الأيوبي استغل هذه الناحية نفسها للقضاء على آثار المذهب الشيعى عن طريق

(١١٤) وهناك عدة آراء بخصوص اشتقاق كلمة « تصوف » أهمها رأى القائل بأنها مشتقة من الصوف وهو لباس الصوفية المفضل ، ابن حبيب : درة الاسلاك ج ٢ ص ٢٦٠ ، مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٢ . وهناك رأى آخر يقول انها مشتقة من الصفاء لتصفية القلوب (السيوطى : اتمام الدراية ص ٢٠٣) .

(١١٥) ابراهيم نور الدين : حياة السيد البدوى — المقدمة للمؤيد مرسى تنديل .

(١١٦) زكى مبارك : التصوف ج ٢ ص ٣٥ ، كامل مصطفى الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع (القاهرة ، ١٩٦٩) .

« التصوف السنّي » • وهكذا يتضح أن المجتمع المصري عرف التصوف قبل أن يعرف حكم الماليك ، ولكنه ظل تصوفًا هادئًا قليل الأثر ولم يشتد تياره في الحياتين الاجتماعيه والدينيه إلا في عصر سلاطين الماليك (١١٧) •

وانقسم الصوفية إلى فرق عديدة لكل فرقة شيخها وشعارها ، والطائفة الأحمديه مثلا نسبت إلى شيخها أحمد البدوي وشعارها اللون الأحمر (١١٨) ، والرفاعية نسبت إلى أبي العباس أحمد المعروف بابن الرفاعين وشعارها العمائم السوداء (١١٩) • وعند موت شيخ الطائفة يخلفه خليفة في رئاسة طائفته • وقد جرت العادة في عصر سلاطين الماليك أن تصدر تولية هذا الخليفة من السلطان ، فيخلع عليه وينزل من التلعة في حفل كبير يحيط به سائر فقراء طائفته (١٢٠) • واتخذ الصوفية في ذلك العصر اصطلاحات خاصة بهم ، فقالوا مثلا روح الأعظم وهي العقل الأول • وروح المضاف وهي النفس الكلية ، والرياضة وهي تهذيب الأخلاق النفسية بمجاهدة النفس ، وغير ذلك كثير (١٢١) •

وأطلق الصوفية على أنفسهم اسم « الفقراء » ، وذلك « لأن الفقير شعار الصالحين » • ولكل واحد من هؤلاء الفقراء شيخه الذي يرتبط به وبطريقته وبأوامره • فإذا ارتبط أحدهم بشيخ من مشايخ الصوفية وأصبح من مريديه ، ألبسه الشيخ خرقة التصوف وعندئذ تصبح العلاقة بين المرید وشيخه كما عبر عنها السيد ابراهيم الدسوقي

(١١٧) المصدر السابق ج ١ ص ٣٣٩ •

Vollers : Ahmed al-Badawi.

(١١٨)

(١١٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٤ •

(١٢٠) ابن ابياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٧٨ •

(١٢١) ابن جهضم : بهجة الاسرار • ومن الواضح أن اصطلاحات الصوفية كثيرة جدا ومتعددة بحيث يصعب حصرها في هذا البحث الموجز ، وقد ذكرنا هذه الأمثلة الثلاثة على سبيل المثال لا الحصر •

بقوله « إن المرید مع شیخه على صورة الميتا ، لا حركة ولا كلام ولا يقدر أن يتحدث بين يديه إلا بإذنه ولا يعمل شيئاً إلا بإذنه ، من زواج أو سفر أو خروج أو دخول أو عزلة أو مخالطة أو اشتغال بعلم أو قرآن أو ذكر أو خدمة الزاوية أو غير ذلك » (١٢٢) . وبالغ بعض شيوخ الصوفية في عصر سلاطين المماليك ، فاشتروا في العهد الذي يأخذونه على مریدیهم أن المرید لا يبقى له تصرف في ماله ولا زوجته ولا نفسه (١٢٣) !! وقال الشيخ أحمد أبو العباس المرسي : « ينبغي للمشايع تققد حال المریدين ويجوز للمریدين إخبار الاستاذ بما في بواطنهم ، إذ الاستاذ كالطبيب وحال المرید كالعورة ، والعورة قد تبدو للطبيب لضرورة التداوى » (١٢٤) . وكان عنوان إخلاص المرید لشيخه المداومة على حضور مجلسه ، فإذا انقطع المرید عن مجلس الشيخ لخبلة بسبب زلة وقع فيها أمام الشيخ « كان ذلك كالطلاق الرجعي » فللشيخ أن يقبله إذا رجع لأن حرمة الشيخ في نفس المرید لا تزال باقية (١٢٥) . ويبدو أن هذه الرابطة بين الشيخ ومریدیه تعدت نطاق الحياة إلى المات ، إذ حرص كثير من الصوفية على أن يدفنوا بجوار مشايخهم وأوصوا بذلك (١٢٦) . كذلك اتخذ الصوفية في عصر سلاطين المماليك قرافات خاصة بهم ، وأحاطوها بأسوار حتى لا يشاركهم فيها غيرهم (١٢٧) .

وقامت حياة الصوفية على أساس التشف في الملبس والملك وغيره

(١٢٢) الشعرائى : لوائح الأنوار ج ١ ص ٢٤٢ .

(١٢٣) ابن الحاج : المدخل ج ٣ ص ٢٠٧ .

(١٢٤) الشعرائى : لوائح الأنوار ج ٢ ص ٢١ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٤ ،

٨٠ .

(١٢٥) المصدر السابق والجزء نفسه ص ١٧٦ .

(١٢٦) أبو الحاسن : النجوم ج ٩ ص ٢٩٥ ، السخاوى : تحفة

الأحباب ص ١٩ ، ٢٦ .

(١٢٧) السخاوى : تحفة الأحباب ص ٣٢ .

ذلك من أركان الحياة • وقد عبر عن ذلك السيد ابراهيم الدسوقي بقوله
« قوته الجوع ومطره الدموع ووطره الرجوع » (١٢٨) • أما السيد
على - ولده - فقال أن البيت الذي يسكنه الصوفية سمي « خانقاه »
من « الخنق » اتصيتهم على أنفسهم (١٢٩) ، وأن لفظ الفقراء أطلق
عليهم لا منتقارهم في كل أحوالهم إلى الله تعالى (١٣٠) • ففى الملبس
بالغوا في التخشن وآثروا لبس الصوف والمرقع من الثياب (١٣١) • وفي
المأكل حكى عن السيد البدوي أنه اعتاد أن يمكث أربعين يوما أو أكثر
لا يأكل ولا يشرب ولا ينام (١٣٢) • ومهما يكن في هذه الأمثلة من مبالغة
واضحة فإنها تكشف لنا جانبا عن المثالية الصوفية ومستويات الحياة
عند هذه الفئة من المتعبدين • أما نشاطهم فقد وجهوه كله نحو العبادة
والذكر ، ليسلموا من البطالة والكلام فيما لا يعنى •

وقد تطرف بعض الصوفية في آرائهم وأفعالهم ، فنشأت عن ذلك
طائفة أطلق عليها « المجاذيب » (١٣٣) أو « الدراويش » (١٣٤) • واشتهر
هؤلاء الدراويش في عصر المماليك بأفعالهم الغريبة التي زعموا أنها من
الدين • وشهد الرحالة تافورا جماعة من هؤلاء الدراويش في مصر
وقد حلقوا رؤوسهم ولحاهم وشعر حواجبهم كما أزالوا رموش أعينهم
« فبدوا في صورة مزعجة تشبه المجانين ويزعمون أن ذلك ضرب من

(١٢٨) الشعرائى : لواقع الأنوار ج ١ ص ٢٣٤ • وانظر كذلك

كتاب : السيد احمد البدوي ، شيخ وطريقة ، (للمؤلف) •

(١٢٩) الشعرائى : لواقع الأنوار ج ٢ ص ٤٢ ، وسنذكر فيما بعد

أن لفظ خانقاه فارسي الأصل •

(١٣٠) ابن الحاج : المدخل ج ٣ ص ١٨٤ •

(١٣١) زكى مبارك : التصوف ج ١ ص ٣٦٩ •

(١٣٢) الشعرائى : ذيل لواقع الأنوار ج ١ ص ٢٤٦ ،

Vollers : op. cit.

(١٣٣) السخاوى : الذيل على رفع الأصر ص ٣٧ •

(١٣٤) الشربيني : هز القحوف ص ٧٦ •

التقوى والعبادة» (١٣٥) . ويبدو أن هذه الطائفة من الصوفية هي التي تسمى القلندرية أو القرندرية ، الذين شاهد ابن بطوطة زاوية لهم في دمياط وقال عنهم « وهم الذين يطلقون لحاهم وحواجبهم » (١٣٦) . كذلك كانت لهم زاوية بالقاهرة خارج باب النصر ذكرها المقرئ في خطه وقال أن الذي أنشأها هو الشيخ حسن القلندري الجوالقي ، أحد فقراء العجم القلندرية (١٣٧) .

ومن أفعال بعض أولئك المجاذيب أن يركب الواحد منهم في قفص على رأس حمال ويتعمم « بشرطوط طويل جدا » ، ويعاشر الحرافشة ويزعم أن ذلك من الدين (١٣٨) ! . ومنهم من اعتاد أن يركب على قطعة خشب أو جريدة ، بعد أن يصور لها وجهها وعينين وأنفا وفما ، ويمسك بيده شيئا كأنه سوط ، ويربط الجريدة بسير أو خيط كأنه لجام ، ويجرى على هذه الصورة المضحكة وسط شوارع القاهرة وهو يضرب « دابته » (١٣٩) . ومنهم من اتخذ في يديه سوارين من الحديد ، أو حمل في عنقه طوقا من الحديد ، ووضع في أذنيه حلقا ، وسارا

Tafur ? op. cit, p. 71.

(١٣٥)

(١٣٦) انظر ما كتبه أستاذنا محمد مصطفى زيادة في هذا الموضوع (السلوك ج ١ ص ٦٥٥ حاشية ٤) .

(١٣٧) وصف المقرئ هذه الطائفة وصفا مسهبا فقال : « وحقبة القلندرية أنهم قوم طرحوا التقيد بأداب المجالسات والمخاطبات ، وقلت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض . ولم يباليوا بتناول شيء من اللذات المباحة ، واقتصروا على رعاية الرخصة ولم يطلبوا حقائق العزيمة . والتزموا إلا يدخروا شيئا ، وتركوا الجمع والاستكثار من الدنيا ، ولم ينتشروا ولا زهدوا ولا تعبدوا ، وزعموا أنهم قد قنعوا بطيب قلوبهم مع الله تعالى واقتصروا على ذلك ... » .

(المقرئ : الخطط ج ٢ ص ٤٣٢ — ٤٣٣ ، بولاق) .

(١٣٨) الذهبي : تاريخ الاسلام ج ٣٢ ص ٧٥ .

(١٣٩) السخاوي : الذيل على رفع الاصر ص ٣٧ .

والأعلام على رأسه^(١٤٠) . وقد أشار ابن خلدون إلى هذه الطائفة من الصوفية بقوله : « ومن هؤلاء المريدين من المتصوفة قوم بهاليل معنوهون ، أشبه بالمجانين من العقلاء ، وهم على ذلك صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين »^(١٤١) .

وشايح كثير من سلاطين المماليك بمصر حركة التصوف ، وشاركوا عامة الشعب في الاعتقاد في الصوفية والعطف عليهم . فالسلطان برقوق رتب للمدرسة التي أنشأها بين التصرفين عددا من الصوفية وقرر لهم المرتبات الكثيرة^(١٤٢) . بل إن خوند شكرباي الأحمديّة — زوجة السلطان خشقدم — غلب عليها التصوف ، فاتبعت الطريقة الأحمديّة ونسبت إليها ، وذهبت أكثر من مرة لزيارة ضريح السيد أحمد البدوي بطنطا . وعندما ماتت « لم يغط نعشها ببشخاناه على عادة الخوندات ، بل جعل على نعشها خرقة مرقعة للفقراء ، وجعل أمام نعشها أعلام أحمديّة ، وذلك بوصية منها »^(١٤٣) . أما عن أمراء المماليك ، فحكى عن الأمير حسام الدين لاجين أنه « يجب الفقراء ويجمعهم على سماطه »^(١٤٤) . بل إن الأمير طوقاي العمري المتوفى سنة ٨٠٠ هـ « كان نقيب الفقراء »^(١٤٥) . فإذا بلغ اعتقاد السلاطين والأمراء في الصوفية هذه الدرجة ، فلا عجب إذا آمن كثير من عامة الشعب المصري في عصر سلاطين المماليك بالصوفية ومشايخهم إيماناً راسخاً ، فقصدهم لمشاركتهم في أذكار أو لقضاء حوائجهم^(١٤٦) . وإذا تعرض

-
- (١٤٠) ابن الحاج : المدخل ج ٣ ص ١٧٩ — ٢٠٥ .
(١٤١) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٤ — ١٢٥ .
(١٤٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٦٠٠ .
(١٤٣) ابن اياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ١٥٩ ،
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٨٠٩ .
(١٤٤) ابن حبيب : درة الإسلاك ج ١ ص ٣٣ .
(١٤٥) العيني : عقد الجمان سنة ٨٠٠ هـ .
(١٤٦) الذهبي : تاريخ الإسلام ج ٣٢ ص ٤١ — ٤٢ ، ذيل الاعلام
ج ٢ ص ١٨٩ .

للسوفية أحد: بما يمسهم ، قام العامة عليه وأرادوا قتله^(١٤٧) ، حتى وصفوا هؤلاء الفقراء بأنهم « ملوك الآخرة الذين يدخلون الجنة قبل الأغنياء »^(١٤٨) .

على أنه من الضروري أن نشير إلى أن انتشار التصوف والمتصوفة في مصر على عصر سلاطين المماليك كان له أثر خطير في الحياة الاجتماعية . ذلك أنهم بالغوا في صبغ القيم والمثل العليا بصبغة الزهد والرغبة عن الدنيا ومقاعها ، والاتجاه نحو الآخرة ، والعمل لها . وترتب على هذه الاتجاهات نشر روح الاستكانة والقناعة والتذلل بين عامة الناس ، مما ظلت بقاياها في نفوس الكثيرين أمدا طويلا .

الخواتق والربط والزوايا :

وقد استتبع انتشار التصوف وكثرة الصوفية في عصر سلاطين المماليك أن أخذت الخانقاه تحل محل المدرسة تدريجيا^(١٤٩) ، فكثرت عدد البيوت التي خصصت للصوفية والتي أطلق عليها خواتق وربط وزوايا .

والخانقاه لفظ مأخوذ عن الفارسية ، ومعناه البيت الذي ينزل فيه الصوفية . أما الرباط فهو في الأصل البناء المحصن الذي يقام قرب الحدود ويرابط به جماعة من المجاهدين لمهاجمة الأعداء ودفن خطرهم . وأكثر المسلمون من إقامة الربط على أطراف دولتهم ، لا سيما في الشام والمغرب والأندلس . وكان أهل الرباط أو المرابطون يجمعون بين حياة الجهاد والحياة الدينية ، حتى ضعف خطر المسيحية على الإسلام في المشرق وعندئذ أخذ الرباط يفقد طابعه الحربي وتغلبت عليه الصفة

(١٤٧) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٣٠٢ - ٣٠٣ ، ترجمة أحمد ابن محمد الحنبلي .

(١٤٨) النويري : الالمام بالاعلام ج ٢ ص ٥١٧ - ٥١٨ .

Ibrahim Salama : op. cit; p. 121.

(١٤٩)

الدينية • ولم يلبث انتشار التصوف أن خلق مبررا لبقاء الربط (Raison D'Être) ، فتحوّلت إلى دور للمتصوفة ، وبالتالي أصبح الرباط يطلق على المكان الذي ينزل به الصوفية^(١٥٠) • ويبدو لنا من كتابات المعاصرين أن الرباط غلبت عليه صفة الملجأ ، فقد ذكر المقرئ أن بييرس الجاشنكير بنى رباطا قررا به مائة من الجند وأبناء الناس « الذين قعد بهم الوقت »^(١٥١) • كذلك نفهم أن الغرض الأساسي من إنشاء الربط الخاصة بالنساء هو أن تكون « كالمودع للنساء الأرامك » ، كما سيلى بعد قليل في شيء من التفصيل • أما الزاوية ، فقصد بها في الأصل مبنى أو مسجد صغير للصلاة والعبادة ، وما زالت بعض المساجد الصغيرة بمصر حتى اليوم يطلق عليها اسم زوايا • ولكن لفظ زاوية تطورا معناه في المغرب الاسلامى ، فأصبح يقصد به الخانقاه أو منزل الصوفية^(١٥٢) •

وهكذا نجد الخانقاه والرباط والزاوية تشابهت معانيها في مصر على عصر سلاطين المماليك ، حتى اختلط الأمر على المعاصرين ولم يستطيعوا التفرقة بين مدلول هذه الألفاظ الثلاثة • فابن الحاج يقول أن الرباط هو المسمى في عرف العجم خانقاه^(١٥٣) • وابن بطوطة يقول أن الخانقاه هي الزاوية ، وأن المصريين يطلقون على زواياهم اسم خانقاوات أو خوانق^(١٥٤) • أما المقرئى فقد فرق في تعدادها بين الخوانق والربط والزوايا ، وذكر كل نوع في قائمة مستقلة خاصة به ، ولكنه في تعريفه لكل نوع لم يخرج عن معنى واحد هو أنها كانت جميعا « بيت الصوفية ومنزلهم »^(١٥٥) •

Marcas : Ribat.

(١٥٠)

(١٥١) المقرئى : الخطط ج ٤ ص ٢٧٦ •

Proveacal : Zawiya.

(١٥٢)

(١٥٣) ابن الحاج : المدخل ج ٣ ص ١٨٥ •

(١٥٤) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٧١ •

(١٥٥) المقرئى : الخطط ج ٤ ص ٢٧١ - ٣٠٠ •

ومهما يكن الأمر ، فقد أثارت كثرة هذه المؤسسات الخاصة بالصوفية دهشة الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر في عصر المماليك وشبهها بعضهم بالملاجئ^(١٥٦) والحق إن هذا التشبيه جاء صادقا إلى حد بعيد ، لأن منازل الصوفية في ذلك العصر لم تكن بيوت عبادة فحسب ، بل اتخذت أيضا مأوى لطوائف المريدين يقيمون فيها ليلا ونهارهم ، كما اتخذت كذلك مأوى لأصحاب الماهات وكبار السن والعميان ، فضلا عن المطلقات من النساء^(١٥٧) .

وقد اهتم سلاطين المماليك وأمراؤهم ببيوت الصوفية فشيّدوا منها الكثير وحسبوا عليها الأوقاف السخية ، حتى قال ابن بطوطة عن أمراء مصر في القرن الثامن الهجري أنهم « يتنافسون في بناء الزوايا »^(١٥٨) . فإذا تم بناء إحدى الزوايا افتتحها السلطان أو بعض كبار الأمراء في حفل كبير يحضره رجال الدين والقضاة ومشايخ الصوفية^(١٥٩) . واعتبرت مشيخة الخوانق من النوائف التي يصدر بها (قرار) من ديوان الإنشاء السلطاني ، وكل خانقاه يعامل شيخها في المكاتب حسب أهمية الخانقاه التي يتولى مشيختها^(١٦٠) . ويقال إن السلطان شيخ اعتاد النزول بين حين وآخر إلى إحدى الزوايا لحضور السماع « فتتراقص وتتواجد الصوفية بين يديه » وهو يرى ويسمع ويكرر منها ما يعجبه ، وفي آخر الليل ينعم على الصوفية ببعض المال ثم يعود إلى القلعة^(١٦١) .

(١٥٦) Dopp : Le Caire Vu ... Tome 26; p. 102.

(١٥٧) زكى مبارك : التصوف ج ١ ص ٣٥٧ .

(١٥٨) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٧١ .

(١٥٩) زيترشتين : تاريخ المماليك ص ١٧٥ ، ١٩١ ، ٢٢٦ ، أبو

الحاسن : النجوم ج ٩ ص ٧٩ — ٨٤ ، ابن حبيب درة الاسلام ج ٢ ص ٢٩٣ .

(١٦٠) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١١ ص ٣٧٠ .

(١٦١) أبو الحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٤٠ ، ابن حجر : انباء الغمر

ج ٢ ص ١٣٥ ، العيني : عقد الجمان سنة ٨١٨ هـ .

وجرت العادة أن يعين لكل زاوية أو خانقاه شيخ أو أكثر وعدد من الصوفية^(١٦٣) . أما شيخ الخانقاه فاشتراط فيه أن يكون « من جماعة الصوفية ممن عرف بصحبة المشايخ وألا يكون قد اتخذ من التصوف حرفة »^(١٦٣) . وتمتعت معظم الخانقاوات بأوقافها، يصرف عليها من إيراداتها ، وكثيرا ما نصت شروط الوقف على تقديم الأفقر والأحوج للنزول بالخانقاه ، وبعد ذلك يأتى الفقراء المغتربين ، كذلك كان يفضل الأعزب على المتزوج للمبيت فى الخلاوى ، حتى يكون منقطعاً للعبادة متفرغاً لها .

كذلك حرصت معظم الحجج المعاصرة الخاصة بأوقاف الزوايا على وضع الشروط الكفيلة بانقطاع الصوفية للعبادة وعدم تغييبهم عن الخانقاه أكثر من ثلاثة أيام فى الشهر الواحد « لا يقطع لهم فيها معلوم ، وإن غاب الصوفى أكثر منها قطع معلومة ووفر للخانقاه »^(١٦٤) ولم يكن من مصلحة أهل الزاوية أن يزداد عددهم ، لأن الوقف ثابت فتؤدى زيادة العدد الى انخفاض مستوى معيشة الأعضاء^(١٦٥) . كذلك ظهرت عصبية طائفية بين صوفية الزوايا المختلفة ، بمعنى أن الريد الذى ينتقل من شيخ الى آخر أو من زاوية الى أخرى يتهم بأنه أراد الدنيا ولم يرد الدين ، وذلك لاختلاف الزوايا فى ليونة العيش باختلاف الأوقاف الموقوفة عليها وأقدار أسيانها . فبعض الزوايا يهدى لأهلها الخبز القفار ، والبعض الآخر يحمل الى أهلها اللحوم والفواكه وعسل النحل^(١٦٦) .

-
- (١٦٢) عبد الوهاب عزام : مجالس الغورى ص ٢٨ .
(١٦٣) حجة وقف بيبرس الجاشنكير (المحكمة الشرعية - ٢٣) .
(١٦٤) حجة وقف الأشرف برسباى (دار الكتب المصرية) .
(١٦٥) نيل الأعلام بتاريخ أهل الإسلام ج ١ ص ١٠٧ ، خطط المقرئى ج ٤ ص ٢٧٥ .
(١٦٦) زكى مبارك : التصوف ج ١ ص ٣٥٩ .

ويتضح من دراسة نظم الخانقاوات أن كلا منها كانت وحدة قائمة بنفسها ، ويدخلها عدد معين من الخلوات خصصت كل منها لأحد الصوفية ، وألحق بالخانقاه حمام ومطبخ . وقد ألحق ببعض الخوانق خزائن للأشربة والأدوية ، وعين بحمامها حلاق لتدليك الأبدان وحلق الرؤوس ، وبذلك تتوافر لأهل الخانقاه الضروريات التي تغنيهم عن العالم الخارجي^(١٦٧) . كذلك خصص لكثير من الخانقاوات طبيب وجراحى وكحال لعلاج الصوفية ، فنصت حجة وقف الغورى — مثلا — على تخصيص طبيب يتقاضى فى الشهر خمسمائة درهم « يتفقد مرضى الصوفية ويصف لكل منهم ما يناسبه من الأدوية ويحسن علاجه »^(١٦٨) . وللصوفية فى معيشتهم داخل زواياهم آداب خاصة وقواعد مرعية ، فقسم بعض مشايخ الخوانق مريديهم من الصوفية ثلاثة أقسام ، كهول وشباب وأطفال ، وجعلوا لكل فئة قسما خاصا بحيث لا يختلط أهله بغيرهم ولا يجتمعون إلا يوما واحدا فى الاسبوع ليتناقشوا فيما وقع بينهم طوال الاسبوع . ذلك أنه أخذ عليهم العهد ألا يثار أحدهم لنفسه إذا اعتدى عليه زميله ، بل يعفو عنه ويشكو للشيخ فيفعل فيه ما يشاء . وقد بلغ بهم الأمر أن الصوفى إذا جاءه أبوه أو أخوه من البلاد بعد غيبة طويلة فإنه يراه ولا يكلمه لا يستطيع أن يسلم عليه حتى يشاور النقيب^(١٦٩) . وأفاض ابن بطوطة فى وصف معيشة أهل الزوايا بمصر على عصر سلاطين المماليك وقال : « إن ترتيب أمورهم عجيب » ! ففى الصباح يأتى خادم الزوايا الى المقسراء فيعين له كل واحد ما يشتهي من الطعام ، فإذا اجتمعوا للأكل جعلوا أكل واحد خبز ومرقه فى إناء على حدة لا يشاركه فيه أحد ، وطعامهم مرتان فى اليوم . وكان معظم الصوفية أعزاب ، وللمتزوجين منهم زوايا خاصة بهم واشترط عليهم حضور الطلوات الخمس والمبيت بالزوايا .

(١٦٧) القرزى : الخطط ج ٤ ص ٢٨٥ .

(١٦٨) حجة وقف السلطان الغورى (٨٨٣ — اوتاف) .

(١٦٩) الشعرانى : لوائح الأنوار ج ٢ ص ١٢٠ — ١٢١ .

ومن عوائدهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة خاصة به (١٧٠) .
وللصوفية « هيئة فاضلة » يوم الجمعة ، عندما يخرجون في موكب
إلى الجامع والخادم يحمل لهم جميع سجاجيدهم ، وبعد الصلاة
وقراءة القرآن ينصرفون مجتمعين ومعهم شيخهم (١٧١) . ومن عاداتهم
مع الغريب القادم إليهم أنه يأتي بباب الزاوية فيقف به مشدود
الوسط ، وعلى كاهله سجادته وبيمينه العكاز ويسراه الأبريق .
فيخرج إليه خادم الزاوية ، ويسأله من أي البلاد أتى وبأي الزوايا
نزل في طريقه ، ومن شيعه ، فإذا تأكد من صحة قوله أدخله الزاوية
وفرش له سجادته في موضع يليق به (١٧٢) . وقد تطرف بعضهم في هذه
القواعد التي اتبعوها مع القادم الغريب فيخرجون إليه أولاً بعض
الشبان ليؤذونه بالثتم والسب ، وربما يخرقون حرمة ويكسرون
أبريقه ، فإذا يئسوا من غضبه سمحوا له بالدخول . ويعلمون ذلك
بضرورة التأكد من حسن خلقه وتحمله للأذى وكظمه للغيط ، فإذا
غضب منهم لا يدخلونه الزاوية . كذلك يأمرونه عند دخول الزاوية
أن لا يسلم على أحد ، ولا يسلم أحد عليه خوفاً من أن يكون على غير
وضوء . فإذا توضأ وصلى ركعتين يأتي إليه أهل الزاوية ويسلمون
عليه ويبسطون له الأئس ، ويقوم هو إليهم ويعانقهم ، ثم يتكلمون
بالكلام « الذي لا يخلو في الغالب من التتميق والتركية » (١٧٣) .

أما الربط الخاصة بالنساء ، فالغرض الأساسي من تشييدها هو

(١٧٠) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٧١ - ٧٢ .

(١٧١) القرينى : الخطط ج ٤ ص ٢٧٤ ، رحلة ابن بطوطة ج ١

ص ٧٣ .

(١٧٢) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٧٣ .

(١٧٣) ابن الحاج : المدخل ج ٣ ص ١٨٥ - ١٩٠ .

(١٧٤) ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٣٧٦ ، السخاوى : الضوء

اللامع ج ١٢ ص ٢٥ ترجمة خديجة ابنة أمير حاج ، ص ٤٤ - ٤٥ ترجمة
زينب ابنة العلاء .

أن تكون « كالمودع للنساء والأرامل » أى ملاجئ لهن^(١٧٤) . وفى تلك الریط حاكت النساء الرجال فى لبس المرقتات من الصوف^(١٧٥) . ووصف المقریزی بعض هذه الریط بشدة الضبط وغاية الاحتجراز والمواظبة على وظائف العبادات « حتى أن خادمة الفقیرات كانت لا تمكن أحدا من استعمال ابریق ببزبوز وتؤدب من خرج عن الطریق بما تراه »^(١٧٦) .

على أن حياة الصوفیة لم تلبث أن تغيرت أواخر عصر الممالیک ، فتغير وضعهم من الصلاح الى الفساد ، وتخلوا عن النظم والآداب التى عرفوا بها بین الناس ، فصارت أذکارهم بصوت مسموع ويشترك فیها جماعة ومن ثم سمیت السماعات^(١٧٧) . ولم تلبث أن أصبحت انشبابه والمزمار والدف والرقص والتصفيق من مظاهر تلك السماعات الأساسية ، « فإذا دب معه (المتصوف) الطرب قليلا حرك رأسه كما يفعل أهل الخمر سواء بسواء ، ثم اذا تمكن الطرب منه ذهب حياؤه ووقاره ، فيقوم ويرقص ، ويعيط وينادى ويبكي .. ويدخل ويخرج وييسط يده ويرفع رأسه نحو السماء كأنه جاءه المدد منها ، ويخرج الرغبة أى الزبد من فيه ، وربما مزق بعض ثيابه وعبث بلحيته ا . . . »^(١٧٨) .

كذلك أنشأ مشايخ الخانقاوات يمدون الأسمطة الفاخرة ويجمعون فى مجالسهم « الأراذل وأصحاب المغانى والملاحى »^(١٧٩) . ومنهم من اعتاد أخذ أموال الوقف ليصرفها فى اللهو والخمر ، مع التجاهر بذلك^(١٨٠) . بل إن بعضهم استحضر الرد فى مجالسهم وزينوهم

-
- (١٧٥) السخاوى : تحفة الاحباب ص ١٨٠ .
 - (١٧٦) المقریزی : الخطط ج ٤ ص ٢٩٤ .
 - (١٧٧) : ابن الحاج : المنخل ج ١ ص ١٠٤ .
 - (١٧٨) المصدر السابق ج ٢ ص ٢ - ٦ .
 - (١٧٩) العينى : عقد الجمان سنة ٨٠٢ هـ .
 - (١٨٠) الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ج ١ وفيات سنة ٧٤١ هـ .

بالحلى والصبغات وزعموا أنهم إنما أرادوا الاستشهاد على قدرة الله « والاستدلال بالصنعة على الصانع ١١ » (١٨١) . كذلك قيل أن نعاطى الحشيش ساد بين الصوفية حتى نسب إليهم فسمى « حشيشة الفقراء » (١٨٢) ، وعلى عاتقهم تقع مسئولية نشر هذه الآفة بين الجماهير (١٨٣) .

ويبدو أن انتشار الفقر والفاقة واليأس من الحياة في أواخر العصر المالكي جعلت كثيرين يقبلون على التصوف فرارا من ظلم المالك ، مضمت الخوانق والربط والزوايا كثيرا من الدخلاء الذين لم يقبلوا على هذه الحياة رغبة في الانقطاع للدين وإنما فرارا من قسوة الحياة ورغبة في الهناء دون عناء (١٨٤) . وهكذا أخذ الصوفية يحيون حياة مترفة بالنسبة لبقية الناس ، اذ لا شك في أن الدنيا شغلت أذهانهم فلم تخل منها قلوبهم (١٨٥) ، فانصرفوا عن الذكر والعبادة إلى البحث عن المال والمتاع في ظل الأوقاف الواسعة التي تمتعت بها الخوانق ، حتى وجد من الصوفية من ارتبط بأكثر من خانقاه طمعا في المال (١٨٦) .

واستكثر كثير من المعاصرين ذلك الوضع الذي آل إليه أمر

-
- ١٨١) ابن الحاج : المدخل ج ٣ ص ٩٥ — ١١٩ .
١٨٢) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ٢٠٥ .
١٨٣) زكى مبارك : التصوف ج ٣ ص ٢٠٥ .
١٨٤) عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية وأثرية ج ١ ص ١٥٩ .
١٨٥) توفيق الطويل : التصوف في مصر ص ١٥١ — ١٥٢ .
١٨٦) عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية وأثرية ج ١ ص ١٦٠ . محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ص ٢٠٤ — ٢٢٣ .
(م ١٣ — المجتمع المصرى)

الصوفية^(١٨٧) ، كما اشتد السلطان جقمق في منع الصوفية من عمل
« ما لا يجوز في زواياهم »^(١٨٨) ، ولكن جهودهم ذهبت أدراج
الرياح . وهكذا تطور أمر الصوفية حتى أصبحوا — على قول
المقريزي — « لا ينسبون إلى علم ولا ديانة وإلى الله المشتكى »^(١٨٩) .

(١٨٧) ومما قيل في ذلك (السخاوي : التبر المسبوك ص ٢٢٠) :
صوفية أحدثوا في ديننا لعبا وخالفوا الحق دين المصطفى العرب
من اقتسدى بهم قد ضل مثلهم سحقا لمذهبهم ولو كان من ذهب
أهل الرائق لا تأخذ بمذهبهم فقد تهادوا على التويه والكذب
(١٨٨) أبو الحسن : حوادث الدهور سنة ٨٥٢ هـ .
(١٨٩) المقريزي : الخطط ج ٤ ص ٢٧٢ .

الفصل السابع

الأعياد الدينية والقومية

فلما مضى شهر من شهور السنة طوال عصر سلاطين المماليك دون أن تشهد البلاد عيداً دينياً أو قومياً أو احتفالاً سلطانياً أو موسماً من المواسم التي اشتهرت في إحيائها المسلمون والمسيحيون من أهل البلاد . ولم يكن في هذا جديد على المجتمع المصري فالفاطميون حرصوا على الاحتفال بالأعياد والمواسم احتفالات واسعة إيماناً في العناية لمذهبهم الشيعي . ولم يعرف عن الأيوبيين أنهم أبطلوا من الأعياد والمواسم إلا ما كان منها شيعياً واضحاً . وسار المماليك على نهج الأيوبيين في العناية بالأعياد والمواسم ، بل استحدثوا فيها وأضافوا إليها وشجعهم على ذلك وفرة المال والثروة .

رأس السنة الهجرية :

أما الأعياد الدينية فأولها عيد رأس السنة الهجرية ، ويحتفل به في غرة المحرم ، فيطلع الخليفة والقضاة الأربعة إلى القلعة ليهنئوا السلطان « بالعام الجديد »^(١) . ويخصص السلطان — بهذه المناسبة — أرزاقاً ومنحاً إضافية لأرباب الرواتب ، وذلك « لاستقبال المحرم »^(٢) على أن التهنئة بأول كل شهر عربي جرت مجرى العادة كذلك ، فينهض القضاة ومشايخ العلم لتهنئة السلطان^(٣) . وقد حرص العلماء والتجار وعامة الناس على تبادل التهنئة أول المحرم وفي اليوم

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٩٩ ، ج ٣ ص ٤ .

(٢) القرينى : السلوك ج ٢ ص ١٦٥ .

(٣) السنخاوى : التبر المسبوك ص ١٤٥ ، ٢٥٤ .

الأول من كل شهر عربي ، كما اعتاد أصحاب السعة منح العطايا لكل
وارد عليهم « يوم تهنته الشهر »^(٤) .

عاشوراء :

أما يوم عاشوراء — وهو اليوم العاشر من المحرم — فاعتبره
فقهاء عصر المماليك من المواسم الشرعية الرئيسية^(٥) . وقد اعتاد
الناس في ذلك اليوم التوسعة على الأهل والأقارب واليتامى والمساكين ،
حتى بلغ الأمر ببعض الأثرياء أن يتصدق بألف دينار في يوم
عاشوراء^(٦) . ومن وجبت عليه الزكاة في شهر آخر من أشهر
السنة يؤجلها حتى يخرجها في عاشر المحرم^(٧) . وتمسك الناس في
عصر المماليك بعبادات خاصة بيوم عاشوراء — ما زال بعضها باقيا حتى
اليوم مثل طبخهم الحبوب وزيارة القبور وشراء البخور. لأنه يبرئ
من « العين والنظرة » في ذلك اليوم^(٨) . كذلك اعتادت النساء في
عصر المماليك زيارة الجامع العتيق بمصر (الفسطاط) في يوم عاشوراء ،
والإقامة به من أول النهار حتى الزوال ، لا يشاركهن فيه الرجال .
وهناك يقضون يومهم في التبرك بجدران المسجد^(٩) ، أما الشيعة فقد
حرصوا في يوم عاشوراء على إقامة عزاء الحسين فينشد شعراؤهم
قصائد الرثاء وفق ما جرت به العادة في مصر الفاطمية^(١٠) . هذا في
حين يفاخر شعراء أهل السنة شعراء الشيعة ، وتخرج نسائهم الى

(٤) الشعرائى : ذيل لواقع الانوار ص ١٢٢ .

(٥) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٨٩ .

(٦) الألفوى : الطالع السعيد ص ٢٥ .

(٧) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٩٠ .

(٨) نفس المصدر والجزء ص ٢٨٩ — ٢٩١ .

(٩) نفس المصدر والجزء ص ٢٩٠ .

(١٠) محمد كامل حسين : التشيع في الشعر المصرى في عصر الأيوبيين

والمماليك . ص ٧٣ — ٧٤ .

الطريق وقد كحلن أعينهن وخضبن أيديهن بالحناء » فمن لم تفعلها فكأنها ما قامت بحق عاشوراء» (١١) .

المولد النبوى :

ثم يأتى بعد ذلك الاحتفال بالمولد النبوى فى شهر ربيع الأول ، وهو أول الأعياد الدينية العامة فى جميع البلاد الاسلامية . وقد حرص سلاطين المماليك وعامة الشعب على الاحتفال بهذا العيد احتفالاً يفوق الوصف من حيث العظمة والفخامة . ففى مستهل ربيع الأول يبدأ الاحتفال بالمولد النبوى ، حتى إذا ما حلت الليلة الكبرى — وهى ثمانى عشر ذلك الشهر — أقام السلطان بالحوش السلطانى بالقلعة خيمة ذات أوصاف خاصة ، سماها المعاصرون خيمة المولد (١٢) . وأول من صنع هذه الخيمة السلطان قايتباى فكلفها ثلاثين ألف دينار ، حتى جاءت « من جملة عجائب الدنيا » (١٣) . وقيل فى وصف خيمة المولد أنها زرقاء اللون ، وشكلها شكل قاعة فيها ثلاثة أو اوين وفى وسطها قبة على أربعة أعمدة (١٤) . وبعد الانتهاء من إقامتها يوضع عند أبوابها أحواض من الجلد تملأ بالماء المحلى بالسكر والليمون ، ثم تعلق حولها الأكواب الفاخرة المصنوعة من النحاس الأصفر والمزينة بالنقوش الجميلة ، وترتبط هذه الأكواب بسلاسل من النحاس ، ويصطف حولها طائفة من غلمان الشرايخانة ، لناولة الوافدين من الناس ، لا فرق بين كبير وصغير (١٥) . ويبدأ الاحتفال بعد الظهر وينتهى عند ثلاث الليل (١٦) . وعندما يستقر السلطان فى صدر خيمته يجلس عن يمينه

-
- (١١) ابن الحاج : المحفل ج ١ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .
 - (١٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ١٦ — ١٧ .
 - (١٣) المصدر السابق ج ٣ ص ١١٢ .
 - (١٤) الحسينى : نفائس المجالس السلطانية ص ١١٨ .
 - (١٥) السنديوى : الاحتفال بالمولد النبوى ص ١٢٥ .
 - (١٦) ابن حجر : انباء الغر ج ٢ ص ٤١٢ — ٤١٣ .

شيخ الإسلام وعن يساره قضاة القضاة الأربعة وشيوخ العلم ،
في حين يأخذ الأمراء أماكنهم على مسافة من السلطان^(١٧) . ويبدأ
الاحتفال بتلاوة آي الذكر الحكيم فيتعاقب المقرئون ، وكلما فرغ
أحدهم من التلاوة أنعم عليه السلطان « بخمسمائة درهم فضة »
وبعد ذلك يأتي الوعاظ واحدا بعد آخر ، وكلما فرغ أحدهم من الوعظ
ناوله السلطان « بصرة فيها أربعمائة درهم فضة ومن كل أمير
شقة حرير »^(١٨) . وبعد صلاة المغرب تمد أسمطة الحلوى السكرية
المختلفة الألوان ، فتؤكل « وتخطفها الفقهاء »^(١٩) ، للتوسعة على
أبنائهم . وامتازت الصحنون التي توضع على هذه الأسمطة بالانتساع
والكبر ، حتى أن أحد الفقراء أخذ صحنها ووزنه فزاد على ربع
قنطار^(٢٠) .

ثم إذا انتهى الطعام أخذ المنشدون في الإنشاد فميدحون الرسول
عليه الصلاة والسلام ، ويذكرون مولده حتى ثلث الليل^(٢١) . وبعد
ذلك يأتي الخليفة والقضاة والأمراء والجند طائفة بعد أخرى ليقبلوا
الأرض أمام السلطان فينعم عليهم جميعا « من الشريف والوضيع »
بالخلع ، كما « يجبر خاطرهم » بالمنح^(٢٢) . أما السماع فيبدأ من
ثلث الليل ويستمر حتى الفجر ، فتأتى طوائف الفقراء طائفة بعد أخرى
ومعهم رئيس المغنين ورئيس المشبيين ويستمرن في الرقص^(٢٣) ،

(١٧) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ٣٧٣ .

(١٨) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٥٧٥ ، المقرئى : السلوك
ج ٤ ص ٣٦ - ٣٧ .

(١٩) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ٣٧٣ .

(٢٠) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٥٧٥ .

(٢١) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ٣٧٣ ، السلوك ج ٤ ص ٣٦ - ٣٧ .

(٢٢) الحسيتى : نفائس المجالس السلطانية ص ١٢١ - ١٣٠ .

(٢٣) تاريخ ابن الفرات ج ١ ص ٢٦ سنة ٧٩٠ هـ ، المقرئى : السلوك

ج ٣ ص ٤٨٧ .

والسلطان جالس « ويده تملأ من الذهب ويفرغ لمن له رزق فيه ،
والخازن دار يأتيه بكيس بعد كيس ، حتى قيل أنه فرق في الفقراء
ومشايخ الصوفية والزوايا في تلك الليلة أكثر من أربعة آلاف دينار» (٢٤) .
كذلك بلغ مقرر بعض المادحين والمغنين في ليلة المولد من السلطان ألف
درهم (٢٥) . وفي صباح يوم المولد النبوي يوزع السلطان كميات
من القمح على الزوايا والربط (٢٦) . واعتاد كثير من سلاطين المماليك
الاحتفال بمولد النبي في الدور السلطانية الخاصة بزوجات السلطان ،
وذلك صبيحة اليوم التالي للاحتفال الكبير . لكن يبدو أن هذا الاحتفال
لم تكن له صفة رسمية ، فلا يحضره أحد من القضاة أو مقدمى
الألوف (٢٧) .

ويترقب عامة الناس أيضا الاحتفال بالمولد النبوي « فيعملون
الولائم لذلك ، ويتصدقون في ليلته بأنواع الصدقات ، ويظهرون
السرور ، ويزيدون في العبرات ويعتنون بقراءة مولده الكريم» (٢٨) .
كذلك اعتاد كثير من الناس إحياء الذكرى الكريمة في بيوتهم ، وتطرف
بعضهم في هذه الحفلات فجاجوا بالمغاني وآلات الطرب وتسابقوا في
اللعب بالدف والشبابة (٢٩) . وأقيمت أمثال هذا الاحتفال بالمولد
النبوي للنساء خاصة « فتكثر البدع والمخالفات» (٣٠) . وجبرت
العادة أن المدعوين إلى مثل هذه الحفلات « ينقطنون » صاحب الدار
ببعض الدراهم من باب المجاملة ، على أن يردها لهم في إحدى حفلاتهم
أو أفراحهم المقبلة (٣١) .

-
- (٢٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٥٧٥ .
 - (٢٥) نيل الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ج ١ ص ٣٣ .
 - (٢٦) عبد الله الكاتب : اللطاف الخفية ص ٦٢ .
 - (٢٧) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٤ ص ٧٥٢ .
 - (٢٨) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٣ ، ١٤ .
 - (٢٩) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٢ - ٦ .
 - (٣٠) المصدر السابق ج ٢ ص ١١ .
 - (٣١) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٥ .

دوران الحمل :

وفي النصف الأخير من شهر رجب تحتفل القاهرة ومصر بدوران الحمل^(٣٢) . والواقع أن الاحتفال بدوران الحمل في عصر سلاطين المماليك كان يحدث مرتين في السنة ، الأولى في شهر رجب والثانية في شوال^(٣٣) . أما الدورة الأولى — التي أطلق عليها « دوران الحمل الرجبي »^(٣٤) فأول من استحدثها في مصر هو السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٧٥ هـ^(٣٥) . وقد قيل أن الغرض من تدوير الحمل في هذا الوقت المبكر من السنة هو إعلام الناس أن الطريق من مصر الى الحجاز آمن ، وأن من شاء الحج فلا يتأخر ولا يتخوف من الطريق^(٣٦) ، وبذلك « تهيج العزمات وتبعث الأشواق وتتحرك البواعث فيأخذ من يشاء في التأهب للحج »^(٣٧) .

وكان الاحتفال بدوران الحمل من أجل الاحتفالات التي ينتظرها الناس ، فينادى قبل مواعده بثلاثة أيام أن يزين الناس حوانيتهم ودورهم^(٣٨) . وفي الليلة المحددة للاحتفال يحرق النفط وتعمل الصواريخ^(٣٩) ، فيخرج الناس من كل مكان للفرجة ، ويتغالون في

(٣٢) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٢٧٢ .

(٣٣) التلقئندى : صبح الأمشى ج ٤ ص ٥٧ — ٥٨ .

(٣٤) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٨٨ ، ٣٠١ .

(٣٥) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٨ ، على مبارك : الخطط التوقيعية ج ١ ص ٢٩ .

(٣٦) ابن حجر : انباء الغر ج ٢ ص ٤٥٠ سنة ٨٣١ هـ .

السخاوى : التبر المسبوك ص ٩٥ سنة ٨٤٨ هـ .

(٣٧) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٩٣ .

(٣٨) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٥٠٧ ، حوادث الدهور ج ٣

ص ٥٣٨ .

(٣٩) ابن اياس : صفحات لم تنشر ص ١٧٣ سنة ٨٧١ هـ .

اكتراء البيوت والحوانيت مغالاة كبيرة^(٤٠) ، وربما قضوا ليلتهم في الطريق ، حتى النساء « بيتن في الحوانيت حتى ينظرن المحمل من الغد »^(٤١) . ويزين أصحاب الحوانيت والأسواق حوانيتهم بشقق الحرير والحلى^(٤٢) . ولا يكون دوران المحمل غالبا إلا يوم اثنين أو خميس^(٤٣) ، وعندئذ توضع الكسوة — وهى من الحرير النفيس المطرز بالذهب والقصب — على جمل « فى هيئة لطيفة » ، ويبدأ الموكب من عند باب النصر وأمامه الوزير والقضاة الأربعة والمحتسب والشهود وناظر الكسوة وغيرهم^(٤٤) . كذلك يركب جماعة من المماليك السلطانية الرماحة وهم فى ملابس الحرب وبأيديهم الرماح ، ويظل الموكب يتهادى فى طريقه حتى يصل الى القلعة ، حيث يلعب المماليك برماحهم ثم ينصرف المحمل بعد ذلك الى الفسطاط^(٤٥) . ويقال أن الذى أحدث اللعب بالرمح عند دوران المحمل هو السلطان قلاوون^(٤٦) . وهكذا يتم دوران المحمل فى « يوم مشهود

(٤٠) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٣ ص ١٨٠ .

(٤١) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٤٧٠ حوادث سنة ٨٧٥ هـ .

(٤٢) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٧٣ .

(٤٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧٥ .

(٤٤) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ١٥ ، ٤٢٤ .

(٤٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٧ — ٥٨ .

(٤٦) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩٨ ، ٢١٠ .

ويذكر أبو المحاسن أن الطواف بالمحمل وكسوة الكعبة انما يرجع الى عصر السلطان المنصور قلاوون ، فيقول فى حوادث سنة ٦٨١ هـ « وأظن هذا هو أول ابتداء سوق المحمل المعهود الآن ، فاننا لم نقف فيما مضى على شىء من ذلك مع كثرة التمانئة الى هذا المعنى ، ولهذا غلب على ظنى من يومذاك بدأ السوق المعهود الآن . ولم يكن اذ ذاك على هيئة يومنا هذا ، وانما ازداد بحسب اجتهاد المعلمين ، كما وقع ذلك فى غيره من الفنون والملاعب والعلوم ، فان مبدأ كل أمر ليس كنهائيه ، وانما شرع كل معلم فى اقتراح نوع من أنواع السوق ، الى أن انتهى الى ما نحن عليه الآن ،

بشهد فيه كل ما بالديار المصرية من التحف والغرائب» (٤٧) .

ويخرج بعض الحجاج للزيارة في شهر رجب ، وهؤلاء يطلق عليهم « الحجاج الرجبية » . ولكن الخروج للزيارة في شهر رجب لم يتخذ صورة منتظمة ، فقد تصادف في عصر المماليك أن مضت ذات مرة ثمان عشرة سنة متتالية لم يخرج فيها أحد من الحجاج الرجبية . أما الموسم الرئيسي لخروج الحجاج الى الحجاز فهو شهر شوال (٤٨) ، على أن الاحتفال بدوران المحفل لم يخل من مفاسد كثيرة ، شأنه شأن كثير من الاحتفالات العامة في عصر سلاطين المماليك . وتسبب في هذه المفاسد غالباً جماعة المماليك الذين ينتهزون فرصة ازدحام الطرقات بالمارة ، وينبثون وسطهم لخطف عما يميمهم وصفح أفضيتهم وحرق لحاهم بالنار ، وربما تعدى الأمر الى خطف النساء والصبيان (٤٩) . وقد دأت المماليك على أن يمثلوا في هذه المناسبة ما أسموه « عفاريت المحمل » وهم جماعة من « أوباش المماليك السلطانية » يغيرون لباسهم بزي مضحك بشع ويركبون خيولاً في هيئة مزعجة ويأخذون في لزجاج الناس . واستئن هذه البدعة بعض العوام بقصد اضحاك الناس دون التعرض لهم أو إيذائهم ، فلما اختص بها المماليك ساءوا فهمها (٥٠) ،

ولا سبيل الى غير ذلك . وعلى هذه الصيغة أيضاً اللعب بالرمح فان مماليك قلاوون هم أيضاً أحدثوه ، وان كانت الاوائل تلعبه . . . » .

(أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣١١) .

وجدير بالذكر أن المقرئى ذكر في حوادث سنة ٦٦٤ هـ على عهد السلطان الظاهر بيبرس ، « وجهاز المحمل وخلع على المتوجه به الى الحجاز . . . » .

(السلوك ج ١ ص ٥٤٤) .

(٤٧) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك - الفصل السابع .

(٤٨) ابن دقماق : الجواهر الثمين ص ٢٢٧ .

(٤٩) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٨٠٠ ، ٨١٨ .

(٥٠) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٢ ص ٥٣٨ .

فصاروا يدخلون دور الأمراء والناس وحوانيت التجار ويفرضون عليهم وعلى المارة مبالغ معينة يجبوونها منهم غصبا ، ومن يمتنع منهم أذوه وأنزلوا به ضررا بليغا « حتى صار الناس يترقبون فراغ المحمل ليستريحوا من هذه الأنواع القبيحة » (٥١) . وقد اعتاد « عفاريت المحمل » — بعد أن صاروا من الممالك — أن يشنوا غاراتهم على الناس قبل دوران المحمل بيوم أو يومين غالبا ، ولكنهم بعد ذلك أصبحوا يكرهون في القيام بحملتهم قبل دورانه بأيام « ليطول تحكهم في الناس » (٥٢) .

ليالى الوقود :

وهناك عدة ليالى في العام الهجرى اعتاد المسلمون أن يحتفلوا بها ، أهمها أول ليلة من شهر رجب وليلة السابع والعشرين منه — وهى ليلة المعراج — وليلة نصف شعبان (٥٣) . وحرص كثير من الناس على إحياء هذه المواسم بالصيام — لا سيما صيام نصف شعبان (٥٤) — وبزيادة وقود القناديل والأشموع بالجوامع (٥٥) ، والاجتماع بها للذكر والقراءة ، والخروج الى المقابر . كذلك اعتاد الناس شراء الحلوى في هذه المواسم . فيكتظ سوق الحلاويين بأشكال مصنوعة من السكر

(٥١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥٠٧ — ٥٠٨ .

(٥٢) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٢ ص ٣١٦ ، النجوم ج ٧ ص

١٠٨ ، المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٩٦٣ .

(٥٣) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٩١ — ٣١٢ .

(٥٤) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٢٢ .

(٥٥) وناحية زيادة الوقود في هذه الليالى مأخوذة عن الفاطميين ، الذين اقتصروا أربع ليالى في السنة ، هى أول رجب ونصفه وأول شعبان ونصفه ، وسموها « ليالى الوقود » (القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠١) . وظلت هذه البدعة قائمة حتى عصر المماليك ، رغم استنكار العلماء ذلك التصرف لضيق المال عتبا . (السيوطى : منتقى النيوع ورقة ١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ٤ ق ٣ ص ٣٥٣ ، ٣٤٤ ، ابن قاضي شعبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ج ٣ ص ١٢٢) .

كالخيول والقطط وغيرها ، يشتريها الناس ليهدونها للأطفال^(٥٦) أو الأتارب والأصهار ، لا سيما إذا كانت المصاهرة جديدة^(٥٧) .

احياء رمضان :

واحتفل سلاطين المماليك بشهر رمضان احتفالا كبيرا يتفق ومكانته الدينية عند المسلمين . وقد وصف ابن بطوطة طريقة احتفال المصريين في القرن الثامن الهجري برؤية هلال رمضان ، وكان ذلك بمدينة إبيار ، فقال أنه في يوم الركبة — وهو يوم ارتقاب هلال رمضان ويوافق التاسع والعشرين من شعبان — اجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر بدار القاضي الشافعي . ووقف على باب الدار نقيب المتعممين ، فإذا أتى أحد الفقهاء أو الأعيان تلقاه ذلك النقيب ومضى بين يديه قائلا « باسم الله سيدنا فلان الدين » فيقوم له القاضي ومن معه ، ويجلسه النقيب في موضع يليق به . نأذا تكاملوا هنالك ، ركبوا جميعا وعلى رأسهم القاضي ، وتبعهم من بالمدينة من الرجال والصبيان ، حتى اذا ما انتهوا الى موضع مرتفع خارج المدينة — وهو مرتقب الهلال عندهم — ينزل القاضي ومن معه يرتقبون الهلال ، ثم يعودون بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشموع والمشاعل والفوانيس ، فيكون ذلك دليلا على ثبوت رؤية الهلال^(٥٨) . أما اذا حدث ارتباك بسبب كثرة السحب ، أو رؤية الهلال في بعض الجهات وعدم رؤيته في البعض الآخر ، فان الحاضرين يكفون بشهادة اثنين من الرجال^(٥٩) . وبعد ثبوت الرؤية يوقد التجار الشموع بحوانيتهم^(٦٠) ، وتكثر الأنوار في الطرقات والدروب والمساجد^(٦١) ،

(٥٦) القرزى : الخطط ج ٣ ص ١٦١ .

(٥٧) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٩٦ .

(٥٨) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٥٤ .

(٥٩) السخاوى : التبر المسبوك سنة ٨٤٥ هـ ، ٨٤٩ هـ .

(٦٠) ابن بطوطة ج ١ ص ٥٤ .

(٦١) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٢٠٢ .

وبذلك يتحول الليل نهرا طيلة شهر رمضان • وقد شهد برنارد دى بريدنباخ ليالى رمضان فى القاهرة ، فوصف وسائل السرور عند الناس ومنها الغناء ودق الطبول طول الليل حتى تعذر عليه النوم^(٦٢) • أما فابر الذى زار مصر سنة ١٤٨٣ م فدهش ليلية دخوله القاهرة لكثرة الأنوار والمشاعل فى الطرقات والفوانيس المختلفة الأشكال والألوان التى يحملها الكبار والصغار ، ولما استفسر عن سبب كل هذه الجلبة قيل له أن الشهر رمضان وأن المسلمين يحتفلون به على ذلك الوجه^(٦٣) كذلك لحظ الرحالة سيمون سيجولى أن الحوانيت — لا سيما محلات الطعام والمطابخ — تظل أبوابها مفتوحة طوال ليالى شهر رمضان^(٦٤) •

وقد اختلفت المدن فى طريقة التسخير ، ففى القاهرة ومصر جرت العادة أن يطوف أصحاب الأرباع وغيرهم بالطبلة على البيوت وهم يضربون عليها • أما أهل الاسكندرية فاعتادوا أن يكون التسخير بدق الأبواب على أصحاب البيوت والمناداة عليهم^(٦٥) • ويقال أن بعض العلماء اقترح على السلطان برسباى سنة ٨٣٠ هـ عدم إطفاء القناديل فى رمضان لإقبال طلوع الفجر ، إيذانا بأخر فرصة للتسخير^(٦٦) •

وكانت قراءة صحيح البخارى بالقلعة من أهم المظاهر الرسمية لإحياء شهر رمضان فى ذلك العصر • وقد جرت العادة أيام السلطان شعبان أن يبتدأ بقراءة البخارى فى أول يوم من شهر رمضان بين يدى السلطان ، ويحضره طائفة من قضاة القضاة والمفتهاء • ولم يزل الأمر على ذلك حتى تسلط المؤيد شيخ ، فجعل قراءة البخارى بالقلعة

Larrivaz : op. cit. p. 47. (٦٢)

Schefer : Le Voyage d'Outremer p. XXIII. (٦٣)

Dopp : Le Caire Vu ... Tome 24; 139. (٦٤)

(٦٥) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٢٥٥ •

(٦٦) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٥١ •

تبدأ من أول شعبان وتستمر حتى السابع والعشرين من رمضان (٦٧) .
وزاد السلطان شيخ على ذلك أن دعا لحضور ذلك المجلس جمعا
كبيرا من مشايخ العلم والطلبة ، حتى زاد عددهم سنة ٨١٩ هـ على
ستين فقيها « صرف اكل منهم ألف درهم فلوسا » (٦٨) . وكانت تدور
في هذه المجالس بحوث ، ربما اشتمت فيها المناقشات والجدل حتى يسيء
بعضهم الى بعض . فينقلب المجلس الى صياح وشتائم ، مما جعل
المقريزي يصف هذه المجالس بأنها « منكر في صورة معروف ومعضية
في زى طاعة » ، وذلك نظرا لما تثيره من حزازات بين رجال العلم
والدين (٦٩) . وقد عالج السلطان جقمق هذا الإشكال سنة ٨٤٢ هـ بأن
منع الحاضرين من البحث ، وحرم عليهم المناقشة أثناء المجلس « فانكثوا
عن ذلك والحمد لله » (٧٠) . فاذا تم ختم البخارى — وذلك عادة في
الثالث الأخير من شهر رمضان — احتفل السلطان بذلك احتفالا كبيرا
في القلعة ، فترسل الخلع الى القضاة والعلماء والمفتهاء ، وتوزع
الأموال « والصور » على الناس (٧١) .

كذلك اهتم سلاطين المماليك بالتوسع في الإحسان والصدقة طيلة
رمضان . فالسلطان برقوق اعتاد أن يذبح طوال سلطنته في كل يوم من
أيام رمضان خمسة وعشرين بقرة ، يصدق بلحومها — مع ما يطبخ
من الطعام وما يخبز من آلاف الأرغفة — على أهل الجوامع والخوانق
والربط والسجون ، بحيث يخص كل فرد رطل لحم مطبوخ وثلاثة

(٦٧) المقريزي : السلوك ج ٤ ص ٤٧٢ ، أبو المحاسن : النجوم
ج ٦ ص ٥٧٩ .

(٦٨) المقريزي : السلوك ج ٤ ص ٢٠٦ .

(٦٩) المقريزي : السلوك ج ٤ ص ٨٢٣ .

(٧٠) نفس المرجع والجزء ص ٨٩١ .

(٧١) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ٣٨٠ — ٣٨١ ، ابن اياس :

بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٣٠ ، أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٢
ص ٥٤٠ .

أرغفة^(٧٣) . وحاكى السلطان برقوق في ذلك من أتى بعده من السلاطين ، فأكثروا من ذبح الأبقار، وتفريق أحومها^(٧٣) . أما المساكين والمعدمون ، فرتب لهم سلاطين المالك في شهر رمضان مطابخ لإفطار الصائمين وتوزيع الصدقات عليهم^(٧٤) . وقد بلغ عدد الطاعمين في هذه المطابخ أيام السلطان بيبرس خمسة آلاف نفس في كل يوم من أيام شهر رمضان^(٧٥) . كذلك اعتاد سلاطين المالك أن يعقّق الواحد منهم في شهر رمضان ثلاثين نسمة ، أي بعدد أيام الشهر^(٧٦) . يضاف إلى ذلك كله أنواع التوسعة على العلماء وأصحاب الجامعات الذين تصرف لهم رواتب إضافية في شهر رمضان^(٧٧) ، وبخاصة من السكر الذي تتضاعف كمية المستهلك منه في هذا الشهر بسبب الإكثار من عمل الحلوى . وقد بلغ راتب العسكر أيام الناصر محمد في رمضان سنة ٧٤٥ هـ ثلاثة آلاف قنطار قيمتها ثلاثون ألف دينار ، منها ستون قنطارا كل يوم من أيام رمضان برسم الدور السلطانية^(٧٨) .

وحاكى أمراء المالك سلاطينهم في الإكثار من الصدقة والإحسان في شهر رمضان . من ذلك أن الأمير طشتمر البدرى عرف عنه حرصه على الإكثار من ذبح البقر والغنم في ليالى رمضان^(٧٩) . كذلك حرص

-
- (٧٢) أبو المحاسن : مورد اللطافة ص ٩٩ ، ذيل الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ج ٢ ص ١٤٧ — ١٤٨ .
- (٧٣) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .
- (٧٤) العيني : عقد الجمان سنة ٦٦٢ هـ ، بيبرس : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٨٠ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٨١ .
- (٧٥) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٣٩ .
- (٧٦) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥١٣ حاشية ٣ .
- (٧٧) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٣٣ ، العيني : السيف المهند ص ٢٠٤ .
- (٧٨) المقرئى : المواعظ ج ٣ ص ٣٧٥ .
- (٧٩) ابن قاضى شهبه : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ج ١ ص ٣٠ — ٣١ .

السلطان برقوق على فعل ذلك أيام إمارته قبل أن يصبح سلطاننا^(٨٠) .
أما عامة الناس فقد كثرت اجتماعاتهم وزياراتهم في شهر رمضان .
فاذا تخلف أحدهم عن زيارة قريبه أو صاحبه أو معلمه في شهر رمضان
أدى ذلك الى سوء تفاهم بين الطرفين^(٨١) . وعمد كثير من الناس الى
إحياء رمضان في الجوامع والمساجد بقراءة صحيح البخارى أو صحيح
مسلم أو بالذكر أو بالصلاة ، لاسيما صلاة التراويح^(٨٢) . وجرت
العادة في عصر المماليك أنه عند ختم القرآن بأحد المساجد في شهر
رمضان يحتفل بذلك احتفالا كبيرا ، فتقرأ القصائد ويجتمع المؤذنون
ليكبروا جماعة في موضع الختم ، ثم يؤتى بفرس أو بغلة ليركبها
القارئ الذى تولى قراءة الختمة ويزفوه الى بيته في موكب هائل
وأمامه القراء يقرأون والؤذنون يكبرون والفقراء يذكرون ، وربما أضاف
بعضهم الى ذلك ضرب الطبل والدف والأبواق^(٨٣) .

عيد الفطر :

وبعد ذلك يحل عيد الفطر الذى يستغرق الثلاثة أيام الأول من
شوال . ويستعد الناس أتم الاستعداد لهذا العيد ، فيسهرون ليلة
العيد حتى ساعة متأخرة من الليل في صقل الملابس وإعداد
انزخارف^(٨٤) . أما الكعك وغيره من أصناف الحلوى فيصنعها الناس في
أواخر شهر رمضان ليتبادلوا بها التهنئة في العيد^(٨٥) . ويبدو أن
العادة الموجودة اليوم عند كثيرين من تفضيل أكل السمك المجفف

(٨٠) أبو المحاسن : مورد اللطافة ص ٩٩ .

(٨١) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ١٩٨ .

(٨٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٠٩ ، ٣٣٧ ، الشعرانى :

ذيل لوائح الأتوار ص ٩٦ (١ ، ب) .

(٨٣) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٨٤) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٨٩ .

(٨٥) المقرئى : المواعظ ج ٣ ص ٥٩ .

(إنلكلاه) • فى عيد الفطر ، مستمدة من الأوضاع التى سادت فى العصور الوسطى عندما كان المصريون فى عصر سلاطين المماليك يفضلون أكل « السمك المشقوق » فى ذلك العيد^(٨٦) • وفى الصباح المبكر الأول أيام العيد يجتمع أهل الحى أمام منزل الامام الذى سيصلى بهم صلاة العيد فى المسجد ، فاذا خرج اليهم زفوه حتى المسجد وبأيديهم القناديل وهم يكبرون طوال الطريق • وبعد انتهاء الصلاة يعودون به الى منزله على الصورة نفسها التى أحضروه بها^(٨٧) •

أما مواطن الأئس التى اعتاد الناس أن يهرعوا اليها فى الأعياد هأهمها القرافة والنيل ، فيخرجون الى القرافة زرافات ومعهم نساؤهم وأولادهم ، أو يقصدون شاطيء النيل حيث يستأجرون المراكب للنزمة • وفى كلتا الحالتين تحدث مفسد كثيرة تتعارض مع مبادئ الأخلاق والمدين ، مما حدا بحكومة المماليك الى المنادة فى شوارع القاهرة ليلة العيد بمنع الناس — لا سيما النساء — من الخروج الى القرافة وركوب المراكب بالنيل طوال العيد ، ويهدد من يفعل ذلك بتوسيطه هو والمكارى والحمار فى الحالة الأولى أو باحراقه هو والنوتى والمركب فى الحالة الثانية^(٨٨) •

واحتفلت الدولة المماليكية رسميا بعيد الفطر • ففى آخر أيام رمضان يصعد ناظر، الخاص الى القلعة فى موكب كبير وبصحبته عدد عظيم من الحمالين يحملون خلع العيد لحملها الى السلطان^(٨٩) • وفى هذه الليلة — ليلة العيد — يدخل الأمراء جميعا على السلطان « للتهنئة

(٨٦) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٨٨ •

(٨٧) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٨٥ •

(٨٨) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٦٧٢ ، تاريخ ابن الفرات سنة

٧٩٣ هـ ص ٢٦٦ ، ذيل الاعلام ج ١ ص ٦٩ •

(٨٩) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٧٤ •

(م ١٤ — المجتمع المصرى)

وتقبيل يده»^(٩٠) . فإذا ما أصبح اصباح واستهل أول أيام العيد ، نزل السلطان الى الحوش السلطاني لتأدية صلاة العيد ، وذلك في موكب من أفخم المواكب السلطانية . وبعد أن يصلى السلطان صلاة العيد ويسمع الخطبة ، يعود الى الإيوان الكبير حيث يمد سماط حافل بلغت تكليفه في بعض السنوات خمسين ألف درهم . وأخيرا يخلع السلطان على الأمراء وأرباب الوظائف^(٩١) ، كما يفرج عن بعض المساجين « مناسبة العيد المبارك »^(٩٢) .

خروج الحمل :

وبعد عيد الفطر بأيام — أى حوالي منتصف شوال — يكون الاحتفال بسفر الحمل والحجاج ، فيدور الحمل في احتفال كبير كالذى وصفناه في الدورة الرجبية ، الا انه بعد وصوله الى القلعة لا يتوجه منها الى القسطنطينية وإنما يعود من القلعة الى باب النصر ، ومنه يخرج الى الريدانية للسفر الى الحجاز^(٩٣) . ويكون على رأس الحمل أمير الحج وصحبته بعض الكبراء الذين يطلق عليهم « باشوات الحمل »^(٩٤) ، ويتبعهم جمع كبير من الحجاج والجمال التي تحملهم وتحمل أهلهم^(٩٥) .

(٩٠) القرىزى : الخطط ج ٣ ص ٣٢٦ ، السلوك ج ٣ ص ٣٨٦ .

(٩١) القرىزى : السلوك ج ٢ ص ٨٨١ ، الخطط ج ٣ ص ٣٧٢ .

(٩٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٩٧ ، الاملام بتاريخ أهل الاسلام ج ٤ ص ١٧٩ .

(٩٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٥٨ .

(٩٤) ذكر أبو المحاسن عن نفسه انه حج سنة ٨٤٦ وكان « باشا » في الحمل (حوادث الدهور ج ١ ص ١٩) ، كما ذكر السخاوى سنة ٨٥١ أن باشا الميمنة في الحج كان قاضى الحنفية وباشا الميسرة كان الناصرى محمد ابن السلطان (التبر المسبوك ص ١٨٥) .

عيد الأضحى :

وفي شهر ذي الحجة - يجل عيد الأضحى ، فيصلى السلطان صلاة العيد في موكب حافل ، وبعد الصلاة يقصد الأيوان وبصحبه جمع من الأمراء لتذبح أمامه الأضاحى ، ثم يتوجه من الإيوان إلى باب الستارة حيث ينحر به أيضا ويفرق ما يذبحه ، وأخيرا يتوجه إلى الحوش السلطاني ويذبح به^(٩٦) . كذلك اعتاد سلاطين المماليك أن يفرقوا عددا كبيرا من الخلع « على من جرت عادته بالخلع في يوم النحر »^(٩٧) .

ووزع السلاطين في عيد الأضحى الأضاحى الكثيرة ، حتى بلغ ما خص كل مملوك من ممالك السلطان سنة ٨٢٤ هـ رأسين من الغنم^(٩٨) . فإذا لم يوزع السلطان الأضاحى على مماليكه واكتفى بتوزيع المال عليهم ، غضبوا وربما رجموا السلطان^(٩٩) ، واختص الأمراء بتصيب وافر مما يوزعه السلاطين من الأضاحى . ويحكى عن السلطان الناصر محمد أنه اعتاد أن يبعث في يوم النحر إلى أمراءه أغنام الضحايا والنوق . « ويترقب ما ينعم به كل أمير على رسله »^(١٠٠) . كذلك حاكى أمراء المماليك سلاطينهم في الإنعام على مماليكهم بأضاحى العيد ، حتى بلغ ما وزعه الأمير قوصون الناصرى (ت ٧٤٢ هـ) على مماليكه وحاشيته في كل عيد ألف رأس غنم وثلاثمائة رأس بقر^(١٠١) .

-
- (٩٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٨٦٦ (كاليهورنيا) .
(٩٧) القرىزى : السلوك ج ٤ ص ٨٤١ .
(٩٨) المصدر السابق ونفس الجزء ص ٥٩٠ (تحقيق المؤلف) .
(٩٩) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٨٦٦ ، القرىزى : السلوك ج ٤ ص ٤٧٧ .
(١٠٠) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ١٧١ .
(١٠١) ابن قاضى شهبه : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ج ١ ص ٣٤ .

فإذا حل عيد الأضحى والسلطان خارج القاهرة في الحرب أو الصيد أو غير ذلك ، استاء الناس وحزنوا « لفقدهم ما كانوا يألفونه من تفرقة الأضاحى لغيبية السلطان والأمراء »^(١٠٢) . والواقع إن احتفال عامة الناس بعيد الأضحى لم يقل عن احتفالهم بعيد الفطر ، فيذهبون الى النيل أو الى القرافات وتترين النساء « بغاية الزينة » . ويتحدث ابن الحاج عن مفسدة كبرى كانت تحدث في الأعياد — وبخاصة عيد الأضحى — وهي أن تخرج جماعة من الفتيات يطلق عليهن « بنات العيد » الى الطرقات ، بعد أن يتزين ويكسفن وجوههن ، ثم « يأخذن في الغناء » والضرب بالدفوف ، ويطنن بالأسواق والحوانيت والبيوت لجمع ما يوجد به الناس عليهن^(١٠٣) .

* * *

الاحتفالات القومية :

هذا ما كان شأن الاحتفالات الدينية الاسلامية ولكن هناك نوع آخر من الأعياد اشترك في الاحتفال بها المسلمون وغير المسلمين من المصريين على عصر سلاطين المماليك ، مما يغلب الطابع القومى عليها . ونستطيع أن نقسم هذه الاحتفالات القومية في عصر المماليك الى ثلاثة أقسام : القسم الأول منها مرتبط بشخص السلطان كالاحتفال بتولية سلطان جديد أو إيلال السلطان من مرض أو عودته من سفر أو حرب ، والقسم الثانى يرتبط بالنيل والاحتفال بوفاته ، والقسم الثالث يشمل الأعياد التى كانت في أصلها خاصة بأهل الذمة ولكن لم يلبث أن شاركهم فيها إخوانهم المسلمون فتحولت من أعياد دينية خاصة بالذميين الى أعياد قومية يشترك في إحيائها جميع المصريين .

(١٠٢) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ٢٢٤ ، ابن اياس : بدائع

الزهور ج ٢ ص ١١٠ .

(١٠٣) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٨٦ .

الاحتفالات السلطانية :

جرت العادة في عصر الماليك عند موت أحد السلاطين أن يحتفل بتولية السلطان الجديد قبل الشروع في دفن السلطان الراحل^(١٠٤) . أما عن صورة ذلك الاحتفال فهي أن يجتمع الخليفة والقضاة والأمراء بدار العدل بالقلعة ، ويجلس الخليفة على الدرجة الثالثة من التخت وعليه خلعة خضراء ، وعلى رأسه طرحة سوداء مرقومة بالبياض . وعندما يتم الاجتماع يأتي السلطان فيقوم له الجميع بإجلالا ، ثم يجلس السلطان على الدرجة الأولى من التخت دون الخليفة . ويقرأ الخليفة « إن الله يأمر بالعدل والإحسان .. » الى آخر الآية ، ويلقى خطبة يوصي فيها السلطان بالرفق بالرعية وإقامة الحق واطهار شعائر الدين الاسلامي ونصرته . وبعد ذلك يبائع الخليفة السلطان فيقول له « فوضت إليك جميع أمر المسلمين وقلدتك ما تقلدته من أمور الدين » . ويقرأ الآية الكريمة « إن الذين يبائعونك إنما يبائعون الله ... » ، ثم يخلع الخليفة على السلطان خلعة سوداء وعمامة مرقومة الطرف بالبياض ويقلده سيفا ، ويؤتى بالعهد المكتوب من الخليفة للسلطان فيقرأه كاتب ، وعند الانتهاء من قراءته يناوله للخليفة فيكتب عليه « فوضت إليك ذلك » ويوقع ، كما يكتب القضاة الأربعة تهنئتهم بالتولية^(١٠٥) . وبعد ذلك يمد سماط عظيم ، كما يتقدم جميع الأمراء فيقبلون الأرض ويقبلون يد السلطان ويحلفون له ، فيخلع السلطان عليهم وعلى غيرهم « ممن له عادة بلبس الخلع عند تولية الملك »^(١٠٦) . ثم تضرب البشائر في القلعة إعلانا بتولية السلطان الجديد ويأخذ

(١٠٤) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٨٢١ (كاليفورنيا) ، حوادث الدهور ج ٣ ص ٦٥٧ .

(١٠٥) التلثشندی : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٨٠ - ٢٨١ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٢ - ٦ .

(١٠٦) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٥٦ - ٥٧ ، زير شتين : تاريخ الماليك ص ٣٣ .

أرباب الحوانيت ، « في تزئين البلد » (١٠٧) ، وترسل المكاتبات بالبشارة بجلوس السلطان الجديد الى جميع الولاية في مختلف جهات الدولة (١٠٨) . وبعد ذلك يخرج السلطان الجديد الى ظاهر القاهرة حيث يلبس خلعة السلطان ، ويدخل من باب الفتوح أو باب النصر راكبا ، والوزير بين يديه على فرس حاملا عهد السلطان الذي كتبه له الخليفة بسلطنة مصر على رأسه وقد أمسكه بيديه ، وجميع الأمراء مشاة . ولا يزال هذا الموكب حتى يخرج من باب زويلة ، وعندئذ يركب بقية الأمراء والعساكر (١٠٩) . وبعد ذلك يتجه الموكب الى قلعة الجبل (١١٠) ، وفي القلعة يمد سماط هائل للأمراء (١١١) .

وإذا ألم بالسلطان مرض ثم عوفي احتفل بذلك احتفالا كبيرا (١١٢) . ففي القلعة تضرب البشائر ويتخلق الخدام بالزعفران ، وتوزع زوجات السلطان على الخدم والخاصكية وأعيان الناس اللبند الحرير الأصفر (١١٣) . ويستمر الأمر على ذلك سبعة أيام ، والأفراح مستمرة بالقلعة وسائر بيوت الأمراء وكذلك البشائر، والكوسات تضرب (١١٤) . وعندما يطلع الأمراء لتهنئة السلطان بشفائه يتخلطون جميعا بالزعفران ، فيخلع عليهم السلطان كما يقيم لهم سماطا حافلا (١١٥) . أما علامة الأهالي فيسرعون في هذه الحالة الى اقامة الزينات ، « على جارى

(١٠٧) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ج ٢ ص ٨٦ .

(١٠٨) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٨ ص ٢٤٢ .

(١٠٩) المقرئزي : المواعظ ج ٣ ص ١٧٤ .

(١١٠) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٥٧ .

(١١١) المصدر السابق ج ٣ ص ٤١ .

(١١٢) تاريخ ابن الفرات : سنة ٧٩٩ هـ .

(١١٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٣٦ .

(١١٤) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٦٤ .

(١١٥) المصدر السابق ، وكذلك زير شتين : تاريخ المسالك

العادة» (١١٦) ، وأحيانا تستمر هذه الأفراح الشعبية عشرة أيام (١١٧) ، ويتفاخر فيها الناس بالزينة «ويتفنن أهل القاهرة ومصر في أنواع الترف» (١١٨) . وقد شهد ابن بطوطة أفراح أهل القاهرة لمناسبة شفاء السلطان الناصر محمد من كسر أصاب يده ، فوصف تفنن تجار الأسواق في تزيين أسواقهم ، فعلقوا بحوانيتهم الحلل والخلى وثياب الحرير، «وبقوا على ذلك أياما» (١١٩) . كذلك جرت العادة في مثل هذه المناسبات أن توزع الصدقات من الخبز والملابس «مع جملة من المال» ، ويجتمع أصحاب الملاهي بأمر السلطان بالقلعة ، ويعمل النفط بسوق الخيل فيأتي الناس من كل مكان للفرجة ، في حين تركب طوائف العربان بخيولها وهداياها وتخرج طوائف المماليك للعب بالرمح تحت القلعة (١٢٠) .

وعند عودة سلطان المماليك من رحلة خارج البلاد - كالشام أو الحجاز - يحتفل باستقباله في عاصمة ملكه احتفالا كبيرا ، فينادى في القاهرة ومصر بتببيض الحوانيت وتزيينها (١٢١) ، وتضرب الكوسات بالقلعة والطبلخاناه بدور الأمراء عدة أيام (١٢٢) . ثم يدخل السلطان عاصمته ، فتصطف له المغاني من النساء في الدكاكين (١٢٣) ، وتفرش الشوارع بشقق الحرير ، حتى إذا ما طلع السلطان الى القلعة استقبلته خوند الكبرى بنشر خفائف الذهب والفضة على رأسه (١٢٤) .

-
- (١١٦) ابن حبيب : درة الاسلاك ج ٣ ص ٣٩ ، تاريخ ابن الفرات سنة ٧٩٤ هـ سنة ٣٠٥ م ، زير شتين : تاريخ المماليك ص ١٨١ - ١٨٢ .
- (١١٧) ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٤٥٣ .
- (١١٨) المقرئى : السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٣١٨ .
- (١١٩) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٧٠ .
- (١٢٠) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ١٦٢ .
- (١٢١) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٦٧٦ ، ٦٨١ .
- (١٢٢) زير شتين : تاريخ المماليك ص ١٨٦ .
- (١٢٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١١٠ .
- (١٢٤) نفس المصدر والجزء ص ١٩٣ .

ويكون الاستقبال أشد بهجة وأعظم روعة عند عودة السلطان منتصرا من الحرب ، ففى هذه الحالة يسبق السلطان أحد الأمراء بالبشارة ، وعندئذ تصدر الأوامر « بإحضار سائر معانى العرب من أعمال مصر كلها » (١٢٥) . كذلك تدق البشائر، ويأمر كل من له ملك أو حانوته بتببيضه ، فيسرع الناس الى تنفيذ ذلك (١٣٦) ، ويتفخرون فى الزينة ونصب القلاع — وهى أقواس النصر — أما كبار الأمراء فينتقاسمون شوارع القاهرة من باب النصر حتى القلعة ، بحيث يقوم كل منهم بإنشاء قلعة أو أكثر فى منطقته (١٣٧) . وفى الليلة المقررة لوصول السلطان يخرج الناس لاستئجار الأماكن التى يقضون بها الليل استعداد للفرجة فى اليوم التالى ، حتى تبلغ أجره كل بيت على الشارع أربعة دنانير وكل دكان دينار (١٣٨) . وفى اليوم المعين يخرج الناس لاستقبال السلطان « المسلمون بالختمات واليهود بالتوراة والنصارى بالأناجيل » (١٣٩) ، وعلى رأس هؤلاء جميعا القضاة والأعيان والأمراء . وعند وصول السلطان الى باب النصر يترجل الأمراء كلهم ، ويحمل أحد الأمراء سلاحه ، وآخر القبة والطير على رأسه ، وثالث العصا ، ورابع الدبوس . . . ويمشى كل منهم فى منزلته (١٤٠) . ثم بخرق الموكب القاهرة حتى باب زويلة ومنها الى القلعة من غير هرج ، وفى « سكون ووقار » . ويكون ذلك على الشقق الحزيرية التى فرشها الأمراء كل منهم فى منطقته من قلعته الى قلعة غيره « والسلطان كلما رأى قلعة أمسك عن المشى ووقف حتى يعاينها ويعرف

-
- (١٢٥) المقرئى : السلوك ج ١ ص ١٢٨
 - (١٢٦) تاريخ ابن الفرات سنة ٧٩٤ هـ .
 - (١٢٧) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ١٦٥ .
 - (١٢٨) ابن كثير : البداية ج ٤ ق ٢ ص ٢١٦ ، ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٢٧ .
 - (١٢٩) تاريخ ابن الفرات ج ، سنة ٧٩٤ هـ .
 - (١٣٠) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ١٦٦ .

ما اشتملت عليه حتى يجبر خاطر فاعلها بذلك» (١٣١) • أما الأسرى فيمشون بين يدي السلطان مكبلين في الأصناد وصناجقهم بأيديهم منكسة وطبولهم مشتقة (١٣٢) • وتصطف على الجانبين جموع من أهل مصر والقاهرة فضلا عن أبناء الريف، الذين يحضرون للفرجة (١٣٣) • أما الدكاكين والحوانيت فتضاء كلها بالشموع والقناديل نهارا ، وتجلس بها المعاني تدق بالدفوف (١٣٤) ، وبذلك يختلط صوت الدفوف بزغاريد النساء ودعاء الرجال (١٣٥) • وفي هذه الأثناء يجمع وإلى القاهرة سائر أنواع « الجد والهزل » ، وينصب عدة أحواض يملأها بعصير السكر والليمون ، ويقوم بعض مماليكه بتوزيعها على الناس (١٣٦) • وعندما يصل الموكب إلى القلعة يحتفل المماليك باللعب بالرمح ، ويخلع السلطان على الأمراء وسائر أرباب الوظائف (١٣٧) •

وفاء النيل وكسر الخليج :

وهناك احتفال سنوي حرص المصريون بجميع طوائفهم على إحيائه منذ فجر التاريخ حتى اليوم ، هو الاحتفال بوفاء النيل • وقد شهد دومنيكون تريفشان — مبعوث البندقية لدى السلطان الغوري سنة ١٥١٢ — الاحتفالات الضخمة التي أقامها المصريون في هذه السنة عند وفاء النيل ، وعلق على ذلك بقوله : « والواقع أن لهم الحق في كل ذلك لأننا نستطيع أن نوكد أن حياة مصر كلها تتوقف على فيضان النيل ، وإليه مرجع الثروة الطائلة التي نشاهدها في مصر» (١٣٨) •

-
- (١٣١) المصدر السابق والجزء ص ١٦٧
 - (١٣٢) العيني : مقد الجمان سنة ٧٠٢ هـ ٤
 - (١٣٣) المقریزی : السلوك ج ١ ص ١٢٨
 - (١٣٤) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٧٦
 - (١٣٥) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٣ ص ٤٩٦
 - (١٣٦) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ١٦٦
 - (١٣٧) ابن دقماق : الجواهر الثمين ص ٢١٣ ، المقریزی : السلوك ج ١ ص ٣٧٧
 - (١٣٨) Schefer : Voyage du Magnifique ... pp. 206 — 207. (١٣٨)

لذلك حافظ المصريون في عصر سلاطين المماليك على مراقبة زيادة النيل وحساب ارتفاعه كل يوم بالأصابع • فإذا تأخر أو توقف عن الزيادة عم الناس القلق ، وارتفع سعر القمح ، وتزاحم الناس على شراء الغلال « وذبح المسكين بغير سكين »^(١٣٩) • وعندئذ تفرع الدولة ، فيأمر السلطان القضاة الأربعة والمشايخ والعلماء بأن يتوجهوا الى مقياس الروضة حيث يواصلون تلاوة القرآن والحديث والدعاء بزيادة النيل^(١٤٠) • كذلك يطوف المنادون في شوارع القاهرة يأمرون الناس بالصيام ثلاثة أيام والخروج الى جامع عمرو بن العاص أو الجامع الأزهر أو الصحراء لصلاة الاستسقاء^(١٤١) ، وأحيانا ينزل السلطان ليصلى معهم وهو يبكي وينتحب^(١٤٢) ! ويشترك في هذا الدعاء سائر الناس من رجال الدين والعلم والصوفية والأمراء والعوام نساء ورجالا ، صغارا وكبارا ، حتى أهل الذمة^(١٤٣) • أما اذا حدث العكس وارتفع الفيضان الى حد الخطورة ، فعندئذ يأمر السلطان بحفظ الجسور وعدم الغفلة عنها « لئلا تقطعها المياه فتصير البلاد بائرة »^(١٤٤) •

وفي زمن الفيضان يقف صاحب المقياس — بمقياس الروضة — على مقدار زيادة النيل عصر كل يوم ، وينادي صباح اليوم التالي في

-
- (١٣٩) ابن حبيب : درة الاسلاك ج ١ ص ١٢٣ ، ابن اياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ١١٤ .
- (١٤٠) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٧٤ .
- (١٤١) تكون صلاة الاستسقاء اذا غارت الانهار وانقطعت الامطار واشتدت الحاجة الى الماء . (كتاب الفقه على المذاهب الاربعة ص ٢٠٤) .
- (١٤٢) ابو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٤١٣ ، ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٣٦ ، ج ٢ سنة ٨٢٣ هـ ، الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ج ٤ ص ٢٠٩ .
- (١٤٣) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢١٠ .
- (١٤٤) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٣٩ .

شوارع القاهرة بمقدار، الزيادة في عدد الأصابع « من غير تصريح بذرع » (١٤٥) . ولكنه يكتب في كل يوم بياناً لأعيان الدولة من أرباب السيوف والأقلام ، فيذكر زيادة النيل في ذلك اليوم من الشهر العربي وموافقته من القبطي ، ويذكر بعد ذلك ما كانت عليه زيادته في مثل ذلك اليوم من العام السابق ، والفرق بينهما في الزيادة أو النقص ، ولا يطلع على ذلك التقرير عامة الناس . فاذا وفي النيل ستة عشر ذراعاً ، صرح في المناداة كل يوم بما زاد ، ويصير ذلك مشاعاً عند جميع الناس (١٤٦) ، وعندئذ يعلق على الشباك الكبير الذى بدار المقياس بالروضة ستر . أصفر فيكون ذلك علامة الوفاء ، ويقوم متولى القسطاط بتعليق ذلك الستر . وتعتبر الليلة التى يعلق فيها هذا الستر من ليالى الفرحة العظيمة بمصر والروضة ، اذ يوعد الناس الشموع والقناديل ويستأجرون المراكب بأجور باهظة ، وتزين حراريق الأمراء ويجعل فيها الطبلخانات والنفط وأنواع الزينة ، في حين يحضر استادار السلطان الكبير ليبيت في المقياس وصحبته خازن السلطان وبعض الجمدارية . كذلك يحضر بعض المقرئين لتلاوة القرآن حول الفسقية بالمقياس . أما المغانى فيستمترون في الغناء لمن يكون حاضراً في دار المقياس (١٤٧) .

وفي اليوم التالى لوفاء النيل يحتفل بكسر الخليج . وقد جرت العادة في الدولة المماليكية أن ابن السلطان هو الذى يباشر كسر الخليج ، وأحياناً يباشر السلطان ذلك بنفسه واكن هذا نادراً (١٤٨) .

(١٤٥) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٧ & Pitoti, p. 29

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٧

(١٤٦) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٧ .

(١٤٧) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ١١٤ — ١١٥ .

(١٤٨) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ٣٩٩ ب ، الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ج ٥ ص ٢٨٢ . وقد جاء في السلوك في حوادث سنة ٧٨٥ هـ انه لم يعهد بعد الظاهر ببيرس ملك ركب حتى خلق المقياس وفتح الخليج بسوى الظاهر برقوق (السلوك ج ٣ ص ٤٩١ ، تحقيق المؤلف) .

فإذا ركب السلطان اكسر الخليج لا يكون ركوبه بمظلة ولا رقبة
فهرس ولا غاشية ولا غير ذلك من مظاهر الملك التي توجد في المواكب
الأخرى الخاصة بالأعياد أو ركوب الميدان^(١٤٩) وعند وصول السلطان
أو نائبه الى مقياس الروضة يمد سماط كبير من الشواء والحلوى
والفاكهة ، حتى اذا تناول الكبراء ما يشتهون يسمح بالعامه « باختطاف »
ما تبقى من أطعمة • ثم يذاب زعفران في إناء ، ويتناوله صاحب
المقياس ، ويسبح في فسقية المقياس حتى يأتي العمود — والإناء
الزعفران بيده — فيخلق العمود ثم جوانب الفسقية • وتكون حراقة
السلطان قد زينت بأنواع الزينة ، وكذلك حراريق الأمراء ، وقد
فتح شبك المقياس المطل على النيل من جهة الفسطاط وعلق عليه
ستر • وعندما يؤتى بحراقة السلطان الى ذلك الشباك ينزل منه
ويسبح ، وحراريق الأمراء حوله وقد شحن البحر بمراكب المتفرجين ،
بسيرون خلف الحراريق حتى يدخل الى فم الخليج • ويسير السلطان
في حراقتة حتى يأتي السد فيقطع بحضوره ثم ينصرف الى القلعة^(١٥٠) •
وقد حضر هذه العملية رحالة أجنبي هو أنسلم فقال إن كسر الخليج تم
أمامه بمعول من الذهب الخالص^(١٥١) •

وإذا ناب ابن السلطان عنه في حضور حفل قطع السد فعنئذ
ينعم السلطان على ابنه « بخلعة عظيمة على العادة »^(١٥٢) • هذا
فضلا عما ينعم به السلطان من الخلع على أربابها ، مثل والى الفسطاط
ورئيس الحراقة السلطانية ورؤساء حراريق الأمراء وغيرهم^(١٥٣) •
أما إذا كسر السد وارتفاع الفيضان دون الستة عشر ذراعا ففي هذه
الحالة لا يخلق المقياس « لأن التخليق مرتبط بالوفاء »^(١٥٤) •

-
- (١٤٩) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٧ •
(١٥٠) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٧ — ٤٨ •
(١٥١) Dopp : Le Caire Vu ...; Tome 26, p. 100
(١٥٢) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ١ ص ٣ •
(١٥٣) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ١١٥ •
(١٥٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٤٧٦ •

ويكون يوم كسر الخليج يوما مشهودا في القاهرة ومصر ،
لا سيما جزيرة الروضة حيث « يحشر الناس ويحجج فيه الى
المقياس » (١٥٥) . ففى ذلك اليوم تغلق جميع الأسواق في مصر والقاهرة ،
ويعم الناس البشر والفرح (١٥٦) ، فيهرعون الى النيل على هيئة مواكب
حيث يستأجرون السفن ويملاونها بالطرب والغناء (١٥٧) . ولم يقتصر
الفرح في ذلك اليوم على أهل القاهرة ومصر ، بل جرت العادة بكتابة
البشائر بوفاء النيل الى سائر أعمال الدولة حتى يعم الفرح جميع
الناس (١٥٨) .

أعياد النصراري :

لعل أقوى دليل على ارتباط عنصرى الشعب المصرى — من مسلمين
و ذميين — في عصر المماليك هو أن المسلمين شاركوا أهل الذمة في
الاحتفال بكثير من أعيادهم الدينية « وهم يعلمون أنها مختصة بأهل
الكتاب » (١٥٩) . وقد ضرب ابن الحاج مثلا رائعا للوحدة القومية في
مصر على عصر سلاطين المماليك ، فقال إن المسلمين لم يكتفوا بمشاركة
الأقباط في أفراسهم ، بل زادوا على ذلك أنهم يهادون أهل الكتاب
في أعيادهم ومواسمهم بما يحتاجون إليه من « الخرفان والبطيخ
والبلح وغير ذلك . فإذا حلت أعياد المسلمين رد لهم أهل الكتاب
الجميل بمثله وهاذوهم ببعض ما يفعلونه في مواسمهم ، فيقبل المسلمون
تلك الهدايا شاكرين » (١٦٠) .

(١٥٥) السيوطى : بلبل الروضة .

(١٥٦) ابن حتماق : الانتصار ج ٤ ص ١١٥ ، ابن ظهيرة : الفضائل

الباهرة ص ١ ، ب .

Dopp : L'Egypte ... pp. 20 — 21 & Le Caire (١٥٧)

Vu ... T. 24, p. 122.

(١٥٨) تاريخ ابن الفرات ، القلقشندى : صبح الأمشى ج ٨ ص ٢٢٨ .

(١٥٩) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٤٦ .

(١٦٠) نفس المصدر والجزء ص ٤٧ — ٤٨ .

ومن أعياد النصارى الشهيرة عيد النيروز ويكون في أول توت ،
أى رأس السنة القبطية^(١٦١) . وحاكى مسلمو مصر في عصر المماليك
إخوانهم الأقباط في الاحتفال بذلك العيد والتوسعة على أهلهم فيه .
فلا بد في ذلك اليوم من عمل بعض أصناف خاصة من الحلوى
« كالزلابيا والهريسة » بحيث تصنع ليلة النيروز . فإذا أشرقت شمس
ذلك اليوم أرسلوا منها لمن يختارون من الأقارب والأصحاب ، ودعوا
الأهل والأحباب الى تناول الطعام ، لا سيما البطيخ الأخضر والخوخ
والبطح وغير ذلك « مما يلزمه النساء الأزواجهن حتى صار ذلك كأنه
فرض عليهن لأنهن اكتسبن ذلك من مجاورة القبط ومخالطتهن بهم » .
وإذا امتنع أحدهم عن فعل ذلك « كان ذلك سببا لوقوع التشويش
بين الرجل وأهله »^(١٦٢) .

أما خارج المنزل فجرت العادة أن يجتمع العامة في ذلك اليوم
بالطرقات ويلعبون بالتراش بالماء والتصافع بالجلود وغيرها^(١٦٣) .
وقد أصبح ذلك من الأشياء العادية ، حتى أن الوالى لا يحكم لأحد
ممن ضربوا أو سلبت نقودهم في ذلك اليوم^(١٦٤) . وهكذا اقتترن هذا
العيد بمجاوزة الحدود الى « الفجور والمعهور »^(١٦٥) ، فالخمر يشرب
جهارا ، والنساء يلعبن في بيوتهن مختلطين مع الرجال والشبان ، فيرش
بعضهم بعضا بالماء دون أن تستحى الجارة من الجار . أو من ابن العم
أو من الصهر أو من أصدقاء زوجها . وإذا ضاقت بهم المنازل خرجوا
الى البرك والخلجان وغيرها من أماكن النزهة ، حيث يصل بهم الأمر

(١٦١) عيد النيروز في الأصل أحد الأعياد الفارسية وقصد به الفرس
يوم الاعتدال الربيعى . ولكن قبط مصر أخذوا هذه التسمية واطلقوها على
رأس السنة القبطية (خطط المقرئى ج ٢ ص ٣٠ - ٣١) .

(١٦٢) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٤٨ - ٤٩ .

(١٦٣) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٣٢ .

(١٦٤) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٤٩ .

(١٦٥) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٣٢ .

الى نزع ثيابهم فيصبح أكثرهم عرايا في حين يقنع المحتشم أو المحتشمة منهم بقميص رقيق^(١٦٦) ! •

ومن خصائص يوم النيروز في عصر سلاطين المماليك عمل « كرنفال » في شوارع القاهرة وطرقاتها ، فيأخذون انسانا منهم يكون « قوى الطباع » ويسمونه « أمير النيروز » ، ويغيرون صورته وخلقته ويجعلون على رأسه طرطورا طويلا من الخوص ويركبونه حمارا وهو شبه عريان ، ويجعلون حوله الجريد الأخضر « وشماريخ البلح » وبيده شئ يشبه الدفتر كأنه يحاسب الناس ، ثم يطوفون به أزقة المدينة وشوارعها على البيوت والأسواق ، فيقف على باب كل فرد — سواء من الأكابر، أو غير الأكابر — ويكتب عليه إيصالا بأموال وأشياء معينة يجب عليه دفعها فوراً وإلا أهانوه بصب الماء والتراب عليه ، وظلوا مرابطين أمام داره حتى يأخذوا ما فرضوه عليه • وهم في كل ذلك يحتمون بالنيروز ويقولون « ليس ثيه حرج ولا أحكام تقع ! »^(١٦٧) •

واعتاد السلطان فرج بن برقوق أن يحتفل بيوم النيروز احتفالا كبيرا ، فيقبضى اليوم مع ندمائه في معاقرة الشراب والخمر^(١٦٨) • وقد حاول بعض سلاطين المماليك أن يضعوا حدا للمفاسد التي تحدث يوم النيروز^(١٦٩) ، ولكن جهودهم في هذا الصدد ذهبت أدراج الرياح إذ كان المصطلح عليه عند المعاصرين — مسلمين وذهبيين — أن النيروز

(١٦٦) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٥١ ، خطط المقرئى ج ٢ ص ٣٢ •

(١٦٧) ابن اياس : بدائع الزهور ، حوادث سنة ٧٨٧ هـ ، ابن الحاج : ج ٢ ص ٥٢ — ٥٣ •

(١٦٨) ابو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ١٣٢ — ١٣٣ •

(١٦٩) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٣٥٨ (سنة ٧٨١ هـ) •

عيد قومي يجب أن تتعاطف فيه الأسواق عن البيع والشراء^(١٧٠) وأن تعلق المدارس أبوابها ليقضى طلبتها يومهم في اللعب^(١٧١) .

ومن الأعياد التي شارك فيها المسلمون إخوانهم الأقباط في عصر سلاطين المماليك عيد الشهيد ، ويكون في اليوم الثامن شهر بشنس ، واعتاد النصارى أن يحتفلوا بذلك اليوم بالقاء تابوت في نهر النيل ، به أحد أصابع أسلافهم من الحواريين ، ويزعمون أنهم إذا لم يفعلوا ذلك فإن النيل لن يزيد^(١٧٢) . وجرت العادة أن يكون الاحتفال بعيد اشلهيد دائما في ناحية شبرا ، فيرحل الى هناك النصارى من جميع القرى كما « يخرج عامة أهل القاهرة ومصر على اختلاف طبقاتهم » ، فينصبون الخيام على شاطئ النيل ويركبون الخيول ويلعبون عليها ، بحيث « لا يبق مغن ولا مغنية ، ولا صاحب لهو ولا بغي ، ولا محدث ولا ماجن ولا خليع إلا ويخرج لهذا العيد »^(١٧٣) . وفي هذا اليوم بغالى كثير من الناس في شرب الخمر التي قدر ما يباع منها في عيد الشهيد بمائة ألف درهم^(١٧٤) ، حتى قال المقرئى أن اعتماد فلاحى شبرا دائما في وفاء الخراج على ما يجمعونه من الخمر في ذلك اليوم^(١٧٥) .

وقد حدث سنة ٧٠٢ هـ أن عمد الأمير ركن الدين بييرس متولى القاهرة الى إبطال ذلك العيد ، فشق ذلك على النصارى وسعوا إليه وخوفوه عاقبة عدم زيادة النيل ، ولكنه لم يلتفت لقولهم^(١٧٦) . غير

-
- (١٧٠) المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ٣٢ .
 - (١٧١) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٤٩ .
 - (١٧٢) العينى : عقد الجمان سنة ٧٠٢ هـ .
 - (١٧٣) المقرئى : المواعظ ج ١ ص ١١٠ .
 - (١٧٤) العينى : عقد الجمان سنة ٧٠٢ هـ .
 - (١٧٥) المقرئى : المواعظ ج ١ ص ١١٠ .
 - (١٧٦) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٢٠٢ — ٢٠٣ ، العينى : عقد الجمان سنة ٧٠٢ هـ .

أن السلطان الناصر محمد لم يلبث أن أعاد عيد الشهيد سنة ٧٣٨ هـ (١٧٧) .
ثم لم يلبث أن أبطل ذلك العيد مرة أخرى سنة ٧٥٥ هـ عندما تعرض
الأقباط لموجة عنيفة من الاضطهاد في تلك السنة (١٧٨) .

أما عن أعياد النصارى الأخرى فكانت أقل بهجة ووضوحا في عصر
سلاطين المماليك . ومع ذلك فمن الثابت أن المسلمين في ذلك العصر
ظلوا يشاركون أهل الذمة في بعض مظاهر تلك الأعياد وما يتعلق بها
من معتقدات ، نفى خميس العهد — وهو من مواسم أهل الكتاب
الرئيسية — اعتادت المسلمات أن يخرجن لشراء البخور والخواتم ،
حتى يصبح عددهن في الأسواق أكثر من عدد الرجال . ولا بد من
البخور في ذلك اليوم حتى يصرف عنهن « العين والكسل والوعكة من
الجسد » (١٧٩) . وفي سبت النور لابد من شراء الريحان وورق الشجر ،
فبيبتونه في إناء به ماء ويغتسلون به ، ثم يأخذون ما اجتمع من غسلهم
ويلقونه في الطريق حتى يذهب عنهم الأمراض والأسقام ، هذا عدا
خروجهم الى شاطئ النيل في ذلك اليوم (١٨٠) . وفي يوم الغطاس
تشبه المسلمون بالأقباط ، فأتخذوا من ذلك اليوم موسما يزيدون فيه
النفقة ، ويدخلون السرور على أولادهم ، بل حرص بعض المسلمين
على أن يغتسل في الماء تلك الليلة مثلما يفعل الأقباط (١٨١) . وفي عيد
الزيتون يهرع جمع غفير من المسلمين مع إخوانهم الأقباط الى بئر
البلسم بالمطرية حيث يغتسلون (١٨٢) .

(١٧٧) المقرئى : المواعظ ج ١ ص ١١١ — ١١٢ .

(١٧٨) نفس المصدر والصفحة .

(١٧٩) ابن الحاج : المحل ج ٢ ص ٥٤ — ٥٥ .

(١٨٠) نفس المصدر ص ٥٦ — ٥٨ .

(١٨١) نفس المصدر والجزء ص ٥٩ .

(١٨٢) نفس المصدر والجزء ص ٥٩ — ٦٠ . واهتم معظم من
زار مصر من الرحالة الغربيين في ذلك العصر بوصف هذا البئر لأهميته

ولم يقف الأمر عند مشاركة المسلمين النصارى في أعيادهم ، بل تعداه الى الأخذ بعاداتهم . ويحكى ابن حجر أنه كان هناك سنة ٨٤٠ هـ دير يحج إليه النصارى كل سنة ، فحاكاهم المسلمون في ذلك حتى صار يجتمع عند ذلك الدير في الموسم المحدد لزيارته ما لا يحصى من المسلمين والنصارى^(١٨٣) . وهكذا : « كثر التخليط على بعض الناس في هذا الزمان لجاورتهم ومخالطتهم لقبط النصارى ، فأنست نفوسهم بعوائد من خالطوه ، ووضعوا تلك العوائد موضع السنن »^(١٨٤) .

الدينية عند المسيحيين . كذلك وصفه ابن الوردي وقال ان السر فيه هو أن المسيح عليه السلام اغتسل بمائه (خريدة العجائب ص ٦٤ — ٦٦) . ولا يزال هذا البثر مقصد المسيحيين حتى اليوم .

(١٨٣) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ٣٣٤ — ١ .

(١٨٤) ابن الحاج : المدخل ج ٣ ص ٦٥ .

الفصل الثامن

الألقاب والخلع والملابس

من الواضح أن المجتمع في مصر المماليكية كان مجتمعا طبقيا قام على أساس طبقات وعناصر متميزة ، شجع على التفرقة والفصل بينها النظم المماليكية نفسها . ومن المظاهر الأساسية للفصل بين الفئات المتباينة التي تكون منها المجتمع المصرى في ذلك العصر الحرص على التفرقة بينها في الزى ونوع الدابة التي يركبها الفرد وحجم عمامته وغير ذلك^(١) . هذا فضلا عن الألقاب التي اعتبرت أساسا هاما لمعرفة مكانة الفرد في المجتمع والدلالة على حيثيته^(٢) .

الألقاب :

جرت العادة أن يكون اكل شخص كنية ولقب علاوة على اسمه وهو العلم . أما النظام الذى اتبع في ترتيب الألقاب والأسماء فهو أن يقدم اللقب على الكنية ، والكنية على العلم ، وبعد ذلك النسبة الى البلد ثم الى الأصل ثم الى المذهب في افروع ثم الى المذهب في الاعتقاد ، على أن يتقدم ذلك كله النسبة الى العلم أو الصناعة أو الخلافة أو السلطنة أو الوزارة أو القضاة أو الامرة أو الحرفة . فيقال مثلا « السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس الصالحى التركى الحنفى البندقدارى »^(٣) ، ويقال أيضا « قاضى القضاة

(١) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ٢٧٧ ب ، ذيل الاعلام بتاريخ

اهل الاسلام ج ٢ ص ١٧٢ .

(٢) Barbier de Meynard : Surnoms ... p. 173.

(٣) Emile Amar : Prolegomenes a L'Etude ... pp.

تقى الدين أبو عبد الله محمد بن الحسين بن رزين العامري الحموي
الشافعي^(٤) وهكذا .

ومن الملاحظ أن سلاطين المماليك بمصر أكثروا من استعمال
الألقاب ، ونوعوا الألقاب الرسمية وجعلوها على درجات عديدة من
الصعب حصرها ، كما جعلوا هذه الألقاب جزءا أساسيا من قواعد
البروتوكول الرسمي ، فحرصوا في مكاتباتهم الرسمية على أن يخاطب
كل فرد بلقبه الذي يتفق والفئة أو الطبقة التي ينتمي إليها ودرجته
في تلك الطبقة . وإذا كان العصر المماليكي قد أسرف في استعمال الألقاب
والكنى بوجه عام ، فإن الملاحظ أن هذه الألقاب لم تظل على حال
واحد طوال ذلك العصر ، وإنما تعرضت لكثير من التغيير والتبديل
المستمر بين حين وآخر وذلك « مخالفة لمن تقدمهم » على قول
القلقشندي^(٥) . وقد عدد القلقشندي الألقاب المستخدمة في عصر
سلاطين المماليك ، ومنها ألقاب أرباب السيوف من الأمراء وهي على
تسع مراتب ، وألقاب أرباب الوظائف الديوانية وهي على ست مراتب
ومثلهم أرباب الوظائف الدينية ، ثم ألقاب مشايخ الصوفية وهي على
خمس مراتب ، وألقاب من يكتب له بولاية من رؤساء العامة والتجار
وهي على أربع مراتب ، وأخيرا تأتي ألقاب زعماء أهل الذمة وهي على
ثلاث مراتب^(٦) .

ويبدو واضحا أن ظاهرة الاعتزاز بالألقاب والتمسك بها سرت
عدواها من المماليك الى بقية طبقات الشعب ، فتمسك كل فرد بلقبه
وكنيته التي تلازمه ويعرف بها ، مثل « أبي المحاسن » و« تقى الدين » .
ولم يختلف أهل الذمة عن المسلمين في ذلك ، إذ كانت لهم أيضا
ألقابهم مثل « الشيخ الشمسي » و« الشيخ الصفي » . فإذا اعتنق

(٤) المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٧٠٤ .

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٨٩ .

(٦) المصدر السابق ج ١١ ص ٧٦ — ٨٤ .

أحدهم الإسلام أسقطت الألف واللام وأضيف إليه لفظ « الدين » ،
فيقال « شمس الدين » و « صفي الدين » وهكذا^(٧) .

واعتبرت المناداة على شخص باسمه مجزدا عن اللقب إهانة
تأبأها النفس . يدل على ذلك أنه أخذ العهد على الصوفية بمصر في
المقرن العاشر الهجري أن لا يتكذبوا إذا ناداهم أحد بأسمائهم مجردة
من الألقاب^(٨) ، مما يوضح لنا مدى تمسك الناس بألقابهم في عصر
المماليك وغضبهم إذا نودوا بغيرها .

الخلع :

ولم تكن الألقاب وحدها هي الأداة التي استخدمت في عصر
المماليك للتمييز بين طوائف الناس ، وإنما ظهر التمايز واضحا في
الملابس والخلع التي اعتاد السلاطين أن ينعموا بها على أتباعهم ورعاياهم
في الأعياد . على أن الإنعام بالخلع لم يقتصر على الأعياد الدينية
والقومية ، وإنما عرفت له أوقات ومناسبات أخرى كثيرة . فعند الخروج
إلى الميدان للعب الكرة ينعم السلطان على الجوكاندارية ونحوهم .
وفي مواسم الصيف ينعم على مباشري الطشت خاناه والفراش خاناه
والشراب خاناه . فإذا حدث أثناء الصيد أن أحضر أحد رفقاء السلطان
غزالا أو نعامة ، خلع عليه السلطان بما يناسب قدره^(٩) . وفي الأفراح
السلطانية — من زواج أو ختان أو غيرها — ينعم السلطان بالآلاف الخلع
على الأمراء وأرباب المناصب في مصر والشام^(١٠) . كذلك إذا أمر
السلطان أحد المماليك ألبسه خلعة وشربوشا ، وهو شيء يشبه التاج

(٧) المصدر السابق ج ٥ ص ٤٩٠ .

(٨) زكي مبارك : التصوف ج ١ ص ٣٤١ .

(٩) المقرئ : المواعظ ج ٣ ص ٣٧٠ .

(١٠) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٧١ ، أبو المحاسن :

النجوم ج ٧ ص ١٦٥ .

على شكل مثلث يجعل على الرأس بغير عمامة^(١١) . وعند تولية شخص مهام منصب جديد في الدولة ، فإنه يلبس تشريفا يناسب ولايته التي وليها « حسب ما تقتضيه الرتبة علوا أو هبوطا »^(١٢) . فإذا قدم الوالى أو النائب من مقر ولايته المتشرف بمقابلة السلطان وأراد السلطان إظهار رضائه عنه وإبقائه في منصبه ، فإنه يخلع عليه خلععة الاستمرار^(١٣) . وإذا طلب أحد الولاة أو النواب إعفاه من منصبه وهو متمتع برضى السلطان ، فإنه ينعم عليه بخلعة العزل التي تكون أحيانا أعظم من خلععة الولاية^(١٤) . أما الرسل والمبعوثون الذين يفدون الى مصر من البلاد الأخرى فيكرمهم السلطان بالإنعام عليهم بالخلع الثمينة^(١٥) . وكذلك التاجر الذى يصل الى السلطان ويبيع له ولو رأسا واحدا من الرقيق أو من الخيل تكون له خلععة خلاف الثمن^(١٦) . فإذا شفى أحد الأمراء أو رجال الدولة أنعم عليه السلطان بخلعة^(١٧) . ولم يحرم أهل الذمة من هذه الخلع ، فكان السلطان إذا عين بطرقا جديدا للنصارى أنعم عليه بخلعة^(١٨) ، وكذلك إذا أراد السلطان إظهار عفوه عن أهل الذمة فإنه يسمح لهم بفتح كنائسهم ويخلع على بطرقتهم^(١٩) .

وقد بالغ سلاطين المماليك في صنع هذه الخلع وأسرفوا في تكاليفها ، كما جعلوها درجات أو طبقات أعلاها ما هو مختص بالأمراء المقدمين

-
- (١١) ابن حبيب : درة الاسلاك ج ١ ص ١٩٣ ، المقرئى : المواعظ ج ٣ ص ١٦٠ ، السلوك ج ٢ ص ١١٨ .
- (١٢) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٥٢ .
- (١٣) السخاوى : القبر المسبوك ص ٧٦ .
- (١٤) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ١١ .
- (١٥) المصدر السابق ج ٧ ص ١٦٦ .
- (١٦) المقرئى : المواعظ ج ٣ ص ٣٧١ .
- (١٧) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٢ ص ٢٠٧ .
- (١٨) ابن ايبس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٦٣ .
- (١٩) المقرئى : السلوك ج ٢ ق ١ ص ١٥٧ .

والنواب^(٢٠) . نخلع كبار أمراء المثين صنعت من الأطلس المزركش بالذهب والفراء الفاخر والكلوات المذهبة والشاشات الرفيعة المرقومة باللقاب السلطان . أما المنطقة أو الحزام فتكون محلاة بالزمرد واللؤلؤ ، وأحيانا يكون مع الخلعة سيف مجلى بالذهب وفرس من الاسطبل السلطاني . ثم تحمل قيمة الخلعة وكلفتها حسب رتبة الأمير المنعم بها عليه ، ولكنها مع ذلك تظل دائما مضرب الأمثال في الذخامة والعظمة^(٢١) . أما خلعة الوزير أو الكاتب فكانت جبة ثمينة مطرزة بالحريير. يصحبها فراء فاخر^(٢٢) . وأما خلعة القضاة والعلماء فأجلها ما يكون أبيض تحته أخضر ، ويصحب هذه الخلعة عادة طرحة^(٢٣) . هذا بينما تتألف خلع الخطباء من رداء أسود وشاش أسود وطرحة سوداء وعلمان أسودان مكتوبان بأبيض أو بذهب^(٢٤) .

كذلك اعتاد سلاطين الممالك الإنعام على أمرائهم — فضلا عن الخلع — بالخيول مرتين في السنة ، والحوائص عند الخروج للعب الكرة ، هذا عدا الإنعام بالعقار والأبنية وأنواع المأكول والمشروب^(٢٥) .

ملابس الرجال :

أما ملابس الأفراد من الرجال في عصر المماليك ، فقد تباينت واختلفت حسب مكانة الشخص ومركزه الاجتماعي حتى أصبح من السهل على أي زائر يمر بالقاهرة أن يحكم على كل شخص يراه ، ويحدد في سهولة طبقة الاجتماعية ، وحرفته أو عمله ، وديانته إن

-
- (٢٠) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٢ .
(٢١) المقریزی : المواعظ ج ٣ ص ٣٦٩ .
(٢٢) المقریزی : السلوك سنة ٧٨٣ هـ ، المواعظ ج ٣ ص ٣٧٠ .
(٢٣) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٢٦ .
(٢٤) المقریزی : المواعظ ج ٣ ص ٣٧٠ .
(٢٥) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٢ — ٥٦ ، المقریزی : المواعظ ج ٣ ص ٣٢٥ .

كان مسلما أو ذميا ، وذلك بمجرد النظر الى هيئته العامة وملبسه .
ومن هنا اتخذ الكتاب المعاصرون الزى أساسا للتعبير عن مهنة الشخص
وعمله في المجتمع ، فيقال ، فلان تفقه « ثم ترك ذلك وتزيا بزى الفقراء ،
وبعد مدة عاد وتزيا بزى الفقهاء ... » (٣٦) . ويقال إن قاصدا من عند
تمرنك الى السلطان برقوق ، أخذ ينظر الى الناس في شوارع القاهرة
فلقى أقواما وخواجا كثيرا مختلفى الهيئات واللبوس ، فسأل عنهم
فسموا له كل طائفة فتعجب من ذلك وقال « نحن في بلادنا ملبوس
السلطان والأمير والخدم والفلاحين هيئة واحدة ! » (٣٧) .

أما ملابس الممالك فاختلفت وتعدلت على مر الأجيال ، وكثيرا
ما أدخل السلاطين التغييرات والتحسينات المختلفة على ملابس الجند
والأمراء (٣٨) . هذا الى تعدد ملابس الممالك باختلاف المواقف
والمناسبات ، فهناك ثياب خاصة بالخدمة السلطانية وأخرى بالسفر
وثالثة بالسرعات والصيد وهكذا (٣٩) . ومع ذلك فقد حافظ الممالك على
لباس الرأس الذي اتخذه من أيام بنى أيوب ، وهو كلوتات صفر
مضربة بكلبندات (٤٠) بغير عمائم أو شاشات (٤١) ، في حين يرسلون

(٢٦) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٦٠ — ٦١ ترجمة نجم الدين
الحسين بن على .

(٢٧) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٨٨ .

(٢٨) المقرئى : المواعظ ج ٣ ص ١٦٠ ، أبو المحاسن : النجوم
ج ٧ ص ٢٢٢ .

(٢٩) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٨٨ .

(٣٠) الكلوتات جمع كلوتة بتشديد اللام وهى طاقية صغيرة من
الصوف مضربة بالقطن ، والكلبندات جمع كلبندة وهى لباس الرقبة
تربط تحت الذقن لحفظ الكلوتة التى فوق الشعر من الحركة (أبو المحاسن :
النجوم ج ٧ ص ٣٣٠) .

(٣١) الشاشة هى القماش الرقيق الذى يلف حول العمامة .

شعورهم مصفورة خلفهم في أكياس حريرية ملونة حمر أو صفرا^(٣٢) .
وقد ظل الأمر على ذلك حتى عهد السلطان خليل حين تغير لون الكلوات
من الصفرة الى الحمرة . أما العمائم التي من فوقها فامتازت بالصفر
وظلت كذلك حتى عهد السلطان شعبان « فحسنت هيئتها »^(٣٣) . على
أن لبس المماليك العمائم لم يستمر طويلا ، إذ ذكر المقرئى أن الأمراء
والمماليك والأجناد أكثروا في أيامه من لبس الطواقى بغير عمائم ،
ونوعوا هذه الطواقى ما بين أخضر وأحمر وأزرق كما يفعل الصبيان
والبنات^(٣٤) .

أما ثياب المماليك فمعظمها الأقبية التتريّة^(٣٥) والتكلاوات
فوقها^(٣٦) ، ثم القباء الإسلامى فوق ذلك ، يشد عليه السيف من جهة
اليسار. والصولق من جهة اليمين^(٣٧) . أما الأمراء والمقدمون وأعيان
الجند فلبسوا أقبية قصيرة الأكمام — أقصر من القباء التحتانى —
بلا تفاوت كبير في قصر الكم وطوله ، مع اتساع الأكمام القصيرة
وضيق الأكمام الطويلة . وفوق القباء تشد المنطقة أو الحياصة^(٣٨) .

(٣٢) التلقشندى : صبح الأمشى ج ٤ ص ٣٩ ، السيوطى : حسن
المحاضرة ج ٢ ص ٦٨ ، المقرئى : المواعظ ج ٣ ص ١٦٠ ، ابن دقماق :
الجواهر ص ١٣١ .

(٣٣) التلقشندى : صبح الأمشى ج ٤ ص ٣٩ .

(٣٤) المقرئى : المواعظ ج ٣ ص ١٦٨ .

(٣٥) القباء ثوب طويل يغلّق من مقدمته بزراير ومفتوح حول الرقبة
مفتحة مستديرة ، وامتاز في عصر المماليك بالأكمام الضيقة . وبينهم من
عبارة « القباء الإسلامى » المذكورة بعد ذلك نوع من الأقبية على الطراز
العربى خلاف الأقبية التتريّة السابق وصفها .

(٣٦) التكلاوات نوع من الملابس كان يلبسه الأمراء وغير معروف
وصفه بالضبط — انظر Dozy : Dict. Vet. Ar. p. 99 .

(٣٧) الصولق مخلاة من جلد يضعها الشخص في حزامه من الجهة
اليمنى وجمعها صوالق .

(٣٨) أى الحزام ويوضع حول الوسط .

ومعظم مناطقهم من القضة المطلية بالذهب ، وربما جعلت من الذهب ولا ترصع بالجواهر إلا في الخلع السلطانية الأكبر الأمراء^(٣٩) . وفي الصيف يلبس الممالك الملابس البيضاء ، أما في الشتاء فيلبسون فوقانيات^(٤٠) من الصوف الملون النفيس المبطنه بفراء السنجاب الفضي ، في حين يلبس أكابر الأمراء أنواع السمور الثمين^(٤١) . واعتاد الأمراء والممالك أن يتبعوا سلطانهم في موعد تغيير الملابس الصيفية والشتوية^(٤٢) .

وانتقل الممالك الخفاف البيض صيفا والصفير شتاء مع المهاميز المسقطة بالفضة في الخاف^(٤٣) . واعتاد السلطان والأمراء والجند أن يلبسوا في أقدامهم فوق الخف الأول خفا ثانيا يسمى سقمان^(٤٤) .

هذا ، ويجدر بالذكر أن الأمير من الممالك كان لا يلبس الشاش والكلوته وغيرها من ملابس التشريفة إلا وهو في إمرته متمتعا برضاء السلطان ، فإذا أصبح بطالا وزال عنه إقطاعه ، أو صار مغضوبا عليه من السلطان ، فإنه في هذه الحالة لا يتشح بالحرير وإنما يلبس كاملية ويشد وسطه ويتوشح بتصفية ويتعمم بتخفيفة ، وكلها من ملابس الأمراء المغضوب عليهم^(٤٥) .

أما ملابس المعممين وأرباب الوظائف الدينية من القضاة والعلماء ، فاختلقت باختلاف مراتبهم . فالقضاة والعلماء يلبسون العمائم الكبار ،

(٣٩) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٠ .

(٤٠) رداء يلبس فوق الملابس يشبه العباءة .

(٤١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٠ .

(٤٢) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ١ ص ٣٦ ، ج ٢ ص ٤٤٦ ، السخاوي : التبر المسبوك ص ٢٦٧ ، ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ٣٣٥ .

(٤٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤١ .

Dozy : Dict. Vet. Ar. p. 209 (٤٤)

(٤٥) المقرئزي : السلوك ج ٢ ص ٦٨ ، ١٠٥ .

ومنهم من يجعل طرف عمامته على هيئة ذؤابة طويلة يرسلها بين كتفيه • وقد لحظ ابن بطوطة على بعض قضاة مصر في القرن الثامن أنهم بالغوا في تكبير عمائمهم^(٤٦) ، مما جعلهم مثار سخرية العامة فصنعوا تمثيلية في خيال الظل أطلقوا عليها « بابة القاضي » ومثلوا فيها القاضي بعمامته الكبيرة وأكمامه وثيابه الطويلة^(٤٧) ولبس القاضي في ذلك العصر دلقا^(٤٨) متنسح الأكمام طويلها ، مفتوحة فوق كتفيه بلا تفريج ، سابلا على قدميه^(٤٩) • أما قاضي القضاة فامتاز بلبس طرحة تستر عمامته وتتسدل على ظهره بين الكتفين مع ميل إلى الكتف اليسرى^(٥٠) • وأما الخطيب فاختص بلبس دلق مدور أسود وشاش أسود وطرحة سوداء رمزا للشعار العباسي^(٥١) • وقد تمسك العلماء والفقهاء على عصر سلاطين المماليك بزيتهم هذا وحرصوا عليه وأصبحوا « يوقرون مجالس الحديث في اللباس •• حتى جعلت اليوم هذه الثياب للفقهاء كأنها فرض عليه وأنه لا بد للطلاب منها »^(٥٢) •

أما الأشراف — وهم سلالة أمير المؤمنين على بن طالب من فاطمة الزهراء^(٥٣) — فرسم لهم السلطان شعبان سنة ٧٧٣ هـ أن يجعلوا في عمامتهم علامة خضراء بارزة للعامة والخاصة ، وذلك « تعظيما لقدرهم وليقابلوا بالقبول والإقبال ويمتازوا عن غيرهم في هذا المنوال »^(٥٤) •

(٤٦) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٣٣ •

(٤٧) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ١٤٦ •

(٤٨) الدلق رداء كالعباءة كان يرتديه الفقهاء والمتصوفة •
(Dozy : Dict, Vel, Ar. pp. 133 — 134).

(٤٩) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤١ •

(٥٠) السيوطي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٢٦ •

(٥١) المصدر السابق والصفحة نفسها •

(٥٢) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ١٣١ •

(٥٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١١ ص ١٦٢ •

(٥٤) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٧٧٣ هـ ، أبو المحاسن :

النجوم ج ٥ ص ٢١٦ (كاليفورنيا) •

واعتاد الوزراء وأمثالهم من أرباب الوظائف الديوانية أن يلبسوا الفراجي المضاهية لفراجي العلماء ، وربما لبسوا عليها الجبب المفرجة^(٥٥) ، هذا فضلا عما امتاز به الوزراء من لبس للقبج المزركش والعنبرينة^(٥٦) . أما التجار وأولوالنعمة من غير أرباب الوظائف فصغروا عمائمهم بدرجة ملحوظة^(٥٧) . وجرت العادة في عصر سلاطين المماليك ألا يلبس الوزراء والقضاة ، وأكابر الفقهاء إلا البياض دائما ، فتكون الفوقانية التي تلبس فوق الثياب بيضاء في الصيف من القطن وفي الشتاء من الصوف^(٥٨) . وظل الأمر على ذلك حتى سنة ٧٩٩ هـ عندما استأذن كاتب السر بدر الدين الكلستانى السلطان برقوق في لبس الصوف الملون في الشتاء لجميع المعممين ، فأذن لهم السلطان وصاروا يلبسون الجبب الملونة شتاء^(٥٩) .

أما الفقراء والصوفية « فملبسهم الاقتصاد »^(٦٠) . وقد أيد كثير من الكتاب الرأى القائل بأن تسمية الصوفية مشتقة من الصوف ، لأنهم مختصون بلبسه لما فيه من التقشف والبعد عن التعمم^(٦١) . وامتاز الصوفية في القرن العاشر الهجرى بلبس المرقععات الملونة من رقع حمر وخضر وضفر وسود ، وأردية من ليف وخص وحلفاء أو

(٥٥) التلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٣ .

(٥٦) القبع قطاع للرأس يشبه الطاقية ، أما العنبرينة فلم يرد لها شرح في المصادر المعاصرة .

(Dozy : Dict. Vet. Ar. p. 344)

(٥٧) أبو المحاسن : حوادث الدهور سنة ٨٧٣ هـ .

(٥٨) القرىزى : السلوك ج ٤ ص ٢٤ .

(٥٩) ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٤١٤ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢١٨ ، ذيل الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ج ٢ ص ١٢١ ، تاريخ ابن الفرات ص ٤٦١ .

(٦٠) النويرى : الامام بالاعلام ج ٢ ص ٥١٧ .

(٦١) ابن خلدون : المقدمة ص ٥٢٢ ، Massignon : Tasawwuf

(٦٢) زكى ببارك : التصوف ج ١ ص ٣٤٤ .

جلود منزوعة الشعر^(٦٣) ، ووضعوا على رؤوسهم القحوف والطرايطير^(٦٤) . وعبر عن الرداء الذي يلبسه الصوفية بالخرقة حتى أصبحت شعارا لهم ، فيقال لبس الخرقه من فلان أى أخذ العهد عليه وأصبح من أتباعه ومريديه^(٦٥) . واتخذ بعض الصوفية الخرقه والعمامة من لون معين تمييزا لهم عن غيرهم^(٦٦) . وبالغ بعض الصوفية فى التخشن فى ثيابهم ، فكان السيد البدوى — الذى عاش أوائل الدولة المملوكية — إذا لبس ثوبا أو عمامة لا يخلعها لغسل أو لغيره حتى تذوب فيبدلونها له بغيرها^(٦٧) . وعلى عكس ذلك الشاذلية الذين خرجوا على مبدأ الصوفية العام فى لبس الصوف والتخشن فى الثياب ليتجملوا فى لباسهم وهيتهم ، وحجتهم فى ذلك أن السلف الصالح تقشفوا حتى يخالفوا أهل الغفلة الذين انعمسوا فى زخارف الدنيا ، ولكن لا طال الأمد انعكست الآية فاتخذ الغافلون الأطمار البالية الرثة حلية ، فأصبح لزاما على الشاذلية أن يخالفوهم ويتأنقوا فى مظهرهم^(٦٨) . وامتاز مشايخ الصوفية عن أتباعهم بمحاكاة العلماء فى لبس الدلق ، مع مراعاة أن يكون « غير سابل ولا طويل الكم » ، ويرخون « ذؤابة لطيفة » على الأذن اليسرى لا تكاد تلتحق الكتف^(٦٩) .

أما ملابس العامة والسوقة فليس عنها بالمصادر سوى إشارات قصيرة متناثرة ، منها قول أبى المحاسن عن أحد الأشخاص « أنه يلبس على رأسه قطعة شاش مثل سوقة العامة »^(٧٠) . وفى المصادر المتأخرة

(٦٣) الشربينى : هز القحوف ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

(٦٤) Dozy : Dict. Vet. Ar, p. 153.

(٦٥) ابراهيم نورالدين : السيد البدوى ص ٥٦ .

(٦٦) طبقات الشعرائى ج ١ ص ٢٤٧ .

(٦٧) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٩ .

(٦٨) القلقسندى : صبح الأعمى ج ٤ ص ٤٣ .

(٦٩) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٢ ص ٢١٧ .

زمنيا مثل كلوت بك ولين أن رجل الشارع في مصر يلبس سروالا واسعا مربوطا حول أسفل الساقين ، وعلى صدره صديري فوقه قفطان أو جلباب ، وعلى رأسه طاقية أو قلفسوة تلف حول العمامة^(٧٠) . ولكنه ليس من المأمون تطبيق هذا الوصف على ملابس العامة في عصر سلاطين المماليك دون حساب للتغيرات والمؤثرات التي استجذت عقب الفتح العثماني لمصر سنة ١٥١٧ .

أما أهل الذمة من النصارى واليهود ، ففرضت عليهم في فترات متقطعة من عصر سلاطين المماليك قيود شديدة في اللبس ، التزموها ولم يتخطوها . من ذلك أنهم حرم عليهم لبس الفراجي والجيب بالأكمام الواسعة « كهيئة قضاة الإسلام »^(٧١) . كذلك اشترط في ثيابهم أن تكون قصيرة وغير طويلة^(٧٢) ، وفرض عليهم تصغير العمام بحيث لا يزيد طول عمامة أحدهم عن عشرة أو سبعة أذرع^(٧٣) . مع تلوين العمام باللون الأزرق للنصارى والأصفر لليهود^(٧٤) . كذلك طلب من النصارى أن يشدوا أوساطهم بالزنانير ، وهي نوع من الأحزمة لا يلبسه إلا المسيحيون^(٧٥) . ولكن يبدو أن معظم هذه القيود والالتزامات لم تكن ملحوظة بدرجة واضحة ، بدليل ما ذكره الرحالة الغربيون الذين زاروا مصر في عصر المماليك من أن الفارق الوحيد بين

(٧٠) كلوت بك : لحة عملة ج ١ ص ٥٥٨ — ٥٦٩ ،

Lane : Manners; pp. 28 — 32.

(٧١) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ١٩٨ ، العيني : عقد الجمان سنة ٨٢٠ هـ .

(٧٢) النويري : الايام بالاعلام ج ١ ص ٩٤ — ١ .

(٧٣) السخاوي : التبر المسبوك ص ٣٠٦ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٨٦ .

(٧٤) السبوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢١١ ، العيني : عقد الجمان سنة ٨٠٠ هـ .

Dozy : Dict. Vet. Ar. p. 196.

(٧٥)

المسلمين وأهل الذمة في الهيئة والملبس هو لون العمامة فقط^(٧٦) . ومهما يكن الأمر فقد حرص أهل الذمة عند خروجهم إلى الطريق العام على مراعاة القيود المفروضة عليهم في الملبس خوفا من بطش الحكام وأذى العامة ، فإذا صار الواحد منهم داخل بيته لبس ما يشتهي من الملابس والثياب الفاخرة^(٧٧) .

أما عن ملابس الفلاحين والأعراب فلا يوجد عنها هي الأخرى في المصادر المعاصرة سوى القليل النادر . ويرجح أن الفلاحين ظلوا كما فراهم اليوم في ثيابهم الزرقاء واللبد الصوف على رعوسهم^(٧٨) . أما العربان فارتدوا « كاملية مفرجة »^(٧٩) مع مراعاة اتساع الأكمام وكبرها^(٨٠) . وامتاز مشايخ العربان بلبس الحرير الأطلس المزركش « والشاشات المرقومة »^(٨١) . وهناك عبارة ذكرها المقرئ عن ثياب العربان في عصره « وهي كاملية مفرجة وعمامة بلاأمين »^(٨٢) .

ملابس النساء :

أما عن ملابس النساء في عصر سلاطين المماليك ، فقد اجتمع الرحالة الأوروبيون الذين زاروا مصر في ذلك العصر على تشابه ملابس جميع نساء المدن من حيث شكلها العام^(٨٣) . ويمكننا تصوير الملابس التي اعتادت أن ترتديها المرأة في ذلك العصر بقميص واسع طويل

(٧٦) Dopp : Le Caire Vu; Tome 23; p. 129.

(٧٧) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٣ .

(٧٨) كلوت بك : لحة عامة ج ١ ص ٥٧١ .

(٧٩) المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٦٥٠ (مخطوط) .

(٨٠) أبو الحسن : حوادث الدهور ج ٢ ص ٢١٧ .

(٨١) المقرئ : السلوك ج ٢ ق ٣ ص ٦٠٩ (مطبوع) .

(٨٢) المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٦٠٩ .

(٨٣) Dopp : Le Caire Vu; Tome 24; p. 134 &

Schefer : Voyage du Magnifique ... p. 211.

تصل أطرافه الى الأرض ، له أكامام كبار واسعة^(٨٤) ، وفوق ذلك القميص سبلة أو إزار يغطي جميع بدنها ويعطو كل ملابسها^(٨٥) .
ووصف الرحالة هذه السبلة بأنها بيضاء اللون بالنسبة لجميع المسلمات^(٨٦) ، وهذا يخالف ما تطور إليه الوضع بعد ذلك في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي عندما أصبح من المراعى في حبرة أو تزبيرة المرأة المتروجة أن تكون سوداء اللون ، ولا تلبس السبلة البيضاء سوى الآنسات^(٨٧) .

وحرصت النساء عند خروجهن الى الطريق على إخفاء وجوههن بحجاب أو برقع أسود اللون ، تضعه المرأة بطريقة لا تمكن أحدا من رؤية وجهها في حين تمكنها من رؤية كل ما يحيط بها^(٨٨) . كذلك حرصت النساء على غطاء الرأس ، واستعملن لذلك الغرض الشاش ، وهى عصبة تلبسها المرأة بحيث يكون أولها عند جبينها وآخرها عند ظهرها^(٨٩) . ويكون شكلها العام مثل ستم الجمل ، فيبلغ طولها نحو ذراع وارتفاعها ربع ذراع ، وأحيانا يبالغن في زخرفتها بالذهب واللؤلؤ^(٩٠) . وتردد أيضا في المصادر المعاصرة اسم المقانع التى تضعها النساء فوق رؤوسهن ، وهى مناديل قد تستعمل كذلك فى تغطية الوجه^(٩١) . ومما يسترعى الإلتفات أن النساء فى عصر المماليك عمدن

(٨٤) العيني : عقد الجمان سنة ٧٩٣ هـ ، تاريخ ابن الفرات سنة ٧٩٣ هـ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٥٤٠ .
(٨٥) الأزار هو الملاعة الكبيرة التى تلتف بها المرأة .
(٨٦) Schefer : Voyage du Magnifique; p. 211.
(٨٧) كلوت بك : لحة عامة ج ١ ص ٦١٢ .
(٨٨) Beïton : Les Observations; p. 106 & Schefer : op. cit, p. 211.

(٨٩) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٤٥٤ .

(٩٠) Dozy : Dict, Vet. Ar, p. 239.

(٩١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٤٣٣ .

أحيانا الى تقليد الرجال في زى الرأس فلبس الطواقى وتعممن بالعمائم حتى اضطر السلاطين الى المناداة « بأن امرأة لا تتعمم بعمامة ولا تتتريا بزى الرجال ، ومن فعلت ذلك بعد ثلاثة أيام سلبت ما عليها من الكسوة » (٩٢) . وحاول المقريزى أن يلتبس للنساء بعض العذر فى ذلك ، فقال إن الضرورة هى التى فرضت عليهن محاكاة الرجال فى لبس الطواقى السابقة بسبب ما نزل بالناس من فقر وفاقة ، فتعذر على نساء عصره محاكاة الأوائل فى لبس الشاشات الفاخرة . ولكن هذا التبرير لا يتفق مع ما ذكره المقريزى نفسه من أن هؤلاء النسوة اللاتى لبسن الطواقى اعتدن أن يخرفنها بالذهب والحريز ويبالغن فى ذلك (٩٣) . هذا كله عدا « الأخفاف المثمنة » التى اعتادت النساء أن يلبسنها فى أقدامهن (٩٤) .

ووصف الرحالة الأجانب ملابس النساء فى مصر على عصر سلاطين المماليك بأنها « من الأقمشة الرقيقة الفاخرة » (٩٥) . والواقع أن نساء ذلك العصر كثيرا ما بالغن فى ثيابهن سواء من ناحية الهيئة أو القيمة . وقد بلغ الأمر بهن أحيانا أن تفصل الواحدة قميصها من اثنين وتسعين ذراعا من القماش البغدقى الذى عرضه ثلاثة أذرع ونصف ، وبذلك تصبح مساحة قميص المرأة أكثر من ثلاثمائة وعشرين ذراعا مربعا (٩٦) . أما تكاليف مثل ذلك القميص فتجاوزت الألف درهم ، ومثله الإزار الخارجى ، فى حين وصل ثمن خف المرأة الى

(٩٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٠٣ ، تاريخ ابن السرات ج ١١ ص ٣٧ سنة ٦٦٢ هـ .

(٩٣) المقريزى : المواعظ ج ٣ ص ١٦٩ .

(٩٤) المصدر السابق ج ٤ ص ١٢٧ .

Dop : Le Caire Vu ... Tome 24, p. 134. (٩٥)

(٩٦) العينى : عقد الجمان سنة ٧٩٣ هـ ، المقريزى : السلوك

ج ٣ ص ٧٥٠ (تحقيق الباحث) .

(م ١٦ — المجتمع المصرى)

ما بين مائة وخمسمائة درهم^(٩٧) . ويبدو أن هذا الإسراف من جانب النساء دفع أهل الدولة الى التدخل في تحديد ملابسهن كما حدث سنة ٧٥١ وسنة ٧٩٣ وسنة ٨٥٠ وسنة ٨٧٦ هـ . وفي هذه الأحوال يطوف المنادون في الطرقات والشوارع محذرين النساء من لبس القميص الذى يزيد طوله عن اثنى عشر أو أربعة عشر ذراعا وأن لا تكون الأكمام مفرطة فى الاتساع^(٩٨) . كذلك صدرت الأوامر المشددة بمنع النساء من لبس الثياب الثمينة والبرد الحرير « والعصابات المقنزعة »^(٩٩) . وأنشأت رسل المحتسب تطوف بالشوارع ، فإذا وجدوا امرأة خالفت التعليمات السابقة ضربوها وجرسوها^(١٠٠) . كذلك نصبت أخشاب على سور القاهرة وأبوابها ، وعلقت عليها تماثيل على صورة نساء ، وعليهن القمصان الطوال ، وذلك لتذكير النساء وتخويفهن^(١٠١) .

على أنه من الممكن التماس بعض العذر لعادة النساء فى مثل التصرفات السابقة . فالمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك سار وفق النظام الذى نعرفه اليوم ، وهو أن كل طبقة فى المجتمع مولعة دائما أبدا بمحاكاة من تعلوها من الطبقات ، وبعبارة أخرى فإن المستحدثات (الموضات) تنتقل دائما من أعلى الى أسفل . وقد شهد المقرئى أكثر من مرة بأن ما فعلته عامة نساء عصره فى اللبس

(٩٧) المقرئى : المواعظ ج ٤ ص ١٢٧ .

(٩٨) تاريخ ابن الفرات سنة ٧٩٣ هـ ، العينى : عقد الجمان سنة ٧٩٣ هـ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٥٤ ، ذيل الاملام بتاريخ أهل الاسلام ج ١ ص ٦٩ ، المقرئى : السلوك ج ٣ ق ٢ ص ٧٥ (تحقيق الباحث) .

(٩٩) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٤ ق ٣ ص ٣٥٢ ، ابن قاضى شعبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ج ٣ ص ١٢٢ .

(١٠٠) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٣٢ .

(١٠١) المقرئى : السلوك ج ٣ ق ٢ ص ٧٥٠ — تحقيق الباحث .

إنما كان من باب التشبيه بما فعلته نساء السلاطين والأمراء . ففى حوادث سنة ٧٩٣ هـ يعيب المقرئزى على عوام النساء أنهن تشبهن فى اللبس بنساء الملوك والأعيان (١٠٣) . وفى حوادث سنة ٧٥٠ هـ يصف المقرئزى كيف أن نساء السلاطين وجواريهن أحدثن ثيابا طوالا تسحب أنيالها على الأرض ولها أكمام واسعة ، سعة الواحد منها ثلاثة أذرع ، وعرف القميص منها بالهظة . ثم يعقب المقرئزى على ذلك بقوله « وتتشبه نساء القاهرة بهن فى ذلك حتى لم تبق امرأة إلا وقميصها كذلك » (١٠٣) .

ونلاحظ أيضا فى ملابس النساء أنها لم تظل فى شكلها على حال واحد ، بل غلب عليها كثرة التغيير والتبديل وظهور المستحدثات (الموضات) ، كعهدنا بملابسهن اليوم . وقد أخذ بعض المعاصرين على النساء أن « لهن محدثات من المنكر أحدثها كثرة الإرفاء والإتراف ، وأهمل إنكارها حتى سرت فى الأوساط والأطراف ، فقد أحدثن الآن من الملابس ما لا يخطر للشيطان فى حساب !! » (١٠٤) . ولم تبق ملابس النساء فى ذلك العصر على حال واحد من الطول أو القصر ، والاتساع أو الضيق ، وإنما تعرضت للتغيير مستمر فى فترات متقاربة . فإذا أخذ ابن الحاج على نساء مصر فى القرن الثامن الهجرى « تلك البدعة التى أحدثتها فى ثيابهن من جعلها ضيقة وقصيرة » ، كما دعا معاصريه الى منع النساء من تلك الأكمام القصيرة التى أحدثتها (١٠٥) ، فان المقرئزى فى القرن التاسع الهجرى عاب على نساء عصره إفراطهن فى طول الثياب واتساعها ، والإفراط فى اتساع الأكمام وطولها ، حتى أن الواحدة إذا أرخت كها فإنه يغطى رجلها!! (١٠٦) . وفيما عدا التغييرات التى

(١٠٢) المقرئزى : السلوك ج ٢ حوادث سنة ٧٩٣ هـ .

(١٠٣) المصدر السابق حوادث سنة ٨٥٠ هـ (ج ٢ ص ٨١٠) .

(١٠٤) ابن الأخوة : معالم القرية ص ١٥٧ .

(١٠٥) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٤١ — ٢٤٣ .

(١٠٦) المقرئزى : السلوك ج ٢ ص ٨٨٤ .

تعرضت لها أشكال ثياب نساء مصر في عصر سلاطين المماليك ، دأبت النساء في ذلك العصر على ابتكار الجديد واستحداث الغريب . من ذلك قول أبي المحاسن « واستجد النساء في زمانه (الناصر محمد) الطرحة ، كل طرحة بعشرة آلاف دينار وما دون ذلك إلى خمسة آلاف دينار ! والفرجيات بمثل ذلك . واستجد النساء في زمانه الخلاخيل الذهب والأطواق المرصعة بالجواهر الثمينة ، والقباقيب الذهب المرصعة ، والأزر الحرير ، وغير ذلك » (١٠٧) .

وكانت هناك فوارق واضحة بين المرأة المسلمة وأختها الذمية في عصر سلاطين المماليك . فإذا ارتدت المرأة المسلمة إزارا أبيض — كما رأينا — ، فإن القبطية ألزمت بأن يكون إزارها أزرق اللون ، كما ألزمت اليهودية باللون الأصفر ، وإذا تركت المسلمة الحرية في انتقاء الأقمشة الرقيقة الفاخرة لتصنع منها إزارها ، فإن الذمية فرض عليها أن تصنع إزارها من الكتان . هذا علاوة على أن الخف الذي تلبسه الذمية في قدميها اشترط فيه أن تكون فردته من لونين مختلفين (١٠٨) . على أنه من الواضح أن هذه القيود في الزي لم تترس على الذميات إلا في أوقات الأزمات فقط . ولا يوجد في المصادر المعاصرة ما يثبت إلزامهن بالقيود السابقة في اللبس في الأوقات العادية ، بل على العكس هناك ما يشير إلى تمتعهن بلبس أفخر الملابس والأزياء دون تفرقة بينهن وبين المسلمات . فابن الأخوة يصف نساء أهل الذمة في أيامه بأنهن « إذا خرجن من دورهن ومثين في الطرقات فلا يكدن يعرفن ، وكذلك في الحمامات . وربما جلست النصرانية في أعلى مكان من الحمام والمسلمات يجلسن دونها . ويخرجن إلى الأسواق ويجلسن عند التجار ،

(١٠٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حوادث سنة ٧١٠ هـ .

(١٠٨) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٣٤٣ — ٣٨٤ ،

المقريزي : السلوك ج ٤ ص ٣١٢ ، النويري : الألبان ج ١ ص ١٩٤ .

فيكرمونهن بما يشاهدون من حسن زيهن فلا يدرون أنهم أهل
ذمة ١٠٠ « (١٠٩) .

المظهر العام للأفراد :

وبعد ، فإنه يبدو انا مما سبق أن الناس اعتنوا في عصر المماليك
بأناقة المظهر فأكثروا من استعمال الذهب في زينتهم ، لا سيما لبس
الخواتم في أصابع الأيدي (١١٠) ، وصقلوا ملابسهم بالكي حتى حرص
بعض الأثرياء على الاحتفاظ في بيوتهم بعمال مخصصين لكي
الملابس (١١١) . كذلك اهتم الناس بالدابة التي يمتطيها الفرد منهم ،
فاختار المماليك الخيل الجميلة المنظر وزينوها بالكساوى الثمينة ، في
حين ركب عامة الناس الحمير العالية التي إذا ركبت بسرج اختلطت
مع البغال (١١٢) ، وأجادوا تطعيمها بصورة استرعت انتباه الرحالة
الأجانب (١١٣) .

واعتنى الناس كذلك في ذلك العصر بلحاهم وشواربهم . وعرف
عن المماليك في أول عصرهم أنهم اعتادوا إرخاء ذوائب شعورهم في أكياس
من الحرير ، واستمروا على ذلك حتى حان الوقت الذي خلق السلطان
الناصر محمد رأسه سنة ٧١٥ هـ . « فلم يبق أحد من الأمراء أو المماليك
الناصرية حتى خلق رأسه . ومن يومئذ بطل إرخاء العسكر ذوائب
الشعر واستمر ذلك الى اليوم » (١١٤) . ويبدو واضحا أن المصريين

(١٠٩) ابن الاخوة : معالم القرية ص ٤٣ .

(١١٠) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٩٤٨ .

(١١١) السخاوى : الضوء اللامع ج ٢ ص ١٢٦ ترجمة احمد بن
محمد بن عبد اللطيف .

(١١٢) عبد اللطيف البغدادى : أخبار مصر ص ٧٠ .

(١١٣) Tafur : Travis, p. 101 & Dopp : Le Cairo Vu
Tome 24; p. 114.

(١١٤) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ١٤٨ .

على اختلاف فئاتهم لم يحاكو الممالك لا في إرخاء ذوائب الشعر في أول الأمر ، ولا في حلاقة الرأس بعد ذلك . ويدل على ذلك ما ذكره السيوطي من أن معاصريه من المصريين اتبعوا نذلام قص شعر الرأس اقتداءً بالصحابة ، فلا يطلقونه إلا لرض أو لعذر^(١١٥) . كذلك شبه القلقشندي ذوائب الشعر التي اعتاد الممالك إرخاءها في أول الأمر « بعرب الحجاز وغيرهم » ولم يشر أبداً الى فئة من فئات سكان مصر^(١١٦) .

أما اللحية والشارب فاعتبرت الشعر الواضح المميز للرجولة . فإذا أراد السلطان تحقير شخص والحط من شأنه وكرامته فإنه يأمر « بحلق ذقنه وتشهيره »^(١١٧) ولذا نظر المجتمع المالكي الى الشاب الأمرد نظرة مفعمة بالاحتقار والإزدراء^(١١٨) . فإذا رزق شخص بولد أمرد منعه من الخروج الى السوق إلا ببرقع^(١١٩) ، وإذا تزوج رجل بامرأة لها أخ أمرد كثرت الشناعة عليه^(١٢٠) ، وإذا تفقد صاحب وقف صوفية الزاوية التي أنشأها ووجد أحدهم أمرداً أمتنع عن تقريره في الزاوية وطرده^(١٢١) .

-
- (١١٥) السيوطي : منتقى الينبوع — ورقة ٦ .
(١١٦) القلقشندي : صبح الاعشى ج ١ ص ٤١٧ ، ج ٤ ص ٥ .
(١١٧) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٥٦ ، القريري : الملتقى ج ٣ ص ١ (ب) .
(١١٨) سيرة الظاهر بيبرس ج ٧ ص ٢٨ .
(١١٩) زكي مبارك : التصوف ج ١ ص ٢٤٥ .
(١٢٠) ابن حجر : رفع الاصر عن قضاة مصر ج ١ ص ٢٤٥ .
(١٢١) السخاوي : الضوء اللامع ج ١٠ ص ٩٦ ترجمة محمد بن يوسف بن علي .

الفصل التاسع

الأمراض الاجتماعية

لا يستطيع الباحث أن ينكر أن المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك امتلا بكثير من الأمراض الاجتماعية الخبيثة التي انتشرت بين جميع الطبقات حكما ومحكومين ، من أهل الدنيا والدين . حقيقة إن ذلك العصر يمتاز بمسحة براقية من الصلاح والتقوى والحرص على إقامة المنشآت الدينية الفخمة والرغبة في المبالغة في إحياء شعائر الدين ، ولكن هذه المسحة الخارجية لا تلبس أن تتضح حقيقتها لمن يتعمق في البحث ، فتبدو طلاء خادعا يخفى وراءه انحلالا خلقيا بعيد الغور وأمراضا متوطنة خبيثة تثير الاشمئزاز والنفور . ولا يمكن أن يكتمل تصوير المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك بغير إشارة الى هذه الأمراض ومدى انتشارها وخطورة أثرها .

على أنه من العسف القول بأن مصر انفردت دون غيرها من البلاد الإسلامية بالانحلال الاجتماعي في تلك الحقبة من التاريخ . فابن حجر يذكر عن بلاد « ابن عثمان » في أوائل القرن التاسع الهجري أن الزنا واللواط وشرب الخمر والحشيش كان فاشيا بها^(١) . وعندما عاب أحد مشايخ مصر على شيخ أندلسي في القرن السابع الهجري أن أهل الأندلس يشربون الخمر ويحبون الشباب ، ردا عليه الشيخ الأندلسي قائلا « أما الشباب فما أشك أن أهل مصر أفسق منا ! » فتبسم الشيخ المصري وسكت^(٢) . ويروي ابن دانيال الموصلی أنه عند

(١) ابن حجر : انباء الغمر نج ١ ص ٦٠٢ .

(٢) الأندلسي : الطالع السعيد ص ٣٢٨ .

حضوره إلى مصر أواخر القرن السابع الهجرى ، وجد « مواطن الأنس غير آنسة » من خمر وحشيش وغيرها ، فسأه ذلك وأثار دهشته مما بدل على أنها « تأخرت » عن البلاد الإسلامية المجاورة في مضمار الفساد^(٣) . كذلك من العسف أن ينسب مولد الفساد الاجتماعى الى أيام سلاطين المماليك وحدهم . فالقاضى الفاضل يذكر فى متجددات سنة ٥٨٧ هـ أنه رأى بمصر « من البغى ومن المعاصى ومن الجهرا بالفسق والزنا واللواط وشهادة الزور . . . وشرب الخمر ، ما لم يسمع أو يعهد مثله »^(٤) وكان ذلك فى أواخر عهد صلاح الدين .

على أن هذا كله لا يخفف المسئولية عن كاهل أمراء المماليك وسلاطينهم ، بسبب ما أسهم به كثير منهم فى حياة الفسق والمجون . فالسلطان برقوق — الذى وصفه المؤرخون بحب الخير والعلم واحترام الفقهاء — لم يتخرج من ارتكاب الفواحش وتقريب « المماليك الحسان لعمل الفاحشة فيهم »^(٥) . وهكذا تثبت الدراسة الدقيقة لتاريخ المماليك أنفسهم — من سلاطين وأمراء وأجناد — أنهم كانوا مصابين بمرض ازدواج الشخصية ، فحرصت الغالبية العظمى منهم على إظهار أكبر قدر ممكن من التقوى والورع والتدين فى حياتهم العامة ، فى حين أنهم لم يتخرجوا — فى حياتهم الخاصة — من ارتكاب أشد أنواع المنكر والموبقات . وربما كان للثروة التى تدفقت على مصر فى عصر سلاطين المماليك أثر فى ذلك الفساد ، على قول ابن خلدون^(٦) . فإذا وجد الشعب حكامه على هذه الحال ، فإن عامة الناس لا يلبثون أن يحاكوا الحكام فى حياة الفسق والرذيلة ، لأن « الشخص يكون مع زمانه . . . ويرقص للأقرد فى دولته » على قول مؤلف هز القحوف^(٧) .

(٣) ابن دانيال الموصلى : طيف الخيال ص ٧ .

(٤) المقرئزى : الواعظ ج ٣ ص ٣٧ — ٣٨ .

(٥) المقرئزى : السلوك ج ٣ ص ٥٢٢ .

(٦) مقدمة ابن خلدون ص ٤١٨ .

(٧) الشربينى : هز القحوف فى تصيدة أبى شادوف ص ٤ .

والأمراض الاجتماعية التي فشت في مصر على عصر سلاطين المماليك نوعان ، أولهما الفساد الخلقى مثل الزنا والشذوذ الجنسي وتعاطى الحشيش والرشوة ، وثانيهما المعتقدات الباطلة مثل الاعتقاد في قدرة المشايخ والأولياء ، والتطير والتشاؤم ، والحسد والتعاويذ ، وأيام السعد والنحس ، والاعتقاد في الجن والسحر والتنجيم والكيمياء ..

الزنا :

أما الزنا فانتشر في الديار المصرية في عصر سلاطين المماليك ، حتى اعترفت الدولة بالبغياء ففرضت عليهن ضرائب مقررة^(٨) ، وجمعت من هذه الضرائب « جملة مستكثرة »^(٩) ، كما جعلت الدولة للبغياء ضامنة تذهب إليها محترفة البغاء لتسجيل اسمها عندها^(١٠) . وهكذا انتشر البغاء في مصر المماليكية ، حتى وقفت البغايا بالأسواق تحت أعين المارة^(١١) . ولم يقتصر ذلك على القاهرة والمدن الكبرى بل عم بلاد الصعيد والوجه البحرى حيث خصص للبغياء حارات مريية معينة^(١٢) . وقد حاول السلطان بيبرس أن يحد من البغاء في البلاد ، فأبطل المكوس المقررة على البغايا ، ومنع البغاء في القاهرة وسائر البلاد ، كما حبس البغايا حتى يتزوجن ، بحيث لا يزداد في مهورهن عن أربعمائة درهم يعجل منها مئتان رغبة في تيسير زواجهن^(١٣) .

-
- (٨) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .
(٩) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٤٧ .
(١٠) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٣٥ .
(١١) المقريزى : السلوك ج ٤ ص ٣١٢ .
(١٢) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٢٧٠ ، ابن قاضى شهية : الاملام ج ٥ ص ٢٣٠ .
(١٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٠٩ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٧٨ ، ج ٤ ص ٤٧١ ، ج ٢ ص ١٥٠ ، تاريخ ابن الفرات ج ١٣ ص ٤٣ .

كذلك كان من جملة الضرائب التي ألغها الناصر محمد عقب الروك الناصري ضريبة حقوق القينات وهي ما يجمع من « الفواحش والمنكرات » ، والضريبة المقررة على كل جارية أو عبد حين نزولهم بالخانات لعمل الفاحشة^(١٤) .

الشذوذ الجنسى :

وابتلى المجتمع كذلك في عصر سلاطين المماليك بتفشي الشذوذ الجنسى . وقد ذكر أبو المحاسن أن هذا الداء انتشر في الشرق منذ دخول الخراسانية الى العراق سنة ١٣٢ هـ أى منذ أوائل الدولة العباسية^(١٥) . وعبر المقرئى تعبيرا صريحا عن انتشار هذا المرض بين المماليك بمصر ، فقال بأنه « فشى في أهل الدولة محبة الذكران » حتى عمدت النساء الى التشبه بالذكور في ملابسهم « فتشبه البغايا لبوارهن بالغلان » ليستملن قلوب الرجال^(١٦) . كذلك وصف المؤرخون السلطان ططر والسلطان برقوق بمحبة الذكران^(١٧) . وبلغ من استفحال هذا المرض أن السلطان حسن عرف بحبه للنساء فقيل فيه أنه « لم يكن له ميل للشباب كعادة الملوك من قبله »^(١٨) . ويروى

(١٤) المقرئى : المواعظ ج ١ ص ١٤٤ .

(١٥) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ١٢٢ . وقد حكى الجاحظ (ت ٨٦٨ م) سبب فشو هذه الفاحشة في الخراسانيين ، وهو خروج الاجناد في البعوث مع الغلمان ، وذلك حين سن أبو مسلم الا يخرج النساء مع الجند ، خلافا لبنى أمية الذين كانوا يسمحون بخروج النساء مع العسكر فلما طال مكث الغلام مع صاحبه في الليل والنهار وعند اللباس والتستر — وهم جنود فحول تقع ابصارهم على خد كخذ المرأة وردد كرددتها وسباق كساقها — تولدت هذه الفاحشة .. (انظر آدم ميتز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ١٦٠) .

(١٦) المقرئى : المواعظ ج ٣ ص ١٦٩ .

(١٧) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٤٢٢ ، ج ٦ ص ٥٢٠ .

(١٨) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ١٥٨ .

ابن حجر أن أحد أبناء السلطان الناصر محمد شَغِفَ بـغلام « جميل الصورة » وهام به غراما « وتهتك فيه » ، فأمر السلطان بحبس الغلام ، فشق ذلك على ابن السلطان وهدد بالانتحار وامتنع عن الأكل والشرب حتى أفرج عنه^(١٩) . كذلك يحكى المقرئى كيف أضرِبَ الناصر أحمد ابن الناصر محمد بن قلاوون عن الطعام سنة ٧٤٥ هـ « حتى يأتوه بشاب كان يهواه يقال له عثمان ، فأتوه به فأكل عند ذلك ! »^(٢٠) . وتفيض المصادر المعاصرة بأخبار المخاصمات والمشاحنات بين أمراء المماليك بسبب تعشق أحدهم لـغلام مملوك لآخر^(٢١) . بل إن كتبنا خلق من السلطنة سنة ٦٩٦ هـ بسبب غلام^(٢٢) .

ثم إن هذا المرض انتشر بين رجال القلم علاوة على رجال السيف ، فاتهم ابن حجر بعض الكتاب والفقراء (الصوفية) بل القضاة بحب الغلمان ومعاشرة الأحداث^(٢٣) . ويقال إنه وجد بالشرقية فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى طائفة من الناس أطلق عليهم « المطاوعة » ، أباحوا النظر الى الأمرد الجميل ، فيجلس الواحد منهم « وقد جعل صدر الأمرد على صدره »^(٢٤) .

(١٩) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٢٩٤ ترجمة أحمد بن محمد ابن قلاوون .

(٢٠) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٦٦١ — ٦٦٢ سنة ٧٤٥ هـ .

(٢١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٥٠ ، أبو المحاسن :

النجوم ج ٩ ص ١١٤ .

(٢٢) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ٣٤ .

(٢٣) ابن حجر : رفع الاصر ص ١٥٩ ب ٤ انباء الغمر ج ٢ ص

١٠٩ ، ٣٠٠ ، الدرر الكامنة ج ١ ص ٢١٠ ترجمة أحمد بن على بن ميادة ،

ابن قاضى شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ج ٢ ص ٩٦ .

(٢٤) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٠٣ — ١٠٤ .

المفسدات :

وكان للحشيش شأن كبير في مصر على عصر سلاطين المماليك . وقد قال المقرئ عن الحشيش في أيامه : « فشت هذه الشجرة الخبيثة في وقتنا هذا فثسوا كبيرا ، وولع بها أهل الخلاعة والسخف ولوعا كثيرا ، وتظاهروا بها من غير احتشام » (٢٥) . وفرض على الحشيش في أوائل عصر المماليك ضريبة تمد الدولة : « بجملة ذافية » حتى ألغيت سنة ٦٦٥ هـ (٢٦) . ولم يقتصر تقشى الحشيش على الطبقات الدنيا من الشعب ، بل تخطاها التي غيرها من الطبقات (٢٧) ، حتى شغف بها كثير من العلماء والقضاة ، بل أفتى بعض القضاة بإباحة أكلها (٢٨) . لذلك نظم كثير من أدباء عصر المماليك أشعارا الغرض منها إيضاح مزايا الحشيش وتفضيله على الخمر (٢٩) . كذلك شغف الصوفية والفقراء بالحشيش شغفا كبيرا ، حتى نسب إليهم فأطلق عليه المعاصرون « حشيشة الفقراء » (٣٠) . وقال بعض المفسدين من المتصوفة أن الحشيشة « لقيمة الذكر والفكر » (٣١) . بل إن أحد صوفية خانقاه

(٢٥) المقرئ : المواعظ ج ٢ ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٢٦) ابن دتماق : الجوهر ص ١١٨ ، ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٠٤ . وقد ذكر المقرئ أن الظاهر بيبرس « أبطل ضمان الحشيشة وأمر بتأديب من أكلها » في حوادث سنة ٦٦٤ هـ .

(٢٧) المقرئ : المواعظ ج ٣ ص ٢٠٩ .

(٢٨) السخاوى : الضوء اللامع ج ١٠ ص ٤ ترجمة محمد بن محمد ابن الشحنة .

(٢٩) ومن ذلك ما قاله محمد بن دانيال الموصلى (الكتبى ، عيون التواريخ ج ٥ ص ٢٣١) :

قل للذى ترك الحشيشة جاهلا وله بكاسات الدمام ولوع
ان المسدامة لو أردت تطوعا لهي المحرم والحشيش ربيع

(٣٠) المقرئ : السلوك ج ٤ ص ٣٣٩ ، المواعظ ج ٢ ص ١٢٦ (بولات) .

(٣١) الذهبى : تاريخ الاسلام ج ٣٢ ص ٧٥ .

« سعيد السعداء » نظم شعرا في تنضيل الحشيش على الخمر^(٣٣) .
وهناك أمثلة أخرى عديدة تدل على انتشار الحشيش بين الصوفية في
عصر سلاطين المماليك^(٣٤) ، مما دفع بعض الكتاب الى الربط بين فشو
الحشيش وانتشار التصوف ، فقالوا إن الظاهرتين سارتا في مصر
جنباً الى جنب .

واشتهرت أرض الطبالة بالقاهرة بزراعة الحشيش في ذلك
العصر ، كما اشتهر به باب اللوق^(٣٤) . هذا ويلاحظ أن الحشيش
لم يكن المخدر الوحيد الذي عرفه المصريون في عصر سلاطين المماليك ،
فهناك من قضاة ذلك العصر من اتهموا بتعاطي الأفيون^(٣٥) .

الخمور :

ولم تقل الخمور انتشاراً عن الحشيش بين مختلف طبقات الناس
في مصر المماليكية ، فعصرت الخمور في أنحاء البلاد وبيعت طول
السنة على رعوس الأسياد ، حتى أن ما عصر منها في خزانة البنود
في سنة واحدة يبلغ اثنين وثلاثين ألف جرة^(٣٦) . وذكر كثير من
الأوروبيين الذين زاروا مصر في عصر سلاطين المماليك أن الخمور
متوفرة في البلاد ، وأنهم لم يلقوا أية صعوبة في الحصول على نبيذ

(٣٢) ذكر العيني (عقد الجمان سنة ٧١٩ هـ) أن احد هؤلاء
الصوفية قال :

وخضراء لا الجمرء تفعل فعلها لها وثبات في الحشا وثبات
تؤجج نارا في الحشا وهي جنة وتبدي مريز العيش وهي نبات

• (٣٣) الجويرى : المختار في كشف الاسرار ص ٢٩ .

• (٣٤) المقرزى : المواعظ ج ٣ ص ٢٠٤ - ٢٠٩ .

• (٣٥) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ٣٠٢ ب .

• (٣٦) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ج ١ ص ٥١ ،

المقرزى : السلوك ج ٢ ص ٦٨٦ - ٦٨٧ .

فاخر في أى وقت ، فضلا عن أن كثيرا من أهل البلاد يتظاهرون بشريه^(٣٧) .

وعرفت مصر في ذلك العصر أنواعا عديدة من الخمور ، منها نبيذ القمز ويعمل من لبن الخيل^(٣٨) ، والمزر ويعمل من القمح^(٣٩) ، والنبيذ التمرىغاوى وطريقة صنعه أن يمزج عشرة أرطال من الزبيب الى أربعين رطلا من الماء ثم يوضع المزيج في جرار تدفن في زبل الخيل أياما حتى يتخمر^(٤٠) ، ومنها الأقسما وتعمل أيضا من الزبيب ، والبوزا وتعمل من الدقيق^(٤١) وواضح من أسماء بعض هذه الأنبيذة أنها ارتبطت بالممالك ، مثل التمرىغاوى نسبة الى الأمير تمرىغا ، والبشستكى نسبة الى الأمير بشستك . والواقع أنهم شغفوا بشرب الخمر وأسرفوا في تقديمها في أفراحهم وولائمهم^(٤٢) . من ذلك ما قيل عن السلطان فرج أنه عند عودته من الصيد كان يشق شوارع القاهرة وهو لا يكاد يثبت على فرسه من شدة السكر^(٤٣) . كذلك قيل عن أبى بكر بن محمد بن قلاوون (المنصور سيف الدين) أنه عكف في قصره على الشراب ومعه ندماءؤه من الأمراء ، حتى لا يكاد الواحد

(٣٧) Tafur : Travels, p. 70 & Schefer : Le Voyage, p. 47.

(٣٨) المقرئى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٠٧ حاشية ٢ .

(٣٩) المقرئى : المواعظ ج ١ ص ١٠٥ .

(٤٠) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٧٤١ ، ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٣٨١ .

(٤١) العينى : عقد الجمان سنة ٨٠٠ هـ ، ابو المحاسن : حوادث الدهور ج ٧ ص ٣٧٩ .

(٤٢) الذهبى : تاريخ الاسلام ج ٢١ ص ٦ — ٧ ، ابو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٦٠٥ ، ابن دقماق : الجوهر ص ١٤٩ .

(٤٣) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ٢٧ ، ابو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٢٥٠ .

منهم يفتيق ساعة واحدة^(٤٤) ! •

وحاكي أمراء المماليك سلاطينهم في الشغف بتعاطي الخمر ،
وتجاهر بعضهم بشربها أمام الناس^(٤٥) ، بل اعتادوا أن يتهادوا بها
في أفراحهم^(٤٦) . وقد بلغ ما استهلكه بعض الأمراء من الخمر
خمسین رطلا في اليوم الواحد^(٤٧) . فإذا حج أمير يظن الناس أنه
سينتهي عن شرب الخمر ، ولكنه لا يتوب^(٤٨) . وإذا احتاج أحد
السلطين أو الأمراء الى كمية كبيرة من الخمر لحفل أو ظرف طارئ •
وزعوها على النصارى واليهود المعروفين بصنعها ، وفرضوا على كل
طائفة عددا معيناً من الجرار وإذا تأخروا — كما حدث سنة ٨١٦ هـ —
« جبيت منهم بعنف وعسف وضرب »^(٤٩) .

كذلك شاع شرب الخمر بين عامة المصريين من غير المماليك •
فإذا وقع هجوم على كنايس أهل الذمة أو بيوتهم ، أسرع العامة
الى نهب ما بها من خمر واحتسائها في الحال قبل أن ينتزعها منهم
منافس^(٥٠) . وفي كثير من الحفلات والأفراح الشعبية اعتبرت الخمر
متممة للمغانى^(٥١) . وقيل أن أحد فقهاء القرن الثامن الهجري تحدى

(٤٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١٠ ص ٤٦٢ ترجمة أبو بكر محمد
ابن قلاوون •

(٤٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٥٠٠ ترجمة الأمير بهادر
النصوري •

(٤٦) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٣٠٥ — ٣٠٦ •

(٤٧) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٥٢ . والمقصود هنا الأمير
سيف الدين ملك تهر الناصرى أحد كبار أمراء الناصر محمد وزوج ابنته •

(٤٨) الذهبى : تاريخ الاسلام ج ٢٢ ص ١٠٧ •

(٤٩) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ١٢١ ، ٢٠١ •

(٥٠) العينى : عقد الجمان : حوادث سنة ٧٢١ هـ •

(٥١) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ٤٢٦ •

أصحابه على أن يشرب الخمر وسط المجلس الديني وهو على المنبر ،
فاتفق مع شخص على ذلك وتظاهر بالسعال واستأذن الحاضرين
في شرب دواء « يصرف البلغم والخلط » ، فأحضر له ذلك الشخص
زجاجة الخمر. وشرب ما فيها عن آخره^(٥٢) . أما مجالس الشراب فعنى
المعاصرون بأمرها وإعداد ما ينبغي لها « من منظر جميل وسماع
مطرب وتسريح اللحية والرأس وتقليم الأظفار ! » .

وقد لجأ سلاطين المماليك في أوقات الشدائد الى إراقة الخمر
وتحريم تعاطيها في مختلف أنحاء البلاد إظهاراً للتوبة ، كما حدث
سنة ٧٠٩ ، ٧٨١ ، ٨٣١ ، ٩٢٢ هـ^(٥٣) . ولكن هذه الأوامر لم تستمر
إلا مدة قصيرة من الزمن ، يعود الناس بعدها الى التظاهر بشرب
الخمر « ولم ينتهوا عما هم فيه »^(٥٤) .

الرشوة :

ومن أهم مظاهر الانحلال الخلقي في عصر المماليك تفشي الرشوة
(البراطيل) بين الحكام والمحكومين . وقد ذكر المقرئى أن أصل
الفساد في عصره هو تحكّم الرشوة في ولاية الخطط السلطانية
والمناصب الدينية كالوزارة والقضاء وولاية الأقاليم وولاية الحسبة
وسائر الأعمال « بحيث لا يمكن التوصل الى شىء منها إلا بالمال
الجزيل »^(٥٥) . وفي مصادر العصر المماليكى أمثلة كثيرة لقضاة ومدرسين

(٥٢) الجوبرى : المختار في كشف الأسرار ص ٣٥ .

(٥٣) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ٢٤٤ ، ١٢٤٤ ، ٣١٤ ب ، ٢٤٩ ،
المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٥٣ — ٥٤ ، ج ٣ ص ٣٥٤ ، العيني : عقد
الجهان سنة ٨٠٩ هـ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٥٤ .

(٥٤) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٨٥ .

(٥٥) المقرئى : افانة الامة ص ٤٣ .

بلغوا مناصبهم عن طريق الرشوة ، فاذا استقروا في تلك المناصب استمروا في رشوة أهل الدولة بالأوقاف ، وتأجيرها لهم بأبخس الأثمان حتى يضمنوا بقاءهم في مناصبهم^(٥٦) . ويأسف المقرئى — وهو معاصر — لأن : « ائتأهر بالبراطيل صار عرفا غير منكر البتة »^(٥٧) . وقد حدث سنة ٨٠٩ هـ أن تولى منصب الحسبة في مصر أربعة في شهر « لأنهم فرضوا على المنصب مالا مقررا ، فكان من قام في نفسه أن يليه يزد المبلغ ويخلع عليه ، ثم يقوم آخر فيصرف الذي قبله ... »^(٥٨) . وتغاضى بعض أصحاب الحسبة عن الباعة الذين يغشون الناس ويغبنونهم وذلك نظير ضرائب مقررة يجمعها المحتسب لكى « يؤدى منها ما استدانه من المال الذى دفعه رشوة عند ولايته ، ويؤخر البقية لمهاداة أتباع السلطان ليكونوا أعوانا له على بقاءه »^(٥٩) . وأدرك عامة الناس هذا الطريق لقضاء حوائجهم فإذا سمعوا أن شخصا له مكانة ووجاهة عند السلطان أسرعوا إليه يقدمون الرشاوى ويساومونه على قضاء مطالبهم^(٦٠) . ثم تطور الأمر الى بيع الوظائف الدينية نفسها ، فينزل الفقيه عن وظيفته في وقف من الأوقاف أو في الدروس أو في النخوانق أو القراءة أو المباشرة ، وذلك مقابل مبلغ يدفعه له طالب الوظيفة . وهكذا يلى الوظائف غير أهلها « فضاشرت الوظائف مثل الأموال المملوكة ، يبيعها صاحبها إذا شاء ، ويرثها بعده صغار ولده ، وسرى ذلك حتى فى التداريس الجليلية وفى نطر الجوامع والمدارس ومشيغة التصوف . فيا نفس جدى إن دهرك هازل »^(٦١) .

(٥٦) ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ١٧٧ ، السخاوى : الذيل على رفع الإصر ص ٣٩٧ .

(٥٧) المقرئى : كتاب السلوك ج ٣ ق ٢ ص ٦١٨ (تحقيق المؤلف) .

(٥٨) ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٧٢٩ .

(٥٩) المقرئى : السلوك ج ٤ سنة ٨٢٠ هـ .

(٦٠) ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٢٥٩ .

(٦١) المقرئى : السلوك ج ٤ سنة ٨٢٠ هـ .

ومن الواضح أن الرشوة فشلت بين كبار موظفي الدولة فثسوا خطيرا في أواخر عصر سلاطين المماليك — في القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر الميلاد — وذلك على أيام المقریزی الذي اعتبر هذه الظاهرة من أشد أنواع الظلم وأخطر أسباب تدهور الدولة •

وضرب المقریزی أمثلة لهذه الظاهرة الخطيرة بما كان يفعله « الحكام بالقاهرة وأعمالها ما بين محتسب ووال وحجاب وقضاة ... وغيرهم » •

فالمحتسب الذي كان مفروضا فيه أن يمنع بيع البضائع المغشوشة في الأسواق ويعاقب أصحابها ، صار يلى وظيفته عن طريق دفع الرشوة للمسؤولين ، فإذا باشر عمله تقاضى أموالا من التجار على ما يبيعه من بضائع مغشوشة ليسد قيمة الرشوة التي استدانها « ويؤخر ما تبقى لمهاداة أتباع السلطان ليكونوا عوناً له في بقائه » • أما القضاة ، فإن نوابهم « ما منهم إلا من لا يحتشم من أخذ الرشوة على الحكم » • وأما الولاة « فإن جميع ما يسرق من الناس يأخذونه من السراق » ، فإن لم تكن المسروقات مع السارق « ألزموه مالا ويتركوه لسبيله » • وأما الحجاب ، فإنهم وأعوانهم قد انتصبوا الأخذ بالأموال بغير حق من كل شاك إليهم « فما من أحد من الحجاب إلا وفي بابه رجل يقال له رأس نوبة ، يضمن له في كل يوم قدرا معلوما من المال يقوم له به ... » • وهكذا « اختل اقليم مصر خلا شنيعا » على قول المقریزی •

وفي موضع آخر يأخذ المقریزی على المجتمع « تجاهر الناس بالبراطيل • فلا يكاد أن يلى أحد وظيفة ولا عملا إلا بمال • فترقى للأعمال الجليلة والرتب السنية الأراذل وفسد بذلك كثير من الأحوال » (٦٣) •

(٦٢) المقریزی : السلوك : ج ٤ ق ١ ص ٣٨٨ — ٣٩٤ ، و ج ٣ ق ٢ ، ص ٦١٨ (تحقيق الباحث) •

الاعتقاد في الأولياء والمشايخ :

ومن الأمراض الاجتماعية التي نشأت في عصر سلاطين المماليك مبالغة كثير من طبقات المجتمع في التوسل بالأولياء والمشايخ لتحقيق المكرب والغايات . وقد أمعن الناس في ذلك العصر في الاعتقاد في هؤلاء الأولياء ، حتى نسبوا إليهم خرافات كثيرة خارقة للعادة ، أسموها « كرامات » . وذكر السخاوى أن من جملة كرامات الأولياء انقلاب الأعيان ، فيدعو للفقير فيصبح غنيا ، ويقول للطبق التحاس « صر ذهباً » فيصير ذهباً . وكذلك المشى على الماء ، والكشف عن حال الموتى ، وسماع كلامهم بل إحيائهم ! ، والكلام عن المستقبل والماضى (٦٣) . . . كذلك حكى الشعرانى بعض كرامات الأولياء التي اعتقد فيها معاصروه ، فهذا شيخ يجتذب الحلفاء من الصحراء فتخرج قلقاسا، وهذه امرأة تشتهى جوز الهند ولا يجدونه بمصر فتذهب الى الشيخ فإذا بشجرة تنبت فجأة في خلوته تأخذ منها المرأة ما تشتهيه ثم تختفى الشجرة بعد ذلك ! وهذا رجل يحتاج الى المال لضرورة فيأمره الشيخ بالذهاب الى ساقية معينة ليغترف منها ما يشاء من ذهب وفضة . ومن الأولياء من يضع التراب على الرصاص فيصبح ذهباً ، ومنهم من يسخر التماسيح في عبور النيل ، ومنهم من يطير في الهواء من غير أجنحة ، ومنهم من يأمر عصاه أن تكون إنسانا فتصبح إنسانا . . . (٦٤) . الى غير ذلك من الكرامات والاعتقادات التي هي أقرب الى الكفر والجهل منها الى الدين والعلم . ويبدو أن الفقراء والصوفية عملوا على نشر أخبار هذه الكرامات وأشباهاها بين الناس حتى « يخلقون لأنفسهم دنيا من المجد الموهوم » (٦٥) .

• (٦٣) السخاوى : تحفة الأحياب ص ٣٣٣ .

• (٦٤) طبقات الشعرانى ج ٢ ص ١٤٢ - ١٩٢ .

• (٦٥) زكى مبارك : التصوف ج ٢ ص ٢٨٣ .

واعتقد الناس كذلك في المجازيب الذين يأتون أفعالا شاذة أو غريبة • وقد بلغ من اعتقاد المعاصرين فيهم أن قصدوهم « فوجا فوجا ما بين قاض وعالم وأمير ورئيس • • (٦٦) • ومن العجيب أن الفقيه الكبير ابن حجر قال عن نفسه أنه ما زال يعيش في بركة أحد أولئك المجازيب (٦٧) • وعل الناس أفعال المجازيب بأن روحانيتهم اللطيفة عرجت الى السماء ولم يبق من كيانهم على الأرض سوى الجزء الكثيف منها (٦٨) •

وقصد الناس على اختلاف طبقاتهم مزارات الأولياء والمشايخ (٦٩) ، وبخاصة ذوو العاهات والأمراض الذين تراحموا أمام أبوابهم طلبا للشفاء (٧٠) • فإذا دخل أحد أولئك الأولياء الحمام وحلق رأسه « نقاتل الناس على شعره يتبركون به ويجعلونه ذخيرة عندهم » (٧١) • وربما كانت من هؤلاء الأولياء امرأة ، فيهرع إليها الناس طالبين البركة والدعاء (٧٢) • ولم يكن أمراء الممالك وسلطينهم أقل اعتقادا في أولئك المجازيب والأولياء من عامة الشعب ، إذ كثيرا ما اجتمع بهم السلاطين والأمراء طالبين البركة (٧٣) • وقد حدث سنة ٩٢٢ هـ أن السلطان الغورى حرص عند خروجه لحرب العثمانيين على أن يصطحب معه خليفة السيد البدوى وخليفة السيد الرفاعى ، ومن تعلق منهما

(٦٦) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٢٦٨ — ٢٦٩ ، ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٣٢٩ ، ٣٧٦ •

(٦٧) ابن حجر : انباء الغمر سنة ٧٧٧ هـ

(٦٨) كلوت بك : لمحة عامة ج ٢ ص ٨١ •

(٦٩) ابن قاضى شهبه : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ج ٢ ص ٨٢ — ٨٣ ، ج ٥ ص ٢٥٥ •

(٧٠) السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٠٢ •

(٧١) طبقات الشعرائى ج ٢ ص ١٢٩ •

(٧٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٥٧ •

(٧٣) المقرزى : السلوك ج ٣ ص ٣٩٩ •

بالمريض ألزمه السلطان بالسفر طلبا للمبركة^(٧٤) . بل إن السلطان
الظاهر برقوق أوصى أن يدفن عند وفاته تحت قدمي أحد المجاذيب ،
وكان للسلطان فيه اعتقاد كبير^(٧٥) . فإذا توفي أحد أولئك الأولياء
أو المجاذيب ، احتفل احتفالا كبيرا بتشييعه ودفنه ، وأحيانا يتولى
تجهيزه ودفنه أحد كبار الأمراء ، وربما دفن في تربة بعض
السلطين^(٧٦) . ويتنافس الأمراء وأهل الزوايا وعامة الناس في شراء
ثياب الولي المتوفى ، للاحتفاظ بها على سبيل البركة^(٧٧) . وبعد دفنه
يواظب الناس على زيارة قبره للتبرك به ، حتى أصبحت زيارة قبور
الأولياء أحد الأركان الأساسية التي قامت عليها الحياة الاجتماعية في
مصر على عصر سلاطين المماليك^(٧٨) . وقد حاول ابن الزيات والسخاوي
وغيرهما من المعاصرين وضع مؤلفات مستقلة لحصر قبور الأولياء
وشرح النظام الذي يجب أن يتبع في زيارتها^(٧٩) . كذلك حرص
الناقد الاجتماعي الكبير ابن الحاج على توصية زملائه العلماء والفقهاء
بضرورة زيارة الأولياء والصالحين أحياء وأمواتا « لاغتنام بركتهم
ولأنه برؤيتهم تتشرح الصدور »^(٨٠) .

واستتبع ذلك الاعتقاد الكبير في الأولياء عناية فائقة بإحياء الموالد
السنوية في الجهة أو البلدة التي بها قبر الولي ، كمولد السيد أحمد

-
- (٧٤) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٢ .
(٧٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٦٢٤ (طبعة
كاليفورنيا) .
(٧٦) ذيل الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ج ٢ ص ١٦٧ .
(٧٧) العيني : عقد الجمان سنة ٧٠٨ هـ .
(٧٨) السخاوي : تحفة الأحباب ص ٣٨٠ - ٣٨٢ ، ابن اياس :
بدائع الزهور ج ٢ ص ٢١٧ ، أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٤ ص
٧٥٨ .
(٧٩) ابن الزيات : الكواكب السيارة ، السخاوي : تحفة الأحباب .
(٨٠) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ١٣٩ .

البدوى في طنطا مثلا ومولد السيد عماد الدين اسماعيل بن يوسف الإنبأى في جهة إنابة قرب الجيزة . وكان الغرض الأساسى من إقامة هذه الموالد هو تكريم أصحابها وإحياء ذكراهم ، بصرف النظر عن رعاية النيوم الذى ولد فيه صاحب المولد بالخبىظ ، لأن أغلب هؤلاء الأولياء لم يعرف تاريخ ميلادهم بالدقة ، بل لم يعرف عنهم شىء فى صباهم وطفولتهم . هذا إلى أنه كان لبعض أولئك الأولياء أكثر من مولد فى السنة كالسيد البدوى الذى يحتفل بمولده ثلاث مرات فى ثلاثة أوقات مختلفة فى العام الواحد . وقام سلاطين الممالىك — مثل السلطان قايتباى — برعاية بعض هذه الموالد ، فأمر بعملها ودعوة الخليفة والقضاة والأعيان إليها^(٨١) . أما عامة الناس ، فبلغ من اهتمامهم بأمر هذه الموالد المحلية والحرص على حضورها أنهم كانوا يقولون فى بعض الأحيان « جاء الحجاج هذه السنة لسيدى أحمد البدوى من الشام وحلب ومكة أكثر من حجاج الحرمين ! »^(٨٢) .

وتعتبر إقامة هذه الموالد مما ابتلى به المصريون ، نظرا لما يحدث فيها من مظالم وتهتك وفضائح خلقية . ذلك أن القائمين على أمرها فى عصر سلاطين الممالىك اعتادوا جمع الأموال اللازمة لها من الأغنياء وفرضها عليهم فرضا ، حتى ضاق الأغنياء ذرعا بذلك الوضع فقَالَ أحدهم : « لقد سئمت نفوسنا من كثرة سؤال هؤلاء المشايخ الذين يعملون لهم الموالد ، فلم يتركوا عندنا عسلا ولا أرزا ولا عدسا ولا بسلة . وأيش قام على هؤلاء أن يشحذوا ويعملوا لهم موالد ؟ »^(٨٣) . ثم إن هذه الموالد أصبحت مهرجانات عظيمة يجتمع فيها ما لا يحصى من النساء والصبيان والفساق^(٨٤) ، فتنصب لهم

(٨١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٢١ .

(٨٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٧٦ .

(٨٣) زكى مبارك : التصوف ج ١ ص ٣٦٤ .

(٨٤) ذيل الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ج ١ ص ٣٣ .

الخيام الكثيرة حيث يحدسون الخمر ويرتكبون مخطئ أنواع المنكر .
وقد عثر مرة صبيحة مولد الشيخ الإنبأبى على أكثر من مائة وخمسين
جرة خمر متناثرة فى المزارع المجاورة بعد أن شرب ما بها ليلة المولد ،
هذا خلاف « ما كان فى تلك الليلة من الفساد والزنا واللواط والتجاهر
بذلك » (٨٥) .

وهكذا أصبحت الموالد عند المعاصرين « من جملة النزه يتواعدون
عليه من قبل عمله بأيام ويتوجهون إليه أفواجا ، ومنهم من له سنون
على ذلك وهو لا يعرف باب الزاوية ا » (٨٦) ، حتى أقامى الصعيد —
وهى الجهات المعروفة بطابع المحافظة الشديدة — لم يكن أهلها بمنجاة
من عبث الموالد ، فنسمع عن أهل الأقصر فى عصر الممالىك أنهم
اعتادوا أن يقيموا بعض الموالد لمشايخهم ، فتأتى الناس من كل
مكان « ويبدل فيه العزيز الغالى وتحضر أصحاب الثنوف والشبابات
والدفوف وتختلط الرجال بالنسوان » (٨٧) .

على أنه مهما يكن لهذه الموالد من آثار اجتماعية سيئة ، فإنه يجب
الاعتراف بأنها ملأت فراغا كبيرا فى الحياتين الاجتماعية والاقتصادية .
ذلك أن الموالد كانت دائما بمثابة مواسم يكتر فيها الواردون من
مختلف أنحاء البلاد ، فيتعارف الناس بعضهم ببعض ، وينتفعش
الفقراء وخدم الأضرحة الذين تنهال عليهم النذور والصدقات (٨٨) .
هذا فضلا عما يترتب على اجتماع الناس من نشاط حركة التجارة

(٨٥) ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٣٦٢ — ٣٦٤ ، القرىزى :

السلوك ج ٣ ص ٤٨٧ .

(٨٦) أبو الجاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٤٤٣ (طبعة

كاليفورنيا) .

(٨٧) الأندفوى : الطالع السعيد ص ٤١٦ — ٤١٨ .

(٨٨) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٩٢ .

فتتحول هذه الموالد الى أسواق جامعة تروج فيها البضائع وتتنشط حركة البيع والشراء^(٨٩) .

المعتقدات الباطلة :

وتمسك المصريون في عصر سلاطين المماليك بكثير من المعتقدات والأوهام الباطلة ، حتى غدت عندهم بمثابة السنن الثابتة . ومن هذه تمسكهم بعدم زيارة المريض يوم السبت ، وعدم دخول الحمام أو شراء الصابون أو غسل الملابس أو شراء السمك أو أكله في ذلك اليوم بالذات^(٩٠) . ومنها الحرص على شراء البخور واستعماله في أيام معينة معروفة ، واستعمال الكحل وشرب الدواء في أيام أخرى محددة^(٩١) . وكذلك عدم إخراج نار أو ماعون أو إناء من المنزل بعد العشاء^(٩٢) . والاعتقاد في أن المرأة التي لا يعيش لها ولد يجب أن تصنع له حلقة من فضة وتضعها في أذنه حتى يعيش^(٩٣) . أو أن الشخص إذا دخل الحمام أربعين أربعاء متتالية « فإنه يفتح عليه بالدنيا »^(٩٤) .

وكثير التشاؤم والتطير ، فإذا سافر أحد أفراد الأسرة تجنبوا تنظيف المنزل وكنسه عقب سفره ، ويتشائمون بعدم عودته إذا هم فعلوا ذلك^(٩٥) . وإذا دخل ميت من أحد أبواب القاهرة تشاءم الناس وتوجسوا سوءاً للبلاد^(٩٦) . وإذا ضربت فلوس جديدة وجعل اسم

(٨٩) زكى مبارك : التصوف ج ١ ص ٢٨٦ .

(٩٠) ابن الحاج : المحل ج ١ ص ٢٢٧ ، ٢٧٨ — ٢٧٩ .

(٩١) المصدر السابق ج ٢ ص ٥٤ — ٥٧ .

(٩٢) المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٩ .

(٩٣) الذهبي : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٣٦ .

(٩٤) ابن الحاج : المحل ج ١ ص ٢٨٢ .

(٩٥) المصدر السابق ج ٢ ص ٦٧ .

(٩٦) أبو المحاسن : حواشى الدهور ج ٣ ص ٥٢٤ .

نسلطان عليها في دائرة ، تطير الناس بذلك وتقالوا هذا يؤذن بأن السلطان تدور عليه الدوائر ، فتسرع الدولة إلى إبطال هذه الفلوس^(٩٧) . فإذا صادف وبدأ عيد الأضحى أو الفطر يوم الجمعة خاف الناس على السلطان الآن إلقاء خطبتين في يوم واحد في المساجد يؤذن بزوال الملك^(٩٨) ، حتى بلغ الأمر في بعض الأحيان أن يرى الناس هلال رمضان فينكرونه حتى لا يستهل شوال يوم الجمعة فنتفع الكارثة^(٩٩) .

واعتاد كثير من الناس قبل الإقدام على عمل من الأعمال أن يفتحوا المصحف وينظروا في أول سطر يخرج لهم . فإذا صادفوا آية تنطوى على العذاب والوعيد تخوفوا وتشاءموا^(١٠٠) . وحكى عن أحد فقهاء القرن التاسع الهجري أنه عين في قضاء الديار المصرية ، فلما فتح المصحف خرجت له الآية الكريمة « قال رب السجن أحب إلى مما تدعونني إليه » ، فخاف الفقيه واختفى أياما حتى عين غيره في ذلك المنصب ، وعندئذ ظهر للعيان^(١٠١) . وقد احتل التنجيم مكانة كبيرة في الحياة الاجتماعية في عصر المماليك ، حتى أن بعض المعاصرين اهتموا بتأليف كتب في « علم التنجيم » و « علم الرمل وفروعه »^(١٠٢) . وعرف الناس في ذلك العصر عدة طرق للتنجيم ومعرفة الطالع ، منها مراقبة النجوم وأبراجها ، وفتح المندل ، وضرب الرمل . . وغير

(٩٧) المقریزی : السلوك ج ٣ ص ٤٧٦ .

(٩٨) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٤٤ ، أبو المحاسن :

النجوم ج ٧ ص ٤٣٥ ، ٥١٠ .

(٩٩) السخاوی : التبر المسبوك ص ١٠١ — ١٠٢ .

(١٠٠) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٧٨ .

(١٠١) السخاوی : الضوء اللامع ج ١ ص ١٧٢ ترجمة ابراهيم بن

موسى الأبناسي .

(١٠٢) الجوبري : المختار في كشف الاسرار .

ذلك^(١٠٣) . وحكى عن السلطان بييرس شدة ولعه بالنجوم وما يقوله
أرباب التقاويم^(١٠٤) . أما السلطان برقوق فحرص على ألا يخرج
إلى الأسفار إلا بعد أن يأخذ له منجمه الطالع^(١٠٥) . وكذلك اعتاد
ابنه السلطان فرج ألا يتعدى في أسفاره الوقت الذي يعينه له
المنجم^(١٠٦) . أما أمراء المماليك فاعتادوا دائما الإلتجاء الى المنجمين
ليطلعوا على النجوم أو يضيروا الرمل ويخبروهم من سيلي السلطنة
بعد السلطان القائم بالأمر^(١٠٧) . ومن النادر أن نسمع عن أحد
سلاطين المماليك أنه خالف معاصريه في الإعتقاد بالنتجيم ، كما حدث
سنة ٧٣٣ هـ عندما أمر السلطان الناصر محمد بمنع المنجمين والقبض
عليهم وضرهم وذلك « لافسادهم حال النساء »^(١٠٨) . وتدلنا العبارة
الأخيرة على أن النساء بوجه خاص أكثرن من التردد على المنجمين في
عصر المماليك مما جعل بعض الكتاب المعاصرين يوجهون نقداً مرا الى
المنجمين « فإن معظم من يجلس عندهم النسوان وقد صار في هذا
الزمان يجلس عند هؤلاء الكتاب والمنجمين من له حاجة عندهم من
الشباب وغيرهم ، وليس لهم قصد سوى حضور امرأة تكشف نجمها

-
- (١٠٣) سيرة الظاهر بييرس ج ٧ ص ٥٥ ، وابن دانيال الموصلى :
طيف الخيال (بابة عجيب وفريب) ص ٨٥ ، ٨٧ .
(١٠٤) ابو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٧٨ ، طبعة كاليفورنيا .
(١٠٥) السخاوى : تحفة الاحباب ص ٥٠ .
(١٠٦) السخاوى : الضوء اللامع ج ١ ص ١٢٠ ترجمة ابراهيم بن
محمد بن رفاعة .
(١٠٧) الكتيبى : قوات الوفيات ج ٢ ص ١٣٣ ، ابو المحاسن :
النجوم ج ٧ ص ٢٦ .
(١٠٨) تاريخ الجزرى ج ٢ ص ١٩٢ ، ابن بكثير : البداية والنهاية
ج ٤ ق ٢ ص ٢٩٧ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٢٢ ، ابن حجر :
اتحاف اخوان الصفا ص ١٢٨ ب .

أو تكتب رسالة أو حاجة لها فيسألها ويتمكن من الحديث معها ، بسبب جلوسه وجلوسها ، ويؤدى ذلك الى أشياء لا يليق ذكرها ١١٠٠» (١٠٩) .

كذلك اعتقد المصريون اعتقادا راسخا فى الحسد والعين ، واتقوا شر ذلك باستعمال البخور ، « ويتكلم من يرقى البخور بكلام لا يعرف » (١١٠) . وكثيرا ما عنوا بكتابة الحفائظ فى أوقات معينة — مثل آخر جمعة من رمضان والإمام يخطب لصلاة الجمعة — ويقولون أن تلك الحفائظ إذا وضعت فى بيت منعت عنه الحريق والسرقه ، وإذا وضعت فى مركب منعت عنه العرق وغير ذلك (١١١) .

أما السحر والإلتجاء إليه فأعظم ميادينه كان الحريم السلطانى ، حيث تعددت زوجات السلطان وأخذت كل منهن تسعى لتكيد لغيرها وتظهر عليها . فإذا مات ابن للسلطان اتهمت أمه إحدى ضرائرها بأنها سحرت له (١١٢) . وإذا توفيت خوند الأولى إتهم السلطان خوند الثانية بأنها سحرت لها (١١٣) . وإذا اعترى السلطان مرض قامت أمه لتتهم إحدى زوجاته بأنها سحرت فتوقع الحوطة على موجودها وتضرب جواربها ليعترفن (١١٤) . أما عامة الناس فى ذلك العصر فحاولوا إتقاء شر السحر بكثير من العادات والأفعال المتنوعة التى يعملها النساء فى بيوتهن ، من اطلاق البخور وإحراق الأشياء والصور يوم الجمعة ساعة الصلاة (١١٥)

-
- (١٠٩) ابن الاخوة : معالم القرية ص ١٨٣ .
(١١٠) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٥٥ — ٥٦ .
(١١١) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢١٨ .
(١١٢) المصدر السابق سنة ٨٤٧ هـ .
(١١٣) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ١ ص ٣١ .
(١١٤) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٦٦٨ (مخطوط) .
(١١٥) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٥٦ .

ولم يكن اعتقاد الناس في الجان أقل من اعتقادهم في السحر ، حتى بلغ الأمر أن أحد قضاة عصر الماليك — وهو بدر الدين الشبلى (ت ٧٦٩ هـ) — ألف كتابا يحوى مائة وأربعين بابا في أخبار الجان^(١١٦) . وذكر السخاوى أن أحد معاصريه « تعقبته تابعة من الجان عجز الأكاير عن خلاصه منها » فاستعان عليها بأحد ذوى الكرامات^(١١٧) . كذلك يروى الشعرانى أن أحد معاصريه من فضلاء المشايخ استخدم الجان ، فقاموا على خدمته وترضيته وغير ذلك^(١١٨) . بل إن الشعرانى يروى عن نفسه أن في بيته امرأة من الجان إذا اقتربت منه قامت كل شعره في جسده^(١١٩) ، ويذكر ابن الحاج كثيرا من الأعمال التى درجت النساء في عصره على فعلها « لئلا يصيبها شئ من الجان » .

واشتغل بعض الناس في ذلك العصر بالكيمياء ، بوصفه العلم الذى يشمل الأصول والتقواعد التى يمكن بها تحويل مختلف المواد الى ذهب وفضة^(١٢٠) . وفى سبيل الوصول الى هذه الغاية . وجد كثير من الناس في عصر الماليك اشتغلوا بالكيمياء فأقنوا فيها أموالهم وأموال غيرهم ، وتحول بعض المشتغلين بالكيمياء الى الشعوذة ، يخدعون الناس ويسلبون أموالهم باسم الحصول على كميات وفيرة من الذهب . وقد صور الجوبرى أهل الكيمياء في ذلك العصر بأنهم طائفة من أعظم الطوائف تسلطا على أكل أموال الناس بالباطل ، وأنهم يتحايلون على

(١١٦) بدر الدين الشبلى : أكام المرجان في احكام الجان .

(١١٧) السخاوى : الضوء اللامع ج ١ ص ١١٣ ترجمة ابراهيم ممر الاتكاوى .

(١١٨) الشعرانى : ذيل لواقح الأنوار ص ٤٢ ب .

(١١٩) زكى مبارك : التصوف ج ١ ص ٣٤٨ .

(١٢٠) أبو يحيى زكريا محمد : اللؤلؤ النظيم ص ١٤ ، مقدمة ابن خلدون ص ٥٩٢ وما بعدها .

أخذ أموال الناس بطرق شتى (١٢١) . وحدث سنة ٨٥٢ هـ أن وقع السلطان جقمق فريسة لشخص احتال عليه باسم الكيمياء ، ولم يزل ذلك الشخص حتى أتلف على جقمق مالا كثيرا فأمر أخيرا بسجنه (١٢٣) . هذا ، وقد أدرك بعض الناس أن الكيمياء غش وخداع ، وأنها عمل الكسالى الذين يطلبون المال دون تعب والهناء دون عناء . ودليل ذلك ما جاء في إحدى تمثيلات خيال الظل « ولما حال الحال ، ومال المال ، وذهب الذهب ، تركنا العمل ، وملنا إلى الراحة والكسل ، وأدعيت الأباطيل ، فطورا أدعى معرفة الكيمياء » (١٢٣) .

-
- (١٢١) الجويرى : المختار في كشف الاسرار ص ٦١ .
(١٢٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢١١ — ٢١٢ .
(١٢٣) ابن دانيال : طيف الخيال ص ٧١ .

المصادر والمراجع

أولا - حجج شرعية ووثائق

- حجة وقف السلطان بييرس الجاشنكير سنة ٧٥٧ هـ
(٢٣ - أرشيف، المحكمة الشرعية)
- حجة وقف السلطان الأشرف برسباي سنة ٨٢٧ هـ
(٣٣٩٠ - تاريخ دار الكتب المصرية)
- حجة وقف الجمالى يوسف الاستادار سنة ٨٥٢ هـ
(١٠٦ - أرشيف المحكمة الشرعية)
- حجة وقف السلطان الغورى سنة ٩١١ هـ
(٨٨٣ - أرشيف وزارة الأوقاف) وقد نشر هذه الحجة
الأخيرة مع دراسة علمية دقيقة للوثائق المعاصرة الدكتور
عبد اللطيف ابراهيم على .

ثانيا - مصادر عربية مخطوطة

- ١ - الأسدي (شمس الدين محمد ، معاصر للمسلطان الغوري)
التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار (مخطوط مصور بدار
الكتب المصرية رقم ٥٤٨٦)
- ٢ - البلوى المغربى (خالد بن عيسى بن أحمد بن ابراهيم ،
القرن الثامن الهجرى) :
تاج الفرق فى تحلية علماء المشرق ، وهى المعروفة برحلة
البلوى (مخطوط فى مجلد بالخط المغربى - دار الكتب
المصرية ، رقم ٤٠٠ جغرافيا)
- ٣ - بيبرس الدوادار (الأمير ركن الدين) ت ٧٣٥ هـ :
زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة - الجزء التاسع (مخطوط
مصور بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢٨) - حققته أخيرا
زبيدة محمد عطا مع دراسة علمية وافية .
- ٤ - الجزرى (شمس الدين أبو عبد الله محمد) ت ٧٣٩ هـ :
تاريخ مخطوط فى ثلاث مجلدات (دار الكتب المصرية رقم
٥٤٢٢)
- ٥ - ابن جهضم (نور الدين أبو الحسن الشطنوفى) ت ٧١٣ هـ :
بهجة الأسرار ومعدن الأنوار فى مناقب السادة الأخيار من
المشايخ الأبرار (مخطوط فى مجلدين - دار الكتب المصرية
رقم ٤٥٠٦)
- ٦ - ابن حبيب (شهاب الدين الحلبى الشافعى) ت ٧٧٩ هـ :
درة الأسلاك فى دولة الأتراك (مخطوط مصور من ثلاثة أجزاء
- دار الكتب المصرية رقم ٦١٧٠)

٧ — ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أبو العباس أحمد)
ت ٨٥٢ هـ :

اتحاف إخوان الصفا بنبذ من أخبار الخلفاء (مخطوط في مجلد —
دار الكتب المصرية رقم ٢٧٦)

٨ — إنباء العمر بأنباء العمر •

(جزءان — دار الكتب المصرية رقم ٢٤٧٦)

• نشرته أخيراً دائرة المعارف العثمانية — حيدر آباد بالهند •

٩ — التعرف في الأصلين والتصوف •

(مخطوط في مجلد — دار الكتب المصرية رقم ٥٩٧) •

١٠ — رفع الأصرار عن قضاة مصر •

(مخطوط في مجلد — دار الكتب المصرية — رقم ١٠٥ . تاريخ)

١١ — الحسينى (حسين بن محمد) معاصر للسلطان الغورى •

• نفائس المجالس السلطانية في حقائق الأسرار القرآنية •

(مخطوط مصور في مجلد — دار الكتب المصرية رقم ٤١٧) •

١٢ — الخازنى (القاضى أمين الدين أبو محمد عبد الوهاب)

ت ٧٦٨ هـ •

أحاسن الأخبار في محاسن السبعة الأخيار (مخطوط في

مجلد — دار الكتب المصرية — رقم ٢٩٤٧) •

١٣ — ابن دانيال الموصلى (شمس الدين محمد) •

طيف الخيال (مخطوط في مجلد — دار الكتب — الخزانة

التيمورية ١٦ . ألعاب) •

(م ١٨ — المجتمع المصرى)

- ١٤ — ابن دقماق (صارم الدين ابراهيم بن محمد) ت ٨٠٩ هـ •
الجواهر الثمين في سير الملوك والسلاطين (مخطوط في مجلد —
دار الكتب المصرية رقم ١٥٣٢) •
• حققته أخيرا المؤلف مع دراسة علمية وافية •
- ١٥ — الذهبي (شمس الدين محمد) ت ٧٤٨ هـ •
تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام (مجلدات ٣٠ ،
٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ — دار الكتب المصرية رقم ٤٢) •
- ١٦ — أبو زكريا يحيى بن ابراهيم الحكيم •
كتاب في الشطرنج (مخطوط مصور — دار الكتب المصرية
رقم ٤٩٧) •
- ١٧ — السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر) ت ٩١١ هـ •
مفتى من ينبوع فيما زاد على الروضة من الفروع
(دار الكتب المصرية رقم ٥٢١ مجاميع) •
- ١٨ — آكام العقيان في أحكام الخصيان •
(دار الكتب المصرية رقم ٥٢١ مجاميع) •
- ١٩ — بلبل الروضة •
(دار الكتب المصرية رقم ٢٠ م) •
- ٢٠ — كوكب الروضة •
(دار الكتب المصرية رقم ٥٠٢٧) •
- ٢١ — ابن شاكر الكتبي (صلاح الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد)
ت ٧٦٤ هـ •
عيوان التواريخ • (توجد منه خمسة مجلدات مصورة بدار
الكتب المصرية رقم ١٤٩٧) •

- ٢٢ — الشيبلى (بدر الدين أبو عبدالله محمد) ت ٧٦٩ هـ •
آكام المرجان فى أحكام الجان • (مخطوط فى مجلد — دار
الكتب المصرية رقم ٢٤١٢) •
- ٢٣ — الشمرانى (أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن على)
ت ٩٧٣ هـ •
ذيل لواقح الأنوار القدسية فى طبقات العلماء والصوفية •
(دار الكتب المصرية — رقم ٤٩٣ تاريخ) •
- ٢٤ — طيينا الجركمى الثمارتمرى (القرن الثامن الهجرى) •
الفلاحة المنتخبة • (مخطوط فى مجلد — دار الكتب المصرية
رقم ٢٢ زراعة) •
- ٢٥ — ابن ظهيرة (جمال الدين محمد بن محمد نور الدين) القرن
العاشر الهجرى •
الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة •
(مخطوط فى مجلد — دار الكتب المصرية رقم ١٤٦٠) •
- ٢٦ — ابن العراقى (ولى الدين أحمد أبو زرعة بن الحافظ أبو
الفضل) ت ٨٢٦ هـ :
الذيل •
(مخطوط مجلد — دار الكتب المصرية رقم ٥٦١٥ تاريخ) •
- ٢٧ — العينى (بدر الدين محمود) ت ٨٥٥ هـ •
السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ •
(مخطوط مصور فى مجلد — دار الكتب المصرية رقم ٣٣٥٤) •
حققه أخيرا فهيم محمد شلتوت •

- ٢٨ - عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان *
- (مخطوط مصور - ٢٣ جزءاً في ٦٩ مجلداً ، يبدأ الجزء ١٨ بسنة ٦٢١ هـ - دار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤) *
- يقوم بتحقيقه حالياً محمد أمين وصدرت منه خمسة أجزاء *
- ٢٩ - ابن الفرات (ت ٩٠٧ هـ) *
- تاريخ الدول والملوك ، المعروف بتاريخ ابن الفرات *
- (مخطوط مصور في ١٨ مجلداً - دار الكتب المصرية رقم ٣١٩٧) *
- ٣٠ - القاشانى (كمال الدين عبد الرازق) ت ٧٢٠ هـ *
- شرح اصطلاح القوم (وهو شرح اصطلاح الصوفية) *
- (دار الكتب المصرية رقم ٢٠١ - تصوف) *
- ٣١ - ابن قاضى شهبة (أبو بكر أحمد بن محمد بن عمر) ت ٨٥١ هـ *
- الاعلام بتاريخ أهل الاسلام *
- (مخطوط مصور في سبعة مجلدات - دار الكتب المصرية رقم ٣٩٢) *
- ٣٢ - المقرئى (تقى الدين أحمد بن على)
- المقتضى * (مخطوط مصور في أربعة مجلدات - دار الكتب المصرية رقم ٥٣٧٢) *
- ٣٣ - ابن مناتى *
- الفائشوش في أحكام قراقوش *
- (دار الكتب المصرية رقم ١٩٤ مجاميع) *
- (والكتاب ينسب خطأ الى السيوطى) *

- ٣٤ — ابن النقاش (أبو امامة بن علي بن عبد الواحد بن يحيى بن عبد الرحيم الدكالي المصري) ت ٧٧٣ هـ .
المذمة في استخدام أهل الذمة .
(مخطوط مصور في مجلد — دار الكتب المصرية رقم ٤٣١٥) .
- ٣٥ — النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) ت ٧٣٢ هـ .
نهاية الأرب في فنون الأدب .
(مخطوط مصور في ٣٢ جزءا — دار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف) . تم تحقيقه أخيرا بمركز التراث بدار الكتب المصرية .
- ٣٦ — النويرى (محمد بن قاسم بن محمد) ت ٧٧٥ هـ .
الإمام بالاعلام فيما جرت الأحكام والأمور المقضية في واقعة الاسكندرية .
(جزءان في مجلدين — دار الكتب المصرية)
الجزء الأول رجعت للنسخة رقم ٣٩٤٢ .
الجزء الثانى رجعت للنسخة رقم ٤١٩٣ .
نشرته أخيرا دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد بالهند .
- ٣٧ — الهروى (أبو الحسن بن أبى بكر بن على) ت ٦١١ هـ .
رحلة الهروى ، وفيها أخبار زيارته لمصر .
(مخطوط في مجلد — دار الكتب المصرية رقم ٣ م جغرافيا) .
- ٣٨ — الكوكب الدرى في مسائل الغورى .
(مخطوط مصور — دار الكتب المصرية رقم ٢٥٨ تفسير) .
- ٣٩ — الوصلة الى الحبيب في وصف الطيبات والطيب .
(مخطوط في مجلد يرجع الى القرن الثامن الهجرى ، دار الكتب المصرية رقم ٧٤ صناعات) .

ثالثا - مصادر ومراجع عربية مطبوعة

- ١ - ابراهيم أحمد نور الدين :
حياة السيد البدوي (القاهرة ١٩٤٨) •
- ٢ - ابن الاخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشي ، ت ٧٢٩ هـ) :
معالم القربة في أحكام الحسبية ، نشره روبن ليوى
(كمبردج ١٩٣٧) - حققه محمد محمد شعبان وصديق
أحمد عيسى المطيعى وصدر بالقاهرة سنة ١٩٧٦ •
- ٣ - الأدفوى (كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب ، ت ٧٤٨ هـ) :
الطالع السعيد الجامع الأسماء نجباء الصعيد (القاهرة ١٩١٤) •
- ٤ - ألف ليلة - أربعة أجزاء - طبعة الحلبي •
- ٥ - ابن اياس (أبو البركات محمد بن أحمد ، ت ٩٣٠ هـ) :
بدائع الزهور في وقائع الدهور المشهور بتاريخ مصر •
ثلاثة أجزاء في مجلدين (بولاق ١٨٨٦) •
- ٦ - باول كالا :
منارة الاسكندرية القديمة في خيال الظل المصرى •
(شتوتجارت ١٩٣٠) •
- ٧ - برنارد لوييس :
النقابات الاسلامية - ترجمه الى العربية عبد العزيز الدورى
(مجلة الرسالة أعداد ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٢ سنة
١٩٤٠) •
- ٨ - ابن بطوطة :
تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار •
جزءان (باريس ١٨٨٠) •

- ٩ — البغدادي (موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف ، ت ٦٢٩ هـ) .
• أخبار مصر (ليدن ١٨٠٠) .
- ١٠ — توفيق الطويل :
• التصوف في مصر إبان الحكم العثماني (القاهرة ١٩٤٦) .
- ١١ — ابن جبير (ت ٦١٤ هـ) :
• رحلة ابن جبير (طبعة ليدن) .
- ١٢ — الجزري (شمس الدين أبو الخير محمد ، ت ٨٣٣ هـ) .
• غاية النهاية في طبقات القراء .
• جزآن في مجلدين (القاهرة ١٩٣٢) .
- ١٣ — جورج يعقوب :
طيف الخيال لابن دانيال الموصلی
ثلاثة أجزاء ، ج ١ ، ٢ ، طبع أرلانجن ١٩١٠ م ، ج ٣ طبع
برلين ١٩١٢ م .
- ١٤ — الجوبري (عبد الرحيم الشهير بعبد الرحمن بن أبي بكر) :
• المختار في كشف الأسرار (دمشق ١٨٨٤) .
- ١٥ — ابن الجيعان (شرف الدين يحيى بن المقر ، معاصر للسلطان
قلاوون) .
• التحفة السنينة بأسماء البلاد المصرية (بولاق ١٨٩٨) .
- ١٦ — ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري ،
ت ٣٨٧ هـ) :
• المدخل ، مدخل الشرع الشريف على المذاهب
• أربعة أجزاء (القاهرة ١٩٢٩) .

١٧ — حسن السندوبى :

• تاريخ الاحتفال بالمولد النبوى (القاهرة ١٩٤٨) .

١٨ — الحسينى (الحافظ أبو المحاسن ، ت ٧٦٥ هـ) :

• ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي (دمشق ١٩٢٨) .

١٩ — ابن حجر (شهاب الدين بن على ، ت ٨٥٣ هـ) :

الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة

أربعة أجزاء فى أربعة مجلات (الهند ١٩٢٩)

٢٠ — الحسن بن عبد الله (القرن الثامن الهجرى) :

• آثار الأول فى ترتيب الدول (بولاق ١٨٧٨) .

٢١ — ابن خلدون (عبد الرحمن) :

المقدمة (من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر)

• (القاهرة ١٨٩٠) .

٢٢ — ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد ، ت ٦٨١ هـ) :

• وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (القاهرة ١٨٩٢) .

٢٣ — ابن أبى الفضائل (المفضل ، ت ٦٧ هـ) :

كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد

• (باريس ١٩٢٠) .

٢٤ — ابن دقماق (ابراهيم محمد المصرى ، ت ٨٠٩ هـ) :

الانتصار لواسطة عقد الأمصار (بولاق ١٨٩٣)

٢٥ — زامباور :

- معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامى
ترجمه الى العربية زكى محمد حسن وحسن أحمد محمود •
جزءان (القاهرة ١٩٥١) •

٢٦ — زكى مبارك :

- التصوف الاسلامى فى الأدب والأخلاق — جزءان
(القاهرة ١٩٣٨) •

٢٧ — زيادة (محمد مصطفى) :

- بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك بمصر
مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة — المجلد الرابع —
الجزء الأول (مايو ١٩٣٦) •

٢٨ — ابن الزيات (شمس الدين أبو عبد الله محمد ، القرن
التاسع الهجرى) :

- الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة فى القرافتين الصغرى
والكبرى (بولاق ١٩٠٧) •

٢٩ — زكى محمد حسن :

- فنون الاسلام (القاهرة ١٩٤٨) •

٣٠ — زيتن شستين :

- تاريخ سلاطين المماليك من سنة ٦٩٠ هـ حتى سنة ٧٤١ هـ •
لم يعلم مؤلفه ويفهم من كتابته أنه معاصر للناصر محمد
(ليدين ١٩١٩) •

- ٣١ — السبكي (تاج الدين أبو نصر عبد الوهات ، ت ٧٧١ هـ) :
معيد النعم ومبيد النقم (لندن ١٩٠٨) .
- ٣٢ — السخاوى (أبو الحسن نور الدين على بن أحمد بن عمر) :
تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم
والبقاع المباركات
نشره محمود ربيع وحسن قاسم (القاهرة ١٩٣٧) .
- ٣٣ — السخاوى (الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ،
ت ٩٠٢ هـ) :
التبر المسبوك فى ذيل السلوك (بولاق ١٨٩٦) .
- ٣٤ — الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . ١٢ جزء فى ١٢ مجلد
(القاهرة ١٩٣٤ ، ١٩٣٦) .
- ٣٥ — سهر القلماوى :
ألف ليلة وليلة (القاهرة ١٩٤٣) .
- ٣٦ — سيرة الظاهر بيبرس (٥٠ جزء) (القاهرة ١٩٢٦) .
- ٣٧ — السيوطى (الحافظ جلال الدين عبد الرحمن ، ت ٩١١ هـ) :
اتمام الدراية لقراء النقابة (الهند ١٨٩١) .
- ٣٨ — الايضاح فى علم النكاح (القاهرة ١٨٨٩) .
- ٣٩ — تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة
(دمشق ١٩٣٢) .
- ٤٠ — حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (القاهرة ١٨٨١) .
- ٤١ — ذيل طبقات الحفاظ للذهبي (دمشق ١٩٢٨) .

- الكنز المدفون والفلك المشحون (طبعة بولاق) •
- ابن شاکر (فخر الدين محمد بن أحمد الکتبى ، ت ٧٦٤) :
 - فوات الوفیات — جزءان (بولاق ١٨٩١) •
- الشریینی (یوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر) •
- هز القحوف فی شرح قصيدة أبی شادوف (بولاق ١٨٩٠) :
- الشعرانی (أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علی الانصارى ، ت ٩٧٣ هـ) :
- لواقح الأنوار فی طبقات السادة الأخیار — جزءان (القاهرة ١٨٨١) • •
- عاشور (سعید عبد الفتاح) :
- انظر المقریزی — کتاب السلوك •
- أبو العباس الدمشقی (أحمد بن یوسف القرمانی ، ت ١٠١٩ هـ)
 - أخبار الدول وآثار الأول (بغداد ١٨٦٥) •
- : — عبد الطیف ابراهیم علی :
- دراسات تاریخیة وأثریة فی وثائق من عصر الممالیک (رسالة لم تطبع • انظر المخطوطات) •
- ٤ — عبد الله بن عبد الظاهر الکتب :
 - الألطف الخفیة فی السیرة الشریفة السلطانیة الملكية الاشرافیة (لیبسک ١٩٠٢) •
- ٥ — عبد الوهاب عزام :
- مجالس السلطان الغوری (القاهرة ١٩٤١) •

- ٥١ — على باشا مبارك :
الخط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة
عشرون جزءا (بولاق ١٨٨٨) .
- ٥٢ — العمرى (شهاب الدين أحمد بن فضل الله ، ت ٧٤٢ هـ) :
التعريف بالمصطلح الشريف (القاهرة ١٣١٢ هـ) .
- ٥٣ — مسالك الأ بصار في ممالك الأمصار — الجزء الأول
(القاهرة ١٩٢٤) .
- ٥٤ — العيدروسى (محيى الدين عبد القادر بن عبد الله الهندى) .
النور السافر عن أخبار القرن العاشر .
(بغداد ١٩٣٤) .
- ٥٥ — غرس الدين (خليل بن شاهين الظاهرى ، ت ٨٧٣ هـ) .
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك
نشرة بولس راويس (باريس ١٨٩٤) .
- ٥٦ — أبو الفدا (عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى ،
ت ٧٧٤ هـ) :
الاجتهادات في طلب الجهاد (طبعة القاهرة) .
- ٥٧ — ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن على
المصرى ، ت ٨٠٧ هـ) :
تاريخ الدول والملوك ، المعروف بتاريخ ابن الفرات المطبوع
منه — جزآن من سنة ٧٨٩ هـ الى سنة ٧٩٩ هـ ويقابل هذان
الجزآن ج ١٧ ، ١٨ من النسخة المخطوطة (بيروت ١٩٣٦) .

٥٨ — مؤاد حسنين :

محمد بن دانيال

ثلاثة أبحاث نشرت في مجلة الثقافة أعداد ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠
• (١٩٤٢ — ١٩٤٣)

٥٩ — ابن فهد (الحافظ أبو الفضل تقى الدين محمد ، ت ٨٧١ هـ) :

لحظ الألفاظ بذييل طبقات الحفاظ (دمشق ١٩٢٨) .

٦٠ — القلقشندي (أبو العباس أحمد ، ت ٨٣٢ هـ) :

صبح الاعشى في صناعة الأنثا

• (القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٩)

٦١ — ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) :

البداية والنهاية

جزء ١٣ مطبوع وينتهي بسنة ٦٩٨ هـ ، بقية الكتاب مخطوط

• مدار الكتب المصرية رقم ١١١٠

٦٢ — كلوت بك :

لمحة عامة الى مصر — جزآن .

• نقله الى العربية محمد مسعود (القاهرة ١٩٢٤)

٦٣ — أبو المحاسن (جمال الدين يوسف ابن تغرى بردى ،

ت ٨٧٤ هـ) :

منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور .

أربعة أجزاء في أربعة مجلدات — نشرها وليم بير

• (كاليفورنيا ١٩٣١)

- ٦٤ — مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة
• نشره كارليل (كامبردج ١٧٩٢)
- ٦٥ — النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
رجعت الى طبعة دار الكتب المصرية حتى نهاية الجزء التاسع
أى حتى سنة ٧٤١ هـ • وبعد ذلك رجعت في بقية الكتاب
الى طبعة كاليفورنيا ، نشره وليم بيب ١٩٠٩ •
وقد تم تحقيق الكتاب ونشره أخيرا بدار الكتب المصرية •
- ٦٦ — محمد على أحمد ، وأحمد على محمد :
تاريخ السيد البدوى
٦٧ — محمد غنيمى هلال :
• الأدب المقارن (القاهرة ١٩٦٣)
- ٦٨ — محمد كامل حسين :
• التشيع في الشعر المصرى في عصر الايوبيين والمماليك •
مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة — المجلد الخامس عشر —
الجزء الأول (سنة ١٩٥٣) •
- ٦٩ — محمد مصطفى :
صفحات لم تنشر من بدائع الزهور في وقائع الدهور تأليف
محمد بن أحمد ابن اياس — من سنة ٨٥٧ الى ٨٧٢ هـ
• (القاهرة ١٩٥١)
- ٧٠ — وستنفلد :
أخبار قبط مصر — لم يعلم جامعها ، وهى مأخوذة من كتاب
المواعظ والاعتبار للمقرئى (جوتنجن ١٨٤٥) •

- ٧١ — المقرئزى (تقى الدين أحمد بن على ، ت ٨٤٥ هـ) :
إغاثة الأمة بكشف الغمة
نشره محمد مصطفى زيادة وجمال الدين محمد الشيبان
(القاهرة ١٩٤٠) •
- ٧٢ — البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب
نشره وستنفلد (جوتنجن ١٨٤٧) •
- ٧٣ — ذكر دخول قبض مصر فى دين النصرانية
نشره وتزر (سولزبناك ١٨٢٨) •
- ٧٤ — السلوك لمعرفة دول الملوك
حققه محمد مصطفى زيادة حتى سنة ٧٧٥ هـ فى ستة مجلدات
وبقية الكتاب قام بتحقيقه سعيد عبد الفتاح عاشور فى ستة
مجلدات أخرى •
- ٧٥ — المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار — ٤ أجزاء •
(القاهرة ١٩٠٧ م) وكذلك طبعة بولاق فى مجلدين ١٣٧٠ هـ •
- ٧٦ — النابلسى (فخر الدين عثمان بن ابراهيم ، القرن السابع
الهجرى) :
تاريخ الفيوم المسمى إظهار صنعة الحى القيوم فى ترتيب
بلاد الفيوم (بولاق ١٨٩٨) •
- ٧٧ — النويرى (شهاب أحمد بن عبد الوهاب ، ت ٧٣٢ هـ) :
نهاية الأرب فى فنون الأدب •
طبعة دار الكتب فى ٣٢ جزءا (١٩٢٨ — ١٩٩٢) •

٧٨ — ابن الوردى (زين الدين أبو حفص ، ت ٧٤٩ هـ) :

• خريدة العجائب وفريدة الغرائب (ليدن ١٨٢٣)

٧٩ — ولفرد جوزف دلفى :

العمارة العربية بمصر (القرنان ١٤ ، ١٥)

• ترجمة محمود أحمد (بولاق ١٩٢٣)

٨٠ — أبو يحيى زكريا بن محمد (ت ٩٢٦ هـ) :

• اللؤلؤ النظيم في روم التعلم والتعليم (القاهرة ١٩٠٩)

رأبما - مرآع أوربببة

1 — Barbler de Meynard (M. A. C.) :

Surmoms et Sobriquets dans la Littérature Arabe.

(J. A. 2 Serie — Tome IX, X — Paris, 1907).

2 — Belin (M.) :

Du Regime des fiefs militaires dans l'Islamisme.

(J. A. 6 Serie, Tome 15, Paris, 1870).

3 — Belin (M.) :

Fetoua relatif á la Condition des Zimmis, et Particuliera-

ment des chretiens en pays musulmans, depuis l'etablis-

ment de l'Islamisme, Jusqu' au milieu du 8 siecle de

l'hegre.

(J. A. 4 Serie, Tome 18, 1851 & Tome 19, 1852).

4 — Belon (Pierre) :

Les Observations de Plusieurs Singularitez et Choses

memorables trouves en Grace, Asie, Judée, Egypte, Arabe,

et autres payes estranges. (Paris, 1553).

5 — Carré (Jean - Marie) :

Voyageurs et Ecrivains Francais en Egypte.

(Le Caire, 1932).

(م ١٩ - المآع المصرى)

6 — Charles de la Roncière :

La Decouverte de l'Afrique au Moyen Age, (Mémoires de la Société Royale de Géographie d'Égypte. Tome 6 — Le Caire, 1925).

7 — Clerget (Marcel) :

Le Caire — 2 vols. (Le Caire, 1934).

8 — Dopp (P. H.) :

Le Caire Vu par les Voyageurs Occidentaux du Moyen Age.
(Bulletin de la Société Royale de Géographie d'Égypte —
Tome 23, 1950; Tome 24, 1951; Tome 26, 1953).

9 — Dopp (P. H.) :

L'Égypte au Commencement du Quinzième Siècle; d'après
la traité d'Emmanuel Piloti de Crète. (Le Caire, 1950).

10 — Dozy (R. P. A.) :

Dictionnaire Détaillé des Noms des Vêtements chez les
Arabes. (Amsterdam, 1845).

11 — Emile Amar (M.) :

Préliminaires à l'étude des historiens Arabes par Khalil
Ibn Aibak Assafadi. (J. A. 2m. Série — Tome 17, 1911).

12 — Giddings (F. H.) :

The Principles of Sociology. (London, 1924).

13 — Gillin (J. L.) & Blackman (F. W.) :

Outlines of Sociology. (New York, 1930).

14 — Guyard (M. St.) :

Le Fetwa d'Ibn Taimiyah sur les Nosairis,

(J. A. — 6m. Série — Tome 18 — Paris, 1871).

15 — Heyd (W.) :

Histoire du Commerce du Levant du Moyen Age (2 Vols.)

(Leipzig, 1923).

16 — Ibrahim Salama :

L'Enseignement Islamaque En Egypte.

(Le Caire, 1939).

17 — Kahle (Paul) :

The Arabic Shadow Play in Egypt.

(J. R. A. S. London, 1949).

18 — Kammerer (A. Albert) :

Le Régime et le Status des Etrangers En Egypte.

(Memoires de la Société Royale de Geographie d'Egypte —

Tome 15 — Le Caire, 1929).

19 — Lane (E. W.) :

An Account of the Manners and Customs of the Modern

Egyptians. (London, 1860).

20 — Lane — Poole (S.) :

A Hist. of Egypt in the Middle Ages. (London, 1936).

21 — Lane - Poole (S.) :

Cairo. (London, 1892).

22 — Lane - Poole (S.) :

Social Life in Egypt. (London, 1883).

23 — Larrivaz (F.) :

Le Saintes Peregrination de Bernard de Breydenbach.

(Le Caire, 1904).

24 — Laurent d'Arvieux :

Memoires dn Chevalier d'Arvieux, (Paris, 1985).

25 — Levi — Provencal (E) :

Zawiya, (En. Isl vol. 4).

26 — Marcais (G.) :

Ribat. (En. /sl. vol. 3).

27 — Massignon (L.) :

Tasawuf (En. Isi, vol, 4).

28 — Muir (W.) :

The Mamluke or Slave Dynasty of Egypte.

(London, 1896).

29 — Pollak (A. N.).

Feudalism in Egypt, Syria, Palestine.

(London, 1939).

30 — Poliak (A. N.) :

Les Revoltes Populaires en Egypte a l'Epoque des Mamelouks et Leurs Causes Economiques,

(R. E. vol. 8, 1934).

31 — Poliak (A. N.) :

Some Notes on the Feudal System of the Mamlukes.

(J. R. A. S. London, 1937).

32 — Quatremère (E.) :

Histoire de Sultans Mamlouks de l'Egypte. 2 vols.

(Paris, 1837).

33 — Reinaud (M.) :

Traites de Commerce entre la republique de Venise et les derniers Sultans Mameloucs d'Egypte.

(J. A. 2m Serie — Tome 4 — Paris, 1829).

34 — Schefer (C.) :

Le Voyage d'Outermer de Jean Thenaud.

(Paris, 1864).

35 — Schefer (C.) :

Voyage du Magnifique et tres illustre Chevalier Domenico
Trevisan. (Paris, 1864).

36 — Sobernheim (M.) :

Mamluks. (Enc. Isl. vol. 3).

37 — Spiller (G.) :

Towards An Agreed Basis in Sociology.
(London, 1933).

38 — Tafur (Pero) :

Travels and Adventures (London, 1920).

39 — Vansleb (P.) :

Nouvelle Relation en forme de Journal d'un voyage en
Egypte. (Paris, 1682).

40 — Vollers (K.) :

Ahmed al-Badawî. (Enc. Isl. vol. 1).

41 — Wiet (G.) :

Les Biographies du Manhal Safi. (Memoires a l'institut
d'Egypte — Le Caire, 1932).

42 — Wiet (G.) :

L'Egypte Arabe. (Paris, 1937).

فهرس الموضوعات

الصفحة

٥	المقدمة
١٥	الفصل الأول : بناء المجتمع المصرى فى عصر سلاطين الممالىك
٣٥	— المعمون
٤١	— التجار
٤٣	— الصناع وأرباب الحرف
٤٤	— العموم
٤٧	— أهل الذمة
٥٦	— الفلاحون
٦٠	— الأعراب
٦٣	— الأقليات الأجنبية
٦٧	الفصل الثانى : القصر السلطانى وحياة السلاطين
٦٧	— قلعة الجبل
٦٩	— البيوت السلطانية الشريفة
٧٢	— حياة السلاطين
٧٦	— وسائل التسلية والرياضة
٨٤	— البلاط والحياة الرسمية
٨٧	— المواكب السلطانية
٩١	— الأسفار السلطانية

الصفحة

- الفصل الثالث : الحياة العامة في القاهرة والمدن ٩٣
- صورة القاهرة في عصر الماليك ٩٣
- الأسواق ٩٧
- عدم الاستقرار الاقتصادي ٩٩
- المنشآت الاجتماعية ١٠١
- السجون والعقوبات ١٠٨
- روح المرح ووسائل التسلية ١١٢
- المآتم والأحزان ١٢١
- القرافة ١٢٣
- الفصل الرابع : الحياة المنزلية ١٢٥
- المنازل في العصر المالكي ١٢٥
- الحياة العائلية ١٢٦
- النوم ١٢٩
- الطعام ١٢٩
- الاحتفالات العائلية ١٣١
- الفصل الخامس : حياة المرأة ومكانتها في المجتمع ١٤١
- مكانة المرأة في المجتمع ١٤٣
- الجوارى ١٤٦
- المرأة والحياة العامة ١٤٩

الصفحة

- ١٩٥٧ * * * الفصل السادس : الحياة العلمية والدينية
١٩٥٧ * * * * * — نشاط الحياة العلمية
١٥٨ * * * * * — المدارس
١٦٧ * * * * * — المكاتب
١٧٠ * * * * * — النشاط الدينى والتشيع
١٧٢ * * * * * — الخلافة العباسية فى القاهرة
١٧٣ * * * * * — القضاة
١٧٧ * * * * * — الجوامع والمساجد
١٧٨ * * * * * — التصوف
١٨٦ * * * * * — الخوانق والربط والزوايا
١٩٥ * * * * * الفصل السابع : الأعياد الدينية والقومية
١٩٥ * * * * * — رأس السنة الهجرية
١٩٦ * * * * * — عاشوراء
١٩٧ * * * * * — المولد النبوى
٢٠٠ * * * * * — دوران الحمل
٢٠٣ * * * * * — ليالى الوقود
٢٠٤ * * * * * — إحياء رمضان
٢٠٨ * * * * * — عيد الفطر
٢١٠ * * * * * — خروج الحمل

الصفحة	
٢١١	— عيد الأضحى
٢١٢	— الاحتفالات القومية
٢١٣	— الاحتفالات السلطانية
٢١٧	— وفاء النيل وكسر الخليج
٢٢١	— أعياد النصرارى
٢٢٧	— الفصل الثامن : الألقاب والخلع والملابس
٢٢٧	— الألقاب
٢٢٩	— الخلع
٢٣١	— ملابس الرجال
٢٣٩	— ملابس النساء
٢٤٥	— المظهر العام للأفراد
٢٤٧	— الفصل التاسع : الأمراض الاجتماعية
٢٤٩	— الزنا
٢٥٠	— الشذوذ الجنسى
٢٥٢	— المخدرات
٢٥٣	— الخمور
٢٥٦	— الرشوة
٢٥٩	— الاعتقاد فى الأولياء والمشايخ
٢٦٤	— المعتقدات الباطلة

الصفحة

٢٧١	• • • • • • • •	المصادر والمراجع
٢٧١	• • • • • • • •	الحجج الشرعية والوثائق
٢٧٢	• • • • • • • •	مراجع عربية مخطوطة
٢٧٨	• • • • • • • •	مراجع عربية مطبوعة
٢٨٩	• • • • • • • •	مراجع أوروبية

« تم بحمد الله »

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٩٢ / ٤٦٤٧

I. S. B. N

977 — 04 — 0837 — 9

المطبعة الاسلامية الحديثة

٤٢ (أ) شارع دار السعادة — الزيتون

القاهرة — ت ٢٤٦٦٩٣٨

